المختار من كتاب

الكامل في اللغة والأدب

للمبرّد

اختيار

الدكتور حسين نصّار

أستاذ الأدب العربي

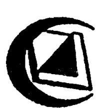
عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة «سابقًا»

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعـة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع	١٤٧٧٨/ ٢٠٠١
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 341 -050 -1



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد ـ الظاهر ـ القاهرة
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قـــال العالم المعروف ابن خلدون : « سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن (فن الأدب) وأركانه أربعة دواوين ، وهى : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادىّ . وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها ، وفروع عنها » .

تلك نظرة القدماء إلى كتاب الكامل للمبرد ... الكتاب الذى دفعنى القول الســـابق وأمثاله إلى محاولة تقديمه إلى القراء ، فى هذه الصورة التى أشارت بها إدارة الـــتراث العـــربى من وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، تيسيرا على القارئ العام ، وغير المتخصص فى دراسة الأدب .

وصاحب هذا الكتاب محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالىّ الأزْدىّ البصرىّ ، أبـــو العـــباس المبرّد ، من العلماء الأدباء ، الذين نالوا من الشهرة فى حياتهم ما لم تنقصه الأيام .

ولد أبو العباس يوم الاثنين غداة عيد الأضحى سنة عشر ومئتين ، وقيل : سنة سبع ومئتين بمدينة البصرة من العراق .

واختـــلف المؤرخون فى أصل المبرد . فنقل ابن النديم « من خط الحكيميّ من كتاب حلية الأدباء ، قال أبو عبد الله محمد بن القاسم : كان المبرد من السورحيِّين بالبصـــرة ، ممـــن يُكسّر الأرَضين ، وكان يقال له : حَيان السورحىّ ، وانتمى إلى الـــيمن ، ولذلـــك تـــزوج المبرد ابنة الحفصىّ ، والحفصى شريف من اليمنية » . واخـــتار المبرد من قبائل اليمن ثمالة من الأزد ، لينتسب إليها . واشتهى أن يشتهر بهـــذه القبيـــلة ، فصـــنع أبياتا من الشعر فى هجاء نفسه كى لا يشك فيها أحد ، فشاعت وحصل له مقصوده . هذه الأبيات هى قوله :

سألنا عن ثمالةَ كـــلَّ حَىّ ... فقال القائلون : ومن ثمالهْ ؟

فقلت : محمد بن يزيد منهم ... فقالوا : زدتنـــا بهم جَهالهْ

فقـــال لىَ المبرد : خَلّ عنى ... فقَومى معشـــر فيهم نذالهْ

وذهـــب غير هؤلاء من العلماء إلى أنه عربىّ من هذه القبيلة ، وأن الشعر قاله عبد الصمد بن المعذّل فى هجائه .

وإذ كـــانت البصرة فى عصر المبرد موطن الأدب واللغة والنحو ، أخذ يتلقى هـــذه العلوم فى حلقاتها المختلفة . ثم ارتحل إلى بغداد ليكمل دراساته . فدرس على أبى عمـــر الجـــرْمى ، وأبى عثمان المازنى ، وأبى حاتم السِّجستانى وغيرهم من أهل العربية . ويقال : إنه بدأ بقراءة كتاب سيبويه على الجرمى ، ثم ختمه على المازنىّ ، وصار بعدُ أكثرُ اعتماده على الأخير منهما .

ومـــا زالـــت همة المبرد تسمو به إلى أن صار إمام المذهب البصرىّ فى النحو العـــربى ببغداد . وخلع عليه المؤرخون صفات التمجيد ، فقيل عنه : « كان حسن المحاضـــرة ، فصـــيحا ، بليغا ، مليح الأخبار ، ثقة فيما يرويه ، كثير النوادر، فيه ظرافة ولباقة » .

وقال أبو بكر بن مجاهد : « ما رأيت أحسن جوابا من المبرد فى معانى القرآن ، فيما ليس فيه قول لمتقدم » . وقال نفطويه : « ما رأيت أحفظ لأخبار بغير أسانيد منه ومن أبى العباس بن الفُرات » . وقال أبو سعيد السيرافى : « وقد نظر فى كتاب سيبويه فى عصره جماعة لم يكن لهم كتناهيه ، مثل أبى ذكْوان القاسم بن إسماعيل ، ومثل أبى على بن ذكوان، ومثل أبى يعلى بن أبى زُرْعة ، من أصحاب الحديث ، ومثل الطبرىّ ، ومثل أبى عثمان الاشنانداني ، وأبى بكر محمد بن إسماعيل المعروف بمبرمان وغيرهم ». وقال إسماعيل القاضى: «ما رأى المبرد مثل نفسه».

وبعد أن بلغ المبرد ما بلغ ، اصطدم برأس المذهب الذى يخاصم مذهب أهل البصرة ، وهو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، إمام الكوفيين فى عصره . واشتهرت الخصومة بينهما ،حتى ضربت بها الأمثال . قال بعض الشعراء :

كَفَى حَزَنا أنّا جميعا ببلدةٍ	ويجمعنا فى أرضها شرُّ مَشْهَدِ
وكلٌّ لكلٍّ مُخلِصُ الودِّ وامقٌ	ولكنه فى جانب عنه مُفْرَدِ
نروح ونغدو لا تزاوُرَ بيننا	وليس بمضروبٍ لنا يومُ موعدِ
فأبداننا فى بلدة والتقاؤنا	عَسيرٌ كلُقْيا ثعلب والمبرد

وقامت معارك شعرية بين الإمامين وأنصارهما ، يحاول كل شاعر فيها أن يدافع عن إمامه ويهاجم خصمه . قيل « جاء رجل إلى ثعلب فقال له : يا أبا عباس ، قد هجاك المبرد . فقال : بماذا ؟ فأنشده :

أُقْسمُ بالمبْتَسَمِ العَذْبِ	ومُشْتَكَى الصَّبِّ إلى الصَّبِّ
لو أخذ النحو عن الربِّ	ما زاده إلا عمى القلب

فقال : أنشدنى من أنشده أبو عمرو بن العلاء :

يشتمنى عبدُ بنى مِسْمَع — فصُنْت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقارى لــــه — من ذا يعض الكلبَ إنْ عضا

وقال أحمد بن عبد السلام يفضل المبرد على ثعلب :

رأيت محمد بن يزيد يسمو — إلى الخيرات فى جاه وقدْرِ
جليس خلائف وغَذِىُّ مُلكٍ — وأعلم من رأيتُ بكل أمــر
وفِتْيانيّة الظرفاءِ فيــــــه — وأبهــة الكـــبير بغير كِبْر
فينثر إن أجال الفكــر دُرّا — وينثر لؤلؤا من غــير فــكر
وكان الشعر قد أودى فأحيا — أبو العباس داثر كــل شعر
وقالوا : ثعلبٌ رجل عليــم — وأين النجم من شمس وبدر ؟
وقالوا : ثعلب يفتى ويملى — وأين الثُّعْلبان من الهِزَبْر ؟

وتوسط بعض الشعراء فقال :

أيا طالبَ العلم لا تَجْهَلَنْ — وعُذْ بالمبرد أو ثعــــلب
تجد عند هذين علم الورى — فلا تك كالجمــل الأجرب
عــــلوم الخلائق مقرونة — بهذين فى الشــرق والمغرب

وكان المبرد يحب الاجتماع بثعلب فى المناظرة ، وكان ثعلب يكره ذلك ويمتنع مــنه . وقد روى خبر عن ذلك يكشف عن شخصية الرجلين . حكى أبو القاسم جعفــر بن محمد بن حمدان الفقيه الموصلى ، وكان صديقهما ، قال : قلــت لأبى

عبد الله الدينورى ختن ثعلب : « لِمَ يأبى ثعلب الاجتماع بالمبرد ؟ » فقال : « لأن المبرد حسن العبارة ، حُلو الإشارة ، فصيح اللسان ، ظاهر البيان ؛ وثعلب مذهبه مذهب المعلمين . فإذا اجتمعا فى محفل حكم للمبرد على الظاهر ، إلى أن يُعرف الباطن ».

ويبدو أن هذه الخصومة ، إلى جانب ما اتصف به المبرد من سعة الثروة اللغوية ، أثرها فى اتهامه بالكذب والانتحال والخطأ . قال العجوزى : « صرت إلى المبرد مع القاسم والحسن ابنى عبيد الله بن سليمان بن وهب . فقال لى القاسم : « سَلْهُ عن شىء من الشعر » . فقلت : « ما تقول أعزك الله فى قول أوس :

وغَيَّرَها عن وصلها الشيبُ إنه شفيعٌ إلى بيض الخدور مُدَرَّبُ »

فقال بعد تمكث وتمهل وتمطق : «يريد أن النساء أنسن به فصرن لا يستترن منه» . ثم صرنا إلى أبى العباس ثعلب . فلما غص المجلس سألته عن البيت . فقال : « قال لنا ابن الأعرابى : إن الهاء فى « إنه » للشباب ، وإن لم يجر له ذكر ، لأنه عُلِمَ » . والتفتُّ إلى الحسن والقاسم وقلت : « أين صاحبنا من صاحبكم ؟ » .

وقال المفجَّع البصرى : كان المبرد لكثرة حفظه للغة وغريبها ، يُتَّهم بالوضع فيها . فتواضعنا على مسألة نسأله عنها لا أصل لها ، لننظر ماذا يجيب . وكنا قبل ذلك تمارَيْنا فى عَروض بيت الشاعر :

أبا مُنْذرٍ أفنيتَ فاسْتَبْقِ بعضنا حَنانَيْك بعضُ الشر أهون من بعض

فقال البعض : هو من البحر الفلانى . وتردد على أفواهنا من تقطيعه :

« فى بَعْضنا » . ثم ذهبنا إلى المبرد فقلنا له : « أيدك الله تعالى ، ما القَبَعْض عند العـــرب ؟ » فقال : « هو القطن ، وفى ذلك يقول الشاعر : * كأنّ سنامها حُشِىَ القَبَعْضــا * » . فقلت لأصحابى : « ترون الجواب والشاهد ، فإن كان صحيحا فهو عجب، وإن كان مُختلَقا على البديهة فهو أعجب » .

وتـــوفى المبرد يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة — وقيل : ذى القعدة — ســـنة ســـت وثمـــانين ، وقيل : خمس وثمانين ومئتين ببغداد . ودفن فى مقابر باب الكوفـــة. ورثـــاه أبو بكر الحسن بن على المعروف بابن العَلّاف ، وقيل : خصمه ثعلب ، فقال :

ذهب المـــبرد وانقضت أيامُـــه	ولَيَذْهَبَنّ مع المـــــــبرد ثعلبُ
بيت من الآداب أضحى نصفه	خَربا ، وباقى النصف منه سيخرب
فتزودوا من ثعلبٍ فبكأس مـــا	شرب المبرد عن قريب يشـــــرب
أوصيكمُ أن تكتبوا أنفاسَـــــه	إن كانت الأنفاس ممـــــا يكتب

وقـــد اختـــلف العلماء فى صورة لقب أبى العباس وسببها. قيل إن البصريين يلقـــبونه المبرِّد بكسر الراء ، وإن الكوفيين حرفوه ، ففتحوا الراء . فقال الحـــافظ أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب الألقاب: إن المبرد سئل: « لم لقبت بهذا اللقب ؟ » فقال : « كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبنى للمنادمة والمذاكرة ، فكرهت الذهاب إليه . فدخلت إلى أبى حاتم السجستانى ، فجاء رسول الوالى يطلبنى . فقال لى أبو حاتم : ادخل فى هذا ، يعنى غلاف مِزْملة فارغا . فدخلت فيه وغطى رأسه . ثم خـــرج إلى الرســـول وقال : هو ليس عندى : فقال : أُخبرت أنه دخل إليك . فقال : ادخل الدار وفتشها . فدخل فطاف كل موضع فى الدار ، ولم يفطن لغلاف المزمـــلة ثم خـــرج . فجعل أبو حاتم يصفّق وينادى على المِزْملة : المبرّد ، المبرد .

وتسامع الناس بذلك ، فلهجوا به » . وقال ياقوت : « إنما لقب بالمبرد ، لأنه لما صنف المازنى كتاب الألف واللام ، سأله عن دقيقه وعويصه ، فأجابه بأحسن جواب ، فقال له المازنى : « قم فأنت المبرِد » بكسر الراء ، أى المثبت للحقّ ، فحرفه الكوفيون ، وفتحوا الراء » .

وكان المبرد من العلماء المكثرين فى التصنيف فى النواحى المختلفة من الثقافة العربية ؛ ألف فى النحو ، واللغة ، والأدب ، والقرآن ، والأخبار ، والأنساب ، وغيرها . ولدينا قائمة طويلة بأسماء ما ألف من كتب . ولكن بعض الغموض غطى على أشياء من هذه القائمة . ولذلك نستطيع القطع بموضوع بعض الكتب ومادتها وبأسماء بعض الكتب الأخرى التى وردت أسماؤها مختصرة حينا ، ومكتملة حينا آخر على أن بعض كتبه اتخذ عناوين مختلفة عند الكتاب ، ولسنا قادرين على جلاء كل هذه الشكوك والظنون .

وهذه قائمة بما عثرت عليه من عناوين كتبه فى المصادر المختلفة . كتاب المقتضب فى النحو ، وقيل عنه إنه أكبر مصنفاته وأنفسها – المدخل فى النحو – الإعراب – معنى كتاب سيبويه – المدخل إلى سيبويه – الزيادة المنتزعة من سيبويه – الرد على سيبويه – شرح شواهد الكتاب – معنى كتاب الأوسط للأخفش – التصريف – الاشتقاق – معانى القرآن أو الكتاب التام – إعراب القرآن – احتجاج القراء – الحروف – الحروف فى معانى القرآن – الفاضل والمفضول – شرح كلام العرب وتلخيص ألفاظها، ومزاوجة كلامها ، وتقريب معانيها – الأنواء والأزمنة – المذكر والمؤنث – المقصور والممدود – أسماء الدواهى عند العرب – صفات الله جل وعلا – العبارة عن أسماء الله تعالى – القوافى – العروض – ضرورة الشعر – قواعد الشعر – البلاغة – الخط والهجاء – ما اتفق لفظه

واختــلف معــناه فى القرآن — نسب عدنان وقحطان — طبقات النحاة البصريين وأخبارهم — الروضة — الجامع — الرياض المونقة — الوشى — الرسالة الكاملة — الحــث عــلى الأدب والصدق — أدب الجليس — الممادح والمقابح — التعازى — المناطق .

ومهما طالت هذه القائمة أو قصرت ، فإن صورة المبرد لا تنفصل عن صورة الكامل ، فلا يكاد المرء ينطق باسم المبرد حتى يرد على الخاطر اسم الكامل ، فهما مرتــبطان أكــثر من ارتباط المبرد بأى كتاب آخر من كتبه ، وكتاب الكامل هو الــذى وهب مؤلفه المجد والخلود . والحق إن الكامل يمثل المبرد أدق تمثيل إذ يضم مــواد تنتمى إلى كل ميدان ألمَّ به من ميادين الثقافة العربية ، فيه النحو ، واللغة ، والأدب ، والأخــبار ، والقــرآن ، والعَروض وغيرها . ولم يبتكر المؤلف منهجا خاصًّا به ، فى سبيل عرض هذه المواد ، بل إن منهجه منهج أصحاب كتب النوادر والأمالى وأمثالها . ولكن على حين أغرق هؤلاء فى النحو واللغة ، ولم يحسنوا عرض ماتعرَّضــوا له ، أكثر المبرد من الأخبار واللطائف ، وأجمل إبراز ما أحب إبرازه من أخــبار ، فكاد المرء لا يحس بمشاق النحو واللغة حين غطى عليها جمال الأدب . وإن قارئ الكامل ليخرج منه بمواد متصلة بتاريخ العرب فى جاهليتهم وإسلامهم، فى حيــاتهم السياســية والثقافية والأدبية ، لا يجد مثيلا لها فى كتاب آخر من كتب الثقافة العربية ، ولو تخصصت فى الفروع المذكورة .

ولمــا كان الكامل بهذه القيمة ، فقد عنى الدارسون المحدثون به عناية شديدة فطــبع فى أوروبــا ، وفى مصر أكثر من مرة . ولكن أضبط هذه الطبعات وأدقها وأشدها تحريا لمنهج التحقيق العلمى الحديث طبعة أوروبا . وتقع فى مجلد ضخم .

أمــــــا الطبعات المصرية فجعلته فى مجلدين ، يبلغ الواحد منهما قريبا من ٣٥٠ صفحة.

وقد حاولت فى هذا المختصر أن أحافظ كل المحافظة على عبارة المؤلف ، فلم أدخـــل عـــليها غريبا عنها إلا فى مواضع معدودة ، للربط بين الأخبار ، إلى جانب العـــناوين الـــتى جعلتها فى رأس المواد . وكان القسط الأكبر مما حذفت يتألف من الإضـــافات التى أدخلها (أبو الحسن الأخفش الأصغر) على الكتاب ، فحذفتها جميعـــا ؛ ومن الشروح النحوية والصرفية واللغوية التى كان يأتى بها بعد كل خبر . أما الأخبار أنفسها فقد حاولت جاهدا أن يكون ما أحذفه منها قليلا ، حتى أحتفظ بجوهر الكتاب ، وإن اضطررت إلى حذفها أحيانا ، وبخاصة حين يكون لها نظائر، ولا ســـيما أن المؤلـــف كان يأتى أحيانا بكثير من المتشابهات والشواهد على المثل الواحـــــــد .

وبعد ، فرجائى أن أكون قد وفّقت فى بعث الرغبة فى القارئ الحديث إلى أن يـــرجع إلى « كامل المبرد » الأصلى ، فذلك ما أعده نجاحا لى ، وتحقيقا لهدفى ، والله الموفق إلى خير السبل ،،،،،

الدكتور حسين نصار

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

مقدمة المؤلف

الحمــد لله حمــدا كثيرا يبلغ رضاه ، ويوجب مزيده ، ويُجير من سخطه . وصــلى الله عــلى محمد خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ، صلاة تامة زاكية ، تؤدى حقه ، وتُزلفه عند ربــه .

هــذا كــتاب ألّفناه ، يجمع ضروبا من الآداب : ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة .

والــنية فيــه أن نفّســر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مســتغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا ، وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنيا .

وبالله التوفيق والحول والقوة ، وإليه مَفْزعنا فى دَرْك كل طَلبة ، والتوفيــــق لمــا فيه صلاح أمورنا من عمل بطاعته ، وعقد يرضاه ، وقول صادق يرفعه عمل صالح ؛ إنه على كل شىء قدير .

من خطب الرسول والصحابة

قـال رسـول الله صـلى الله عـليه وسلم للأنصار فى كلام جَرَى : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » .

الفـزع فى كـلام العـرب على وجهين : أحدهما ما تستعمله العامة تريد به الذعـر ، والآخر الاستنجاد والاستصراخ ، ويشتق من هذا المعنى أن يقع فزع فى معنى أغاث .

وقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : « ألا أخبركم بأحبكم إلىّ ، وأقـربكم مـنى مجـالس يوم القيامة : أحاسنُكم أخلاقا ، الموطَّئون أكنافا ، الذين يـألفون ويُؤلفـون . ألا أخبركم بأبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة : الثرثارون المُتَفَيْهقون » .

قوله صلى الله عليه وسلم : الموطئون أكنافا ، مَثَل وحقيقته : أن التوطئة هى التذليل والتمهيد ، يقال فراش وَطىء ، إذا كان وثيرا لا يؤذى جنب النائم عليه ، فأراد القائل موطأ الأكناف ، أن ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذًى ولا نابٍ به موضعه . وتأويل الأكناف الجوانب ، يقال فى المثل فلان فى كنف فلان ، كما يقال فـلان فى ظـل فـلان ، وفى ذَرى فـلان ، وفى ناحية فلان ، وفى حَيِّز فلان . والـثرثارون : يعـنى الذيـن يكـثرون الكلام تكلفا وتجاوزا خروجا عن الحق .

والمتفيهقون : إنما هو بمنزلة قوله الثرثارون ، توكيد له، من قولهم فَهِق الغدير يَفْهَق، إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد .

وتصـــديق مـــا فســـرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه يريد الصـــدق فى المنطق والقصد وترك ما يحتاج إليه، قـــوله لجرير بن عبد الله البَجَلىّ : « يا جرير ، إذا قلت فأوْجِز ، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف » .

ومـــا يؤثَـــر من حكيم الأخبار وبارع الآداب ما حُدِّثنا به عن عبد الرحمن بن عـــوف ، وهو أنه قال : « دخلت يوما على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى‌عنه فى علّـــته التى مات فيها ، فقلت لـــه : أراك بارئا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وســـلم . فقـــال : أمَـــا إنى على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد علىَّ من وجعى ، إنى ولّيت أموركم خيركم فى نفسى ، فكلُّكم وَرِم أنفُـــه أن يكون لـــه الأمر من دونه . والله لَتَتَّخِذُنّ نضائد الديباج وستور الحرير ، ولَتَأْلَمُنَّ النوم على الصوف الأَذْرَبِىّ ، كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان. والـــذى نفســـى بيده ، لأنْ يُقدَّم أحدكم فتُضرَب عنقه فى غير حَدّ خَيْرٌ له من أن يخـــوض غَمَرات الدنيا ، يا هادىَ الطريق ، جُرْتَ ، إنما هو والله الفجر أو البَجْر . فقلت : خَفِّض عليك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا يَهيضك إلى ما بك . فو الله ما زلتَ صالحا مُصلحا لا تَأْسَ على شىء فاتك من أمر الدنيا ، ولقد تخليت بالأمر وحدك فما رأيت إلا خيرا » .

قولـــــه : نضائد الديباج ، واحدها نَضِيدة ، وهى الوسادة ، وما يُنضَد من المتاع . وقد تسمى العرب جماعة ذلك النَّضَد ، والمعنى واحد . والصوف الأذربى:

فهـــذا منســـوب إلى أذْربيجان . والسَّعْدانُ : نبت كثير الحسَك [1] تأكله الإبل فتســـمن عليه ، ويغذوها غذاء لا يوجد فى غيره . فمن أمثال العرب « مرعًى ولا كالسعدان » ، تفضيلا لـــه . وقوله : إنما هو والله الفجْر أو البجر [2] ، يقول : إن انـــتظرت حتى يضىء لك الفجر الطريق أبصرتَ قصدك : وإن خبطت الظلماء ، وركـــبت العَشـــواء ، هَجَما بك على المكروه . وضرب ذلك مثلا لغمرات الدنيا وتحييرهـــا أهلها . وقوله : يهيضك : مأخوذ من قولهم : هِيضَ العظم ، إذا جُبِر ثم أصـــابه شىء يُعْنته فآذاه فكسره ثانية أو لم يكسره ، وأكثر ما يستعمل فى كسره ثانية . وقوله : فكلكم ورم أنفه ، يقول : امتلأ من ذلك غضبا . وذكر أنفه دون الســـائر [3] ، كمـــا يقال : فلان شامخ بأنفه ، يريد رافع رأسه ، وهذا يكون من الغضب . وقوله : أراك بارئا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكون من بَـــرِئت من المرض وبَرَأت ، كلاهما يقال ، فمن قال بَرِئت قال أبرَأ لا غير ، ومن قـــال بَـــرَأت قال فى المضارع أبرَأ وأبرُؤ مثل فَرَغ يَفرَغ ويَفْرُغ ، والمصدر فيهما البُرْء.

وممـــا يؤثَر من هذه الآداب ويقدّم قول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فى أول خطـــبة خطبها . حَمَد الله وأثنى عليه ، وهو أهله ، وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قال :

« أيهـــا الـــناس ، إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه » . ثم نزل .

---

(١) الحسك : الشـــــوك .

(٢) البجر : الشـــر أو الأمر العظيم .

(٣) يريد : سائر بدنـــــه .

ومـــن ذلـــك رسالته فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى ، وهى التى جمع فيها جُمَل الأحكام واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناسُ بعده يتخذونها إماما ، ولا يجد مُحقّ عنها مَعْدلا ، ولا ظالم عن حدودها مَحيصا . وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك : أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسُنّة متبعة . فافهم إذا أُدْلِى إليك ، فإنه لا يـــنفع تَكلمٌ بحق لا نَفاذَ له . آسِ فى الناس بين وجهك وَعَدْلك ومجلسك ، حتى لا يطمـــع شـــريف فى حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عَدْلك . البيِّنة على من ادّعَى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحَل حراما أو حرّم حلالا . لا يَمْنعنَّك قضاءٌ قضيتَه اليومَ ، فراجعت فيه عقلك، وهُديت فيه لرشدك ، أن تـــرجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خيرٌ من التمادى فى الباطل . الفهـــمَ الفهـــمَ فـــيما تَلْجَلجَ فى صدرك ، مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشـــياء والأمـــثال ، فقِس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بـــالحق ، واجعـــل لمـــن ادعى حقا غائبا أو بَيّنة أمَدًا ينتهى إليه ، فإن أحضر بيِّنته أخـــذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أنْفَى للشك ، وأجْلى للعَمى . المســـلمون عُـــدُول بعضهم على بعض ، إلا مجلودا فى حَدّ ، أو مجرَّبا عليه شهادة زور، أو ظَنيـــنا فى وَلاء أو نســـب. فإن الله تَوَلّى منكم السَّرائر ، ودَرَأ بالبينات والأيمان ، وإياك والغَلَق، والضجَر ، والتأذىَ بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات. فـــإن الحق يعُظِم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر . فمن صحّت نيته ، وأقبل على نفســـه ، كفـــاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله . فما ظَنُّك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ؟ والسلام .

قوله : آس بين الناس فى وجهك وعدلك : يقول سَوِّ بينهم ، وتقديره : اجعل بعضـــهم أسوة بعض . وقوله : حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك ، يقول : فى ميلك معـــه لشرفه . وقوله : فيما تلجلج فى صدرك : يقول : تردد ، وأصل ذلك المُضْغة والأُكلة يرددها الرجل فى فيه ، فلا تزال تتردد إلى أن يسيغها أو يقذفها ، والكلمة يرددها الرجل إلى أن يصلها بأخرى ، يقال للعَيِى لَجْلاج . ومن أمثال العـــرب : « الحق أبْلَج والباطل لجْلَج » أى يتردد فيه صاحبه فلا يصيب مخرجا، وقولـــــه : أو ظنيـــنا فى ولاء أو نسب ، فهو المتهم ، وأصله مظنون ، وهى ظننت التى تتعدى إلى مفعـــول واحـــد ، تقـــول ظننت بزيـــــد وظننت زيـــــدا أى اتهمت . وفى بعض المصاحف : « وما هو على الغيب بظنين » . وإنما قال عمر رضى الله عنه ذلـــك لمـــا جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ملعون ملعون من انتمى إلى غير أبيـــه، أو ادّعى إلى غير مواليه » . فلما كانت معه الإقامة على هذا لم يره للشهادة موضـــعا . وقوله : ودرأ بالبينات والأيمان ، إنما هو دَفَع ، من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادرءوا الحدود بالشُبـــُهات » . وأما قوله : وإياك والغلق والضـــجر ، فإنه ضيق الصدر وقلة الصبر ، يقال فى سوء الخلق رجل غَلِق، وأصل ذلك من قولهم أُغْلِق عليه أمره ، إذا لم يتّضح ولم ينفتح . وقوله : ومن تخلّق للناس: يقـــول أظهـــر للناس فى خلقه خلاف نيته . وقوله تخلّق يريد أظهر خلقا مثل تجمّل يريد أظهر جمالا وتصنّع .

وكـــتب عُثمان بن عَفّان إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما حين أُحيط به : « أما بعد ، فإنه قد جاوز الماء الزُّبَى ، وبلغ الحزام الطُّبْيَين ، وتجاوز الأمر بى قدرَه ، وطمع فىّ من لا يدفع عن نفسه :

فإن كنتُ مأكولا فكن خيرَ آكلٍ وإلا فأدْرِكْنى ولما أُمزَّقِ » .

قولـــــه : قد جاوز الماء الزبى ، فالزبية : مصيدة الأسد ، ولا تُتّخذ إلا فى قُلّة أو رابية أو هضبة . وتقول العرب : قد علا الماء الزّبى ، وقد بلغ السِّكين العظم ، وبـــلغ الحزام الطبْيين ، وقد انقطع السَّلَى فى البطن . فالسَّلَى من المرأة والشاة : ما يلـــتف فيه الولد فى البطن . وبلغ الحزام الطُّبْيَين ، فإن السباع والخيل يقال لمواضع الأخـــلاف [1] منها أَطْباء ، واحدها طُبْى . فإذا بلغ الحزام الطبيين فقد انتهى فى المكروه . ومثل هذا من أمثالهم : التقت حَلْقتا البِطان والحَقَب .

وتحدّث ابن عائشة فى إسناد ذكره أن عليّـــا رضى الله عنه انتهى إليه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار فقتلوا عاملا له يقال له حسّان ، فخرج مغْضَبا يجرّ ثوبه حتى أتـــى النُّخَيـــلة ، واتبعه الناس . فرقِى رَباوة من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم قال :

« أمـــا بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله الـــذل وسيما الخَسْف ، وديِّث بالصَّغار . وقد دعَوْتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلا ونهـــارا ، وســـرًّا وإعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم من قبل أن يغزوكم . فو الذى نفسى بيده ما غُزِى قوم قَطُّ فى عُقْر دارهم إلا ذلوا . فتخاذلتم ، وتواكلتم ، وثَقُل عـــليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيّا ، حتى شُنّت عليكم الغارات . هذا أخو غامد ، قد وردت خيله الأنبار وقتلوا حسّان بن حسّان ورجالا منهم كثيرا ونساء. والذى نفسى بيده ، لقد بلغنى أنه كان يُدخَل على المرأة المسلمة والمعاهدة فتُنتزَع أحجالُهمـــا ورُعُثهما ، ثم انصرفوا موفورين : لم يُـــكلَم منهم أحد كلْما . فلو أن امـــرءا مسلما مات من دون هذا أسفا ما كان عندى فيه ملوما ، بل كان به عندى جديـــرا . يـــا عَجَـــبا كلَّ العَجَب ، عَجَبٌ يميت القلب ، ويَشْغَل الفهم ، ويكثر

[1] الأخلاف : جمع خلف ، وهو حلمة ضرع الناقة .

الأحـــزان ، مـــن تَضــافُر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفَشلكم عن حقكم ، حتى أصــبحتم غَرَضا ، تُرْمَوْن ولا تَرمُون ، ويُغار عليكم ولا تُغيرون، ويُعصَى الله عز وجـــل فيكـــم وتَرْضَوْن . إذا قلت لكم اغزُوهم فى الشتاء ، قلتم : هذا أوان قُرّ وصِـــرّ ، وإن قـــلت لكم : اغزوهم فى الصيف ، قلتم : هذه حمارَّة القيظ ، أَنْظِرْنا ينَصرم الحرُّ عنا . فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من الســـيف أَفَرُّ. يا أشباهَ الرجال ولا رجال ، وياطَغام الأحلام ، ويا عقول ربّات الحِجال ! والله لقد أفســـدتم عليَّ رأيى بالعصيان ، ولقد ملأتم جوفى غيظا ، حتى قالت قريش : ابنُ أبى طـــالب رجـــــل شجاع ، ولكن لا رأىَ له فى الحرب ، لله دَرّهم ! ومن ذا يكون أعلم بها منى ، أو أشدّ لها مِراسا ، فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نَيَّفتُ اليوم على الستين ، ولكن لا رأى لمن لا يطاع » . يقولها ثلاثا .

فقام إليه رجل ومعه أخوه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، أنا وأخى هذا كما قال الله تعالى : ﴿ رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى﴾ ، فمُرنا بأمرك ، فوالله لَنَنْتَهِيَنَّ إليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغَضَى ، وشَوْك القَتادِ » . فدعا لهما بخير، ثم قـــال لهما : « وأين تقعان مما أريد ؟ » . ثم نزل .

قوله : سيما الخسف، هكذا حدثونا، وأظنه سِيم الخسف يا هذا ، من قول الله عـــز وجـــل لهما : ﴿ يَسُومونكم سوء العذاب﴾ . ومعنى قوله : سيما الخسف ، تأويله علامة ، قال الله عز وجل : ﴿سيماهم فى وجوهم من أثر السجود﴾ . وقوله: وديث بالصغار ، تأويلة ذُلّل ، يقال للبعير إذا ذللته الرياضة بعير مُديَّث أى مذلّل . والعقـــر : الأصل ، ومن ثمّ قيل : لفلان عَقار ، أى أصل مال . وقوله : واتخذتموه وراءكـــم ظهريا ، أى رميتم به وراء ظهوركم ، أى لم تلتفتوا إليه . وقوله: فتنتزع أحجالهمـــا يعـــنى الخلاخيل ، واحدها حِجْل . وقوله : ورُعُثهما : الواحدة رَعْثة ،

وجمعها رِعاث ، وجمع الجمع رُعُث ، وهى الشُّنوف . وقوله : ثم انصرفوا موفورين: من الوَفْر أى لم يُنَل أحد منهم بأن يُرْزأ فى بدن ولا مال . وقوله : لم يكلم أحد منهم كلما : يُخدَش أحد منهم خدشا ، وكل جرح صغر أو كبر فهو كَلْم .

وقوله : وفشلكم عن حقكم ، يقال : فشل فلان عن كذا ، إذا هابه فنكَل عنه ، وامتنع من المضى فيه . وقوله قلتم : هذا أوان قرّ وصرّ . فالصر : شدة البرد ، قال الله عز وجل : ﴿كمثل ريح فيها صرّ﴾ . وقوله : وياطغام الأحلام ، فمجاز الطغام عند العرب من لا عقل له ولا معرفة عنده . وقوله : ويا عقول ربات الحجال ، ينسبهم إلى ضعف النساء ، وهو السائر فى كلام العرب .

أشعار مستحسنة

من كلام العرب الاختصار المفهم ، والإطناب المفخم . وقد يقع الإيماء إلى الشىء فيُغنى عند ذوى الألباب عن كشفه ، كما قيل : لمحة دالة . وقد يضطر الشاعر المُفْلِق ، والخطيب المِصْقَع ، والكاتب البليغ ، فيقع فى كلام أحدهم المعنى المُستغلِق ، واللفظ المُستكرَه ، فإن انعطفتْ عليه جَنبتَا الكلام ، غَطّتا على عَوارِه وسترتا من شَيْنه . وإن شاء قائل أن يقول : بل الكلام القبيح فى الكلام الحسن أظهر ، ومجاورته له أشهر ، كان ذلك له . ولكن يُغْتَفَر السيىء للحسن ، والبعيد للقريب. فمن ألفاظ العرب البينة القريبة المفهمة ، الحسنة الوصف ، الجميلة الرَّصْف قول الحُطَيئة :

وذاك فتى إنْ تَأْتِه فى صنيعة ... إلى ماله لا تأته بشفيعِ

وكذلك قول عنترة :

يُخبِرْك مَــنْ شَهِدَ الوَقيعةَ أنّنى   أغْشَــى الوَغَى وأعِفُّ عند المغنَم

وكما قال زُهَير :

على مُــكْثِريهم حَقٌّ من يَعْتَرِيهمُ   وعند المُقِلّين السّماحة والبَــذْلُ

ومما وقع كالإيماء قول الفرزدق :

ضَربتْ عليك العنكبوتُ بنَسْجِها   وقَضَى عليك به الكتــاب المُنْزَلُ

فتأويل هذا أن بيت جرير فى العرب كالبيت الواهى الضعيف . فقال : وقضى عليك به الكتاب المنزل ، يريد به قول الله تبارك وتعالى : ﴿وإنَ أوْهَنَ البيوت لبيتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمون﴾ .

ومن أقبح الضرورة ، وأهْجَن الألفاظ ، وأبعد المعانى قوله :

وما مِثْلهُ فى الناسِ إلا مُمَلّــكا   أبو أُمِّه حَيٌّ أبوه يقُــار بُــــهْ

مــدح بهذا الشعر إبراهيم بن هشام ، خال هشام بن عبد الملك ، فقال : وما مــثله فى الــناس إلا مملكــا — يعنى بالمُمَلَّك هشاما — أبو أم ذلك المُمَلك أبو هذا الممــدوح . ولو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحا ، وكان يكون إذا وضع الكلام فى موضعه أن يقول : وما مثله فى الناس حىّ يقاربه إلا مُملّك ، أبو أمّ هذا المملّك أبو هذا اللممدوح ، فدل على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد . وهَجَّنه بما أوقع فيــه من التقديم والتأخير ، حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع فى صدر رجل واحد مع قوله حيث يقول :

تَصرَّمَ منى وُدُّ بَكْرِ بن وائــــل   وما كاد منّى وُدُّهم يَتصــرَّمُ

قَوارصُ تأتينى ويحتقرونهــــا   وقد يَملأُ القَطْر الإناءَ فَيَفْعــمُ

فهـــذا أوضـــح معنى ، وأعْرَب لفظ ، وأقرب مأخذ . وليس لِقدَم العهـــــد يُفضَّـــل القائـــل ، ولا لحدْثان عهد يُهتضَم المُصيب ، ولكن يُعطَى كلٌّ ما يستحق. ألا ترى كيف يُفضَّل قول عمارة على قرب عهده :

تَبَحَّثْتُمُ سُخْطِى فغَيَّرَ بَحْثُكم ... نُخَيلةَ نَفْسٍ كان نُصْحًا ضَميرُها
ولن يُلْبِثَ التَّخْشينُ نَفْسا كَريمةً ... عَريكتُها أن يَسْتَمرَّ مريرُهـــــا
وما النفسُ إلا نُطْفَةٌ بقَـــرارةٍ ... إذا لم تكَدَّرْ كان صَفْوًا غديرُها

فهذا كلام واضح وقول عذب ، وكذلك قوله أيضـــا :

بنى دارمٍ إنْ يَفْنَ عمرى فقد مضى ... حيـــاتى لكم منى ثَناءٌ مُخَلَّدُ
بدأتم فأحسنتم فأثنيتُ جاهـــــدا ... وإن عُدْتمُ أثنيتُ والعَوْدُ أحْمَد

ومما يفضّل لتخلصه من التكلّف ، وسلامته من التزيّد ، وبُعده من الاستعانة ، قول أبى حَيّةَ النمَيرىّ :

رمتْنى وستْرُ الله بينى وبينهـــــــا ... عشيـــّةَ أرآم الكنـــاسِ رَميمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رمتْنى رميتُهـــــا ... ولكنَّ عَهْدى بالنّضال قـــــديم

يقول : رمتنى بطَرْفها وأصابتنى بمحاسنها ، ولو كنت شابا لرَمَيت كما رُميت وفَتَنت كما فُتِنت ، ولكن قد تطاوَل عهدى بالشباب . فهذا كلام واضح .

وأما ما ذكرناه من الاستعانة فهو أن يُدخل فى الكلام مالا حاجة بالمستمع إليه ليُصـــحّح بـــه نظما أو وزنا إن كان فى شعر ، أو ليتذكر به ما بعده ، إن كان فى كـــلام العامة ، مثل قولهم : ألستَ تسمع ؟ أفهمت ؟ أين أنت ؟ وما أشبه هذا .

وربما تشاغل العَيِيُّ بفتل إصبعه ، ومسِّ لحيته ، وغير ذلك من بدنه ؛ وربما تنحنح . وقد قال الشاعر يعيب بعض الخطباء في شعره :

مَلِيءٌ ببُهْرٍ والتفاتٍ وسُعْلَةٍ ومَسْحةِ عُثْنون وفَتْلِ الأصابع [1]

وقال رجل من الخوارج يصف خطيبا منهم بالجُبْن ، وأنه مجيد لولا أن الرعب أذهله :

نَحْنَحَ زيدٌ وسَعَلْ لما رأى وقْع الأَسَلْ [2]
وَيْلُمِّه إذا ارتحل ثم أطال واحتفلْ

ومما يُستحسن لفظه ، ويُستغرَب معناه ، ويُحمد اختصاره ، قول أعرابيّ من كلاب :

فمَنْ يَكُ لم يَغْرَضْ فإني وناقتي بحَجْرٍ إلى أهل الحِمَى غَرِضان [3]
تَحِنُّ فتُبدِي ما بها من صَبابة وأخفي الذي لولا الأُسَى لقضاني [4]

يريد لقضى عليّ . فأخرجه لفصاحته وعلمه بجوهر الكلام ، أحسن مُخْرج ، قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ، والمعنى إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ، ألا ترى أن أول الآية : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ فهؤلاء أخذوا منهم ، ثم أعطوهم . وقال الشاعر :

---

(1) البهر : انقطاع النفس من الإعياء . والعثنون : اللحية .
(2) الأسل : الرماح .
(3) يغرض : يشتاق .
(4) الأسى : جمع أسوة ، وهي القدوة ، يريد لولا اقتدائي بالناس لقضى علي .

أمرتُك الخيرَ فافعلْ ما أُمرتَ به　　　فقــد تركتك ذا مال وذا نَشَبِ

ومـــن سهل الشعر وحسنه قول طُخَيم بن أبي الطَّخْماءِ الأسَدى ، يمدح قوما من أهل الحيرة من بنى امرئ القيس بن زيد مناة ، قال :

كأنْ لَمْ يكن يومٌ بزَوْرَةَ صـــــالحٌ　　　وبالقَصْرِ ظِلٌّ دائمٌ وصـــــديقُ
ولم أرِدِ البطحاءَ يَمزُجُ ماءَهـــــا　　　شرابٌ من البُرُوقَتَيْنِ عتيــــق
معى كلُّ فَضْفاض القميص كأنّــه　　　إذا ما سَرَتْ فيه المدامُ فَنِيــــق
بنو السِّمط والحَدّاء كلُّ سَمَيْدَعٍ　　　له فى العُروق الصالحات عروق[1]
وإنّى وإن كانوا نصـــارى أُحِبُّهم　　　ويرتاح قلبى نحوهـــــم ويَتُوق

قولـــــه : معى كل فضفاض القميص : يريد أن قميصه ذو فضول ، وإنما يقصد إلى ما فيه من الخُيَلاء ، كما قال زهير :

يَجُرّون الذيول وقد تمشّت　　　حُمَيّا الكأس فيهم والغنـــاء

ويقـــال : إن تأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَضْل الإزار فى الـــنار » إنما أراد معنى الخيلاء. وأما الفَنيق فإنه الفحل ، وإنما أراد خَطَرانه بذنبه مـــن الخيـــلاء ، فشبّه الرجل من هؤلاء إذا انتشى بالفحل ، وهو إذا خطر ضرب بذنبه يمنة وشأمة .

ومـــا يستحسن إنشاده من الشعر لصحة معناه ، وجزالة لفظه ، وكثرة تردد ضَـــرْبه مـــن المعانى بين الناس ، قول ابن مَيّادة ، لرياح بن عثمان بن حيّان المُرّى

---

[1] السميدع : السيد الكريم الشريف الشجاع . وزورة والبروقتان : موضعان .

وكلاهمـــا مـــن مُرَّة غَطفَان ، يقوله فى فتنة محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن ، وكان أشار عليه بأن يعتزل القوم فلم يفعل ، فقُتِل ؛ فقال ابن ميّادة :

أمرتُك يارياحُ بأمــــــــــرِ حَزْمٍ ... فقلتَ : هَشيمةٌ من أهل نَجْــــدِ
نهيتُك عن رجالٍ من قريـــــــش ... على محبوكة الأصـــــلاب جُرْدِ
ووجْدا ما وَجَدْتُ على ريـــــاح ... وما أغنيتُ شيئا غير وجــــــدى

فقوله : فقلت هشيمة من أهل نجد : تأويله ضَعفَة ، وأصل الهشيم النبت إذا وَلَّـــى وجـــفَّ وتكسر ، فذَرَتْه الرياح يمينا وشمالا ، قال الله تعالى :﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَــذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ . والنجد : أعالى الأرض . وقوله : على محبوكة الأصلاب جرد ، فالمحبوك : الذى فيه طرائق ، واحدها حِباك ، والجماعة حُبُك ، يقال لطرائق الماء : حُبُك ، وكذلك الطرائق التى على جناح الطائر .

من أقوال الحكماء في المروءة

يـــروى عن ابن عُمر أنه كان يقول : « إنا معشر قريش كنا نَعُدّ الجود والحِلْم التودّد، ونعُدُّ العفاف وإصلاح المال المروءة » .

وقال الأحنف بن قيس : « كثرة الضحك تُذهِب الهيبة . وكثرة المَزْح تُذهب المروءة . ومن لزم شيئا عُرِف به » .

وقيـــل لعـــبد المـــلك بن مروان : « مالمروءة ؟ » فقال : « مُوالاة الأكفاء ومداجاة الأعداء » .

وتـــأويل المُداجاة المُداراة ، أى لا تُظهر لهم ما عندك من العداوة ، وأصله من الدُّجَى ، وهو ما ألبسك الليل من ظلمته .

وقيل لمعاوية : « ما المروءة ؟ » فقال : « احتمال الجريرة ، وإصلاح أمر العشيرة » . فقيل له : « وما النُّبْل ؟ » . فقال : « الحلم عند الغضب ، والعفو عند المقدرة » .

نفاق

ويُروى أن معاوية بن أبى سفيان لما نصّب يزيدَ لولاية العهد ، أقعده فى قبة حمراء فجعل الناس يسلّمون على معاوية ، ثم يميلون إلى يزيد ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع على معاوية ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، اعْلم أنك لو لم تُولِّ هذا أمور المسلمين لأضعتَها » ؛ والأحنف جالس . فقال له معاوية : « ما بالك لا تقول يا أبا بَحْر ». فقال : « أخاف الله إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت » . فقال : « جزاك الله عن الطاعة خيرا » . وأمر له بألوف . فلما خرج الأحنف لقيه الرجل بالباب ، فقال : « يا أبا بحر إنى لأعلم أن شرَّ مَنْ خلق الله هذا وابنهُ ، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع فى استخراجها إلا بما سمعت » . فقال له الأحنف : « يا هذا أمسك ، فإن ذا الوجهين خليقٌ ألا يكون عند الله وجيها » .

هجاء وفخر

وقال رجل يهجو بلال بن البعير المُحاربِىّ :

يقولون أبناءُ البعير وماله ... سَنام ولا فى ذِروة المجد غارِبُ
أرادت ، وذاكم من سفاهة رأيها ، ... لأَهْجُوَها لمّا هَجَتْنى مُحارب
مَعاذَ إلهى إننى بعشيرتى ... ونفسى عن ذاك المَقام لَراغب

وقال أبو الطَّمَحان القَينى :

وإنى من القوم الذيـــــن همُ همُ إذا مات منهم سيدٌ قـــام صاحبُهْ
نجوم سماء كلّما غــــار كوكبٌ بدا كوكب تأوى إليه كواكبـــه
أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم دُجَى الليلِ حتى نظَّم الجزْعَ ثاقبُه
وما زال منهم حيث كانوا مُسوَّدٌ تسير المنايا حيث سارت كتائبُـــه

وقال القتَّال الكلابى ، واسمه عُبَيد بن المَضْرَحِىّ :

أنا ابنُ أسماءَ أعمامى لهـــا وأبى إذا ترامَى بنو الإمْوانِ بالعـــار
لا أرضعُ الدهرَ إلا ثَدْىَ واضحة لواضحِ الخدِّ يحمى حَوْزةَ الجار
من آلِ سُفيانَ أو وَرْقاء يمنعهـــا تحت العَجاجة ضربٌ غيرُ عُوّار
ياليتنى والُمنَى ليست بنافعـــــة لمـــالك أو لحصنٍ أو لسَيَـــار
طوال أنضيةِ الأعنـــاق لم يجدوا ريحَ الإماءِ إذا راحتْ بأزفـــار

قوله : إذا ترامى بنو الإموان بالعار ، فالإموان جمع أَمَة . وقوله : لا أرضع الدهرَ، فهذا على لغته ، لأن قيسا تقول رَضِع يَرضَع ، وأهل الحجاز يقولون رَضَع يرضِـــيع ، وقولـــه : لا أرضَع الدهر إلا ثدى واضحة : يقول : إنما ترضعنى أمى، وليست غير كريمة ، كما قال الأعْشَى :

يا خَيْرَ من يركـــــب المَطِىّ ولا يشربُ كأسًا بكفِّ مَنْ بَخِـــلا

يقول : إنما تشرب بكفك ولست ببخيل . وقوله : واضحة ، أى خالصة فى نسبها وليست بأمة ، وهذا توكيد لبيته الأول . وقد أنشد بعضهم : لواضح الجَدّ ، والمعـــنى قـــريب . وقوله : يحمى حوزة الجار ، أى ما يَحُوزه ، يقال : فلان مانع لحوزتـــه ، أى لما صار فى حَيِّزه . وقوله : لمالك أو لحصن أو لسيار ، فهؤلاء بيت

فزارة . وقوله : طوال أنضية الأعناق ، فالنَّضِىّ مُركب النصل فى السنْخ ، وضربه مـثلا ، وإنما أراد طوال الأعناق . وقوله بأزفار : فالزِّفر : الحِمْل ، ويضرب مثلا للرجل فيقال : إنه لَزُفَر ، أى حمال للأثقال ، ويقال : أتى حِمْله فازْدَفَره [1] .

وقال رجل من بنى عَبْس :

لا تَشْتُمَنِّى يا ابْنَ وَرْدٍ فإنـنى	تَعُود على مالى الحقوقُ العَوائـدُ
ومن يؤثر الحقّ النَّؤوبَ تكـن به	خَصاصة جسمٍ وهو طَيَّانُ ماجد[2]
وإنى امرؤ عافِى إنائىَ شِرْكـةٌ	وأنت امرؤ عافى إنائك واحـد [3]
أقَسِّـم جسمى فى جسـوم كثيرة	وأحْسُـو قَراحَ الماء والماءُ بـارد

قوله : النؤوب : يريد الذى ينوبه . وقال رجل من بنى تميم :

ألبان إبْلِ تَعِلَّةَ بنِ مسـافر	ما دام يملكها علىَّ حَـرامُ
وطعامُ عمرانَ بنِ أوْفَى مثلهـا	مادام يسلك فى البطون طعـامُ
إن الذين يَسُوغ فى أعناقهـم	زادٌ يُمَنُّ عليهمُ لَلِئـامُ
لَعَن الإلهُ تعِلَّة بن مسـافـر	لعنًا يُشن عليه من قـدَّامُ

وهذا كلام فصيح جـدا . قوله : يسوغ من أعناقهم ، يريد حلوقهم ، لأن العنق يحيط بالحق .

---

(1) يقال ازدفر الحمل أى احتمله .

(2) خصاصة جسم : نحول . وطيـان : لم يأكل شيئا .

(3) عافى : كل طالب فضل أو رزق ، يريد أن إنائى يأكل منه كثيرون ، أما إناؤك فلا يأكل منه إلا أنت .

وقال القطَامىّ :

فمنْ تكن الحضارةُ أعجبتْــه ... فأىّ رجالِ باديــة ترانــا
ومنْ رَبَط الجحاشَ فإنّ فينــا ... قنــا سُلُـبًا وأفراسًـا حسانــا
وكنَّ إذا أغَرْن على قبيــلٍ ... فأعْوزَهنّ كونٌ حيث كانــا
أغَرْنَ من الضِّباب على حِــلال ... وضَبّة إنه من حان حــانــا
وأحيانا على بكر أخينــا ... إذا مالم نجِدْ إلا أخــانــا

قوله : الحضارة ، يريد الأمصار ، وتقول العرب : فلان بادٍ ، وفلان حاضر ، وفى الحديــث « ولا يبيعن حاضر لباد » ، وتأويل ذلك أن البادىَ يَقدَم وقد عرف أســعار ما معه ، وما مقدار ربحه ، فإذا جاء الحاضر عَرَّفه سنة البلد ، فأغلى على الناس . ويقال : حى حِلال ، إذا كانوا متجاورين مقيمين .

أقوال سائرة

يــروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ » قــالوا : « بــلى » قــال : « من أكل وحده ، ومنع رِفْده ، وضرب عبدَه . ألا أخبركم بشر من ذلكم : من لأيقِيل عَثْرة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنبــا . ألا أخبركم بشر من ذلكم : من يبغض الناس ويبغضونه » .

ويــروى عــنه صــلى الله عليه وسلم أنه قال : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، والمرء كثير بأخيه » .

قوله صلى الله عليه وسلم : تتكافأ دماؤهم ، من قولك : فلان كُفْء لفلان ، أى عديلـــه ، وموضـــوع بحذائه . وقال الله عز وجل : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ . ويقال : فلان كِفاء فلان ، وكَفِيء فلان ، وكُفْء فلان .

وقـــال على بن أبي طالب رضى الله عنه : « من لانت كلمته وجبت محبته » . وقال : « قيمة كل امرئ ما يحسن » .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ثلاث يثبتن لك الودّ فى صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام ، وتوسّع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب الأسماء إليه » .

وقـــال : « كفـــى بالمرء غَيًّا أن تكون فيه خَلة من ثلاث : أن يعيب شيئـــا ثم يأتى مثله ، أو يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه ، أو يؤذى جليسه فيما لا يعنيه » .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يومـــا: « مَنْ أجود العرب ؟ » فقيـــل له : « حـــاتم » : قال : « فمن شاعرها ؟ » قيل « امرؤ القيس بن حجر » قال : « فمن فارسها ؟ » قيل : « عمرو بن مَعْدِى كَرِب » قال : « فأىّ سيوفها أَمْضَى ؟ » قيل : « الصَّمْصامة » .

وكـــان معاويـــة يقول : « إنى لا أحمل السيف على من لا سيف معه ، وإن لم تكن إلا كلمة يشتفى بها مشتفٍ جعلتُها تحت قدمى ، ودُبُرَ أذنى » .

رثاء

قال رجل أحسبه من بنى سعد يرثى رجلا :

ومُحتضَر المَنـــافع أريَحـــيّ	نبيلٍ فى معّاوزة طـــــوالِ
عـــزيـــزٍ عزّة فى غير فحشٍ	ذليل للذليل مـــــن الموالى
جعلتُ وساده إحدى يديـــه	وتحتَ جَمائه خَشَباتُ ضـــال
ورثتُ سلاحَـــه وورثتُ ذَودا	وحزنـا دائمـا أخرى الليـالى

قوله : أريحى ، هو الذى يرتاح للمعروف أى يخف له ، ويقال : أخذت فلانا أريحيـة ، أى خفّـة وحركة لفعل المعروف . والمعاوز : الثياب التى يتبذّل [١] فيها الـرجل ، وهى دون الثياب التى يتجمل بها ، واحدها مِعْوَز . وقوله : فى معاوزة ، فزاد الهاء ، فإنما يُفعَل ذلك لتحقيق التأنيث ، لأن كل جمع مؤنث ، كما تقول فى جمع صَيقْل : صَياقِل وصَياقلَة ، وكذلك جوارب وجَواربة ، إلا أن أكثر الأعجمى يختص بالهاء ، وهو فى العربى جيّد ، وفى العجمى أكثر استعمالا . فإن كان منسوبا كـان البـاب فيه إثبات الهاء ، وتركها جائز نحو المهالبَة ، والمَسامعة ، والمَناذرَة ، والأحامـرَة . وقالوا : السَّيابجة [٢] لأنه قد اجتمع فيه النسب والعجمة . وقوله : تحـت جمائه . يعنى شخصه . والضال : السِّدْر الـبَرّى ، وما كان من السدر على الأنهار فليس بضال، ولكن يقال له عُبْرىّ . وقوله : ورثت سلاحه وورثت ذودا ، يصـف قـرب نسبه منه . والذود : القطعة من الإبل ، وأكثر ما يستعمل ذلك فى

(١) يتبذل : يترك الاحتشام والتصون .

(٢) السيابجة : قوم أقوياء من السند والهند ، يكونون مع رئيس السفينة البحرية يخدمونها .

الإنـــاث ، ويجوز فى السائر . ومنه قولهم : الذود إلى الذود إبل . ثم قال : حزنــا دائمـــا أخرى الليالى ، كما قال الأوَّل ، وغُبط بميراث ورثه من أحد أهله :

يقول جَزْءٌ و لم يقـــل جَـلَلا إنِّى تروَّحتُ ناعمـــا جَـــذِلا
إنْ كنتَ أزْنَنْتَنى بهـــا كذبـــا جزءٌ فلا قَيْتَ مثلهـــا عَجلا
أُغبَط أن أُرْزَأَ الكـــــرامَ وأنْ أُورث ذَوْدا شصائصا نَبَـــلا

قوله : ولم يقل جَلَلا : أى صغيرا ، والجلل يكون للصغير ويكون للكبير ، من ذلك قوله : « كلّ شىء ما خلا الله جلل » أى صغير . وقال لبيد فى الكبير :

وأرى أرْبَـــدَ قـــد فارقنى ومن الأرْزاءِ رُزْءٌ ذو جَـــلَلْ

وقوله : شصائصا : يعنى حقيرة دميمة . وزعم التّوَّزى أن النَّبَل من الأضداد ، يكــون للجــليل والحقــير ، واحتجّ بهذا البيت الذى ذكرناه ؛ قال : يريد ههنا الحقـــيرة. وقولـــه : أزننتنى ، أى قَرَفْتَنى ونسبتنى إليه . ويقال : فلان يُزَن بكذا وكذا أى يسمى به ، وينسب إليه .

وقال جميل بن مَعْمَر :

ما صائبٌ من نابل قَذفتْ بـــــه يَدٌ ومُمَرُّ العُقْدتَين وَثيــــــقُ
له من خَوا فى النَّسْر حُمٌّ نَظائـــرٌ وَنَصْلٌ كنصلِ الزَّاعبىِّ فتيـــقُ
على نَبْعة زَوْراءَ أيْما خطامُهـــــا فمتْنٌ وأيمـــا عَوْدُهَا فعتيـــقُ
بأوْشَكَ قَتْلا منك يـــوم رميتنى نوافذَ لم تُعَلَمْ لهنَّ خُــــروقُ
كأنْ لم نحارب يا بُثينَ لو أنَّهـــا تَكشَّفُ غُماها وأنت صديـــقُ

قوله : ما صائب ، يريد قاصدا ، يقال : صاب يَصُوب ، إذا قصد ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ ﴾، وقد قالوا النازل ، والقَصْد أحكم . وقوله : ومُمر العقدتين ، يعنى وَتَرا . والممرُّ : الشديد الفَتْل . وقوله : من خوافى النسر حمّ نظائر ، يريد ريش السهم ، والحُمُّ : السُّود ، وذلك أخلصه وأجوده ، وجعلها نظائر فى مقاديرها ، لأنه أَقْصَدُ للسهم ، وإذا كانت الريشات بطن الواحدة منها إلى ظهر الأخرى ، فهو الذى يُختار ، وهو الذى يقال له اللُّؤام ، وإنما أُخذ من قولهم مُلْتَئم ؛ وإن كان ظهر الواحدة إلى ظهر الأخرى ، وبطنها إلى بطن الأخرى ، فذلك مكروه يقال له : اللغاب . وقوله : كنصل الزاعبى ، شبّهَ نصل السهم بنصل الرمح الزاعبىّ ، وهو منسوب إلى رجل من الخَزْرَج ، يقال له: زاعب ، كان يعمل الأسنّة ، هذا قول قوم ؛ وأما الأصْمَعِىُّ فكان يقول : الزاعبى هو الذى إذا هُزَّ فكأن كعوبه يجرى بعضها فى بعض للينه وتثنّيه ، يقال مرَّ يَزْعَب بحمْله ، إذا مرّ به مرا سهلا . وقوله : فتيق ، يعنى حادّا رقيقا ، يقال فتيق الشَّفْرَتَيْنِ ، وتأويله أنه يفتُق ما عُمد به له . وفعيل يقع اسما للفاعل ويقع للمفعول، فأما الفاعل فمثل رحيم وحكيم وشهيد ، وأما ما كان للمفعول فنحو جريح وقتيل وصريع . وقوله : زَوراء ، يريد معوجَّة ، وكلما كانت القوس أشدّ انعطافا كان سهمها أمضى . وقوله : على نبعة ، يعنى قوسا ، وأكرم القِسِىّ ما كان من النبع . وقوله : أيما ، يريد أمّا ، واستثقل التضعيف فأبدل الياء من إحدى الميمين . وهذا يقع ، وإنما بابه أن تكون قبل المضاعف كسرة ، فيما يكون على فِعّال فيكرهون التضعيف والكسر، فيبدلون من المضعّف الأول الياء للكسرة، وذلك قولهم : دينار وقيراط وديوان ، وما أشبه ذلك . فإن زالت الكسرة ، وانفصل أحد الحرفين من الآخر رجع التضعيف فقلت : دنانير وقراريط ودواوين . وكذلك إن صغرت قلت : قُرَيرِيط ودُنَيْنير. وقوله : وأيما عودها فعتيق ، يصف

كــرم هذا القوس وعِتقها ، ويحمدُ منها أن تُترَك ولحاؤها عليها بعد القطع . فهذا مأخوذ من ذلك . وقوله : بأوشك قتلا منك ، يقول : بأسرع .

حسن الأدب

قال بعض الحكماء : « من أدب ولده صغيرا سُرَّ به كبيرا » .
وكان يقال : « من أدّب ولده أرْغَم حاســده » .

وقال رجل لعبد الملك بن مروان : « إني أريد أن أسرّ إليك شيئــا » . فقــال عــبد الملك لأصحابه : « إذا شئتم » فنهضوا . فأراد الرجل الكلام ، فقال لــــه عبد الملك: « قفْ ، لا تمدحني فأنا أعلم بنفسي، ولا تَكْذبني فإنه لا رأى لمكذوب، ولا تَغْــتَب عــندي أحــدا » فقــال الرجل : « يا أمير المؤمنين ، أفتــأذن لي في الانصراف ؟ » . قال له : « إذا شئت » .

وقال بعض الحكماء : « ثلاث لا غُرْبَة معهن : مجانبة الرِّيب ، وحسن الأدب، وكف الأذى » .

وقال عمرو بن العاص لدِهْقان مَرتيرَى : « بم يَنْبُل الرجل عندكم ؟ » فقال : « بترك الكذب ، فإنه لا يَشْرُف إلا من يوثق بقوله ؛ وبقيامه بأمر أهله ، فإنــــه لا ينــبل مـــن يحــتاج أهله إلى غيره ؛ وبمجانبة الرِّيَب ، فإنه من رُجِيَ الفرج لديه كثرت غاشيته » [1] .

---

[1] غاشيته : من يأتونه ويغشون بيته .

وقــال بُــزرْ جِمَهْر : « من كَثُر أدبه كَثُر شرفه وإن كان قبلُ وضيعا ، وبَعُد صـــيتُه وإن كـــــان خاملا ، وساد وإن كان غريبـــا ، وكثرت الحاجة إليه ، وإن كان مُقْتِرا » .

وكان يقال : « عليكم بالأدب فإنه صاحب فى السفر ، ومؤنس فى الوحدة ، وجمال المَحْفِل ، وسبب على طلب الحاجة » .

وقال بعض الملوك لبعض وزرائه ، وأراد محِنْته : « ما خير ما يُرزَقهُ العبد ؟ » فقـــال : « عقل يعيش به » . قال : « فإن عَدِمَه ؟ » قال : « فأدب يتحلى به » . قـــال : « فإن عدمه ؟ » قال : « فمال يستره » . قـــال : « فإن عدمه ؟ » قال : « فصاعقة تحرقه ، فتريح منه العباد والبلاد » .

وقيل لرجل من ملوك العجم : « متى يكون العلم شرا من عدمه ؟ » قـــال : « إذا كثر الأدب ، ونقصت القريحة ».

وقـــالى أَرْدَشِـــير : « من لم يكن عقله أغلب خلال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خلال الخير عليه » .

وقـــال محمد بن عبد الله بن العباس ، وذكر رجلا من أهله : « إنى لأكره أن يكون لعلمه فَضْل على عقله ، كما أكره أن يكون للسانه فضل على علمه » .

حماية الجار

قال رجل من بنى عبد الله بن غطفان ، وجاوَرَ فى طَيِّئ وهو خائف :

جَزَى الله خيرا طيئــا منْ عشيرةٍ ... ومن صاحب تَلقَاهُمُ كلَّ مَجْمَع
همُ خَلَطُونى بالنفوسِ ودافَعــوا ... ورائى برُكْنٍ ذى مَناكبَ مدْفع
وقالو تعـــلّم أنّ مالك إنْ يُصَبْ ... نُفَــدْكَ وإنْ تُحْبَس نَزُرْكَ ونَشْفع

وقال رجل من بنى سَلامان بن سعد هُذَيْم ، من قُضاعة ، وجاور فى طيئْ :

كأنّ الجارَ فى شَمَجَى بـــن جَرْمٍ ... لــه نعْمـــاءُ نَسَب قَريبُ
يُحاط ذمارُهُ ويُذبُّ عنــــــــه ... وَيَحْمِى سَرْحَــه أنفٌ غضوب
ألفتُ مساكن الجَبَلَين إنـــــى ... رأيتُ الغَــوثَ يألفُها الغريب

وكـــان قوم نزلوا ببنى العنبر بن عمرو بن تميم ، والقوم من بنى ضَبَّة ، فأُغير عـــليهم . فاستغاثوا جيرانهم ، فلم يُغيثوهم ، وجعلوا يدافعونهم حتى خافوا فوْتَهَا . فاســـتغاثوا ببنى مازن بن مالك ، فركبوا فردوها عليهم . فقال المُكَعْبَر الضَّبِّى فى ذلك:

أبْلغ طَرِيفــا حيث شطَّت بها النَّوَى ... فليس لدهرِ الطَّالبين فَنــــــاءُ
كسالى إذا لاقيتَهم غيـــَر مَنطقٍ ... يُلَهَّى به المَحْــروبُ وهو عَنـــاءُ
وإنى لأرجوكم على بُــطْءِ سَعْيِكم ... كما فى بطون الحاملات رجــــاءُ
أُخبِّر من لاقيتُ أنْ قـــد وفيتمُ ... ولو شئتُ قال المخبرون أســـائوا
كأن دنانـــيرا على قَســــماتهم ... وإن كان قد شَفَّ الوجــوهَ لقاء
لهم أذرعٌ بادٍ نَواشرُ لَحْمهـــــا ... وبعضُ الرجال فى الحروب غُثاء

قولـــه : حيث شطت بها النوى ، معنى شطت تباعدت ، والنـــوى : البعد ، ويقال: شَطت بهم نيّةٌ قَذَف ، أى رحلة بعيدة . وقوله : فليس لدهر الطالبين فناء ، يقول: الطالب فى أثر طَلِبته أبدا . وقوله :

وإنى لأرجوكم على بطء سعيكم　　　كما فى بطون الحاملات رجـــاء

يقول : هذا رجاء غير صادق ولا موقوف عليه ، كما أن هذه الحوامل لا يُعلَم مـــا فى بطونها وليس بميئوس منه ، وإنما يتهكم بهم وهو يعلم أن سعيهم غير كائن، ألا تراه يقول :

أخبر من لاقيت أن قـــــد وفيتم　　　ولو شئت قال المخبرون أسائوا

وقولـــه : كأن دنانيرا على قسماتهم ، زعم أبو عبيدة أن القسمات مجارى الدمـــوع ، واحدهـــا قَسِمة . وقال الأصمعى : القسمات أعالى الوجه . ولم يبينه بأكـــثر من هذا ، وقول أبى عبيدة مشروح . وقوله : لهم أذرع باد نواشر لحمها ، فكل شىء كان على فِعَال من المؤنث فجمعه أَفْعُل ، وكذلك فُعَال ، تقول : ذِراع وأَذْرُع ، وكُـــرُاع وأكْرُع ، لأنهما مؤنثتان . ومن أنث اللسان قال : أَلْسُن ، . وشمـــال وأَشْمُل . فأما المذكر فعلى أَفْعلة فى أدنى العدد ، وفُعُل فى الكثير ، يقال : حِمـــار وأَحْمِرة وحُمُر ، وفِراش وأَفْرِشة وفُرُش . والنواشر : مايظهر من العروق فى ظهـــر الـــذراع ممـــا يُدانى المعصم . وقوله : وبعض الرجال فى الحروب غثاء ، فالغـــثاء: ما يبس من البقل حتى يصير حطامـــا وينتهى فى اليبس فيسودّ فيقال له : غُثاء ، وهَشِيم ، ودِنْدن ، وثِن ، على قدر اختلاف أجناسه ، قال الله عز وجـــل :

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ ، وقال : ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ وقال الشاعر يصف سحابا :

إذا ما هَبطنَ الأرض قد مات عُودُها بَكَيْنَ بها حتى يعيش هَشِيم

وقد يقال للشيء الذى لا خير فيه : هذا غثاء ، أى قد صار كذلك الذى وصفناه . ويُضرب هذا مثلا للكلام الذى لا وجه له .

وقال رجل أحسبه تميميا [1] :

لو لم يفارقنى عَطيةُ لم أهِنْ ولم أُعط أعدائى الذى كنت أمنعُ

شجاع إذا لاقَى ، ورامٍ إذا رمى وهادٍ إذا ما أظلم الليلُ مِصْدَع

سأبكيك حتى تُنفِدَ العينُ ماءَها وَيشْفِيَ منى الدمعُ ما أتوجع

أحسن الإنشادين عندى : لم أهِن ، يأخذه من وَهَن يَهِن ، لأنه إذا قال : أهُن، فهو من الهوان ، ومن قال : لم أهِن ، فإنما هو من الضعف ، وهو أشبه بقوله : ولم أعط أعدائى الذى كنت أمنع . والآخر غير بعيد ، يقول : لم أهن على أعدائى . وقوله : وهاد إذا ما أظلم الليل مصدع، فتأويل مصدع أى ماض فى الأمر، قال الله عز وجل : ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ . ويقال : أحزم الناس من إذا وضح له الأمر صدع به . ومن أمثال العرب السائرة الجيدة . « رَوِّ تَحْزَمْ ، فإذا استوضحت فاعْزِمْ » . ومن أمثالهم : « قد أحزم لو أعزم » . وإنما يكون هذا بعد التوقف والتبين . فقد قال الشعبىّ : « أصاب متأمل أو كاد ، وأخطأ مستعجل أو كاد » ومثل قوله : « ويشفى منى الدمع ما أتوجع » قول الفَرَزْدَق :

أَلَمْ تَرَأنّى يومَ جَوِّ سُوَيْقَة بكيتُ فنادتْنى هُنَيدةُ ماليا

فقلتُ لها إن البكاء لراحةٌ به يشتفى مَنْ ظَنَّ أنْ لا تلاقيا

---

[1] هو الفرذدق .

الرجل القبيح الشجاع

قـــال نَضْلَة السـُّلَمِىّ فى يوم غَوْل ، وكان حقيرا دميما ، وكان ذا نَجْدة وبأس :

أَلَمْ تَسَلِ الفَوارسُ يـــــومَ غَوْلٍ	بنَضْلَةَ وهو موتورٌ مُشِيـــحُ
رأوه فازْدَرَوْه وهـــــــو حُرٌّ	وينفع أهلَه الرَّجلُ القبيـــــح
فشدّ عليهمُ بالسيف صَلْتـــا	كما عَضَّ الشَّبا الفرسُ الجَموح
فأطلقَ غُلَّ صاحبـــه وأرْدَى	قتيلا منهمُ ونجـــا جريح
ولم يَخْشَوا مَصالَتَهُ عليهـــم	وتحتَ الرَّغْوَةِ اللبنُ الصريـــح

قوله : وهو موتور مُشِيح ، فالُمشيح : الحامل الجادّ . وقوله : بالسيف صلتا ، يقول : مُنتضًى ، ورجل صَلْت الجبين : إذا كان نقيّـه . وقوله : كما عض الشَّبا، يريد حدّ اللجام ، وشبا كل شىء : حدّه . وقوله : ولم يخشَوا مَصالته عليهم ، فهى مَفْعَلة من صال يصول ، ويقال : صال البعـير ، إذا عضّ . وقوله : وتحت الرّغوة اللبن الصريح ، يقول : إذا رأيت الرغوة : وهو مايرغو كالجلدة فى أعلى اللبن ، لم تَـدْر ما تحتها ، فربما صادفت اللبن الصريح إذا كشفتها ؛ أى أنهم رأونى فازدرونى لدمامتى ، فلما كشفوا عنى ، وجدوا غير مارأوا . والصّريح : المحض الخالص.

القول والفعل

حُدِّثت أن صَبِرة بن شَيْمان الحُدّانيّ دخل على معاوية ، والوفود عنده فتكلموا فأكثروا . فقام صبرة فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنـّا حَيُّ فِعال ، ولسنا بحيّ مقال. ونحن بأدنى فعالنا عند أحسن مقالهم » . فقال : « صدقت » .

وحدِّثت أن أبا بكر رضى الله عنه ولّى يزيد بن أبى سفيان رُبْعـا من أرباع الشـام ، فَـرقِى المنبر فتكلم ، فأُرْتِج عليه . فاستأنف فأرتج عليه . فقطع الخطبة فقال: « سيجعل الله بعد عسر يسرا ، وبعد عِيٍّ بيانـا . وأنتم إلى أمير فَعّال أحوج مـنكم إلى أمير قوّال » . فبلغ كلامه عمرو بن العاص ، فقال « هن مُخرِجاتى من الشام » ، استحسانـا لكلامه .

كلمات واعظة

وقال عثمان بن عفان رضى اله عنه لعامر بن عبد قيس العَنْبرى ، ورآه ظاهرَ الأعرابيّة : « يا أعرابى ، أين ربك ؟ » فقال : « بالمرصـاد » .

ونظـر الحسـن إلى الناس فى مصلّى البصرة يضحكون ويلعبون فى يوم عيد ، فقـال : « إن الله جعل الصّوم مِضْمارا لعباده ، ليستبقوا إلى طاعته ، فسبق أقوام ففـازوا ، وتخـلف آخـرون فخابوا . ولَعَمْرى لو كُشف الغطاء ، لشُغِل محسن بإحسانه ، ومسيء بإساءته ، عن تجديد ثوب ، أو تَرْطيل شعر » .

قولــه :ترطيل شعر : إنما هو تليين الشعر بالدهن وما أشبهه ، ويقال للرجل إذا كـــان فيه لين وتوضيع : رجل رَطْل ، والذى يوزن به ويكال يقال له : رِطْل ؛ بكسر الراء .

وكان الحسن يقول : « اجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها ولاتعمرها » .

توبة وخلق

قال يزيد بن الصَّقِل العُقَيلىّ ، وكان يسرق الإبل ، ثم تاب وقُتل فى سبيل الله.

ألا قُلْ لأربابِ المَخائِضِ أَهْمِلُوا	فقد تاب مما تعلمون يزيدُ
وإنّ امرا ينجو من النار بعد ما	تزَوّد من أعمالهــا لَسَعيــد

وفى هذا الشعر :

إذا ما المنايا أخطأتك وصادفت	حَميمَك فاعلم أنهــا ستعود

قولـــــه : ألا قل لأرباب المخائض ، فإن الناقة إذا لَقِحت قيل لها : خَلِفة ، ولـــلجميع : المَخَاض ، وهذا جمع على غير واحده ، إنما هو بمنزلة امرأة ونساء ، ثم جَمَــع الجمــع فقال : مخائض ، كقولك فى رسالة : رسائل ، وكما تقول فى قوم : أقــوام ، فــتجمع الاســم الذى هو للجمع ، وكذلك أعراب وأعاريب ، وأنعام وأناعيم . وقوله : أهملوا ، أى اسْرَحُوا إبلَــكم ، والهَمَــل : ماكان غير محظور ، وهو السُّدى .

وقال ابن حَبْناء التَّميمى :

أعوذ بالله من حـــــال تُزَيِّنُ لى لومَ العشيرةِ أو تُدْنِى من النـــار
لا أقرَبُ البيت أَحْبُو من مؤخَّرِه ولا أكسِّر فى ابن العمّ أظفـــارى
إنْ يحجُبِ الله أبصارا أراقبُهــا فقد يرى الله حالَ المُدْلجِ السّارى

قولـــه : لا أقرب البيت أحبو من مؤخره ، يقول : لا آتيه لريبة . وقوله : ولا أكسر فى ابن العم أظفارى ، يقول : لا أغتابه ، وهذا مَثَل كما قال الحطيئة :

مَلُّوا قِـــراه وهَرَّتْه كلابُهمُ وجَرّحـــوه بأنياب وأضـــراسِ

وقولــــه : فقد يرى الله حال المدلج السارى ، فالمدلج : الذى يسير من أول الليل، يقال : أدلجت ، أى سرت من أول الليل ، وادّلجت ، أى سرت فى السَّحَر. والسُّـــرَى : لا يكـــون إلا ســـيرَ الليل ، قال الله عز وجل : « فأَسْر بأهلك » من قولـــك: أسريتُ ، وهى اللغة القرشية ، وغيرهم من العرب يقول : سَرَيْت ، وقد جـــاءت هـــذه اللغة فى القرآن ، قال الله عز وجل : « والليل إذا يَسْرِ » فهذا من سَرَى ، ولو كان من أسْرى لكان يُسْرِى .

وقال رجل يكنى أبا مَخْزوم من نَهْشَل بن دارِم [1] :

إنّا بنى نهشــــــل لا نَدَّعى لأَبٍ عنه ولا هو بالأبنـــاء يَشْرِينـــا
إنْ تُبْتَدَرْ غايةٌ يومـــا لمـــكرمة تَلْقَ السوابقَ منّـــا والمُصَـــلّينـــا
وليس يهلك منّا سيدٌ أبـــــدًا إلا افْتَلَيْنا غلامـــا سيدا فينـــــا
إنى لَمِنْ معشـــــر أفنى أوائلَهم قيلُ الكُماة : أَلَا أين المحامونـــا
لوكان فى الألف منا واحد فدَعَوا مَنْ فارسٌ ، خالَهُم إياه يَعْنُونـــا

[1] هو بشامة بن حزن النهشلى .

ولا تراهـــم وإن جَلّتْ رَزِيَّتهم مع البُـكاةِ على من مات يبكونا
إنا لنُرْخِصُ يومَ الرَّوْع أنفسَنـــا ولو نُسامُ بها فى الأمن أُغْلينـــا
إذا الكماةُ تَنَحَّوْا أنْ ينـالهـــم حَدُّ الظُّبات وَصَلْناها بأيدينـــا
فَرْضٌ على مُكْثِرِينا نَيْلُ بَذْلِهـم والجود والبذل فى طَبْع المقلِّينـــا
إنّى وَمَنْ كـأبى يحيى وعِتْرَتـــه لا فَخْر إلا لنا أمَّنْ يُوازينـــا

مَنْ قال : إنا بنو نهشل ، فقد خَبَّرك وجعل « بنو خبر إن » . ومن قال بنى ، فإنما جعل الخبر

إن تبتدر غاية يومـا لمـــكرمـة يلق السوابق منـا والمصلينـــا

ونصـــب « بـــنى » عـــلى فعل مضمر للاختصاص ؛ وهذا أمدح . وقوله : يشـــرينا، يريد يبيعنا ، يقال : شَراه يَشْريه ، إذا باعه ، فهذه المعروفة ، قال الله عز وجل : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ ، ويكون شريت فى معنى اشتريت ، وهـــو مـــن الأضداد . وقوله : تلق السوابق منا والمصلينا ، فالمصلى : الذى فى أثر السابق ، وإنما سمى مصليا لأنه مع صَلَوَىِ السابق ، وهما عِرْقان فى الرِّدْف . وقوله إلا افتليـــنا غلاما سيدا فينا ، مأخوذ من قولهم فَلَوْتُ الفَلوَّ ، إذا أخذته عن أمه ، وأخذ هذا المعنى من قول أبي الطَّمَحان القَيْنى: * إذا مات منهم سيد قام صاحبه *. وقولـــه :

لو كان فى الألف منا واحد فدعوا: من فارس خالهم إياه يعنونـــا

مأخوذ من قول طَرَفة بن العَبْد :

إذا القومُ قالوا . مَنْ فَتًى لِعَظِيمة ؟ فما كُلُّهم يُدْعَى ولكنـــه الفتى

وقوله : حدّ الظُّبات ، فالظبة : الحدّ بعينه ، يقال : أصابته ظبـة السيف ، وأخذ هذا المعنى من قول كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري :

نصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخَطوِنا قُدُماً ونُلحِقُها إذا لم تَلْحَقِ

وقوله : إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ، أخذه من قول الهَمدانيّ ، وهو الأَجْدَع أبو مسروق بن الأجدع الفقيه :

لقد علمتْ نسوانُ هَمْدانَ أنني لَهُنَّ غَداةَ الرَّوْع غيرُ خَذولِ
وأبذلُ في الهيجاءِ وجهي وإنني له في سوى الهيجاءِ غيرُ بذول

ومن القَتّال الكلابي حيث يقول :

أنا ابنُ الأكْرَمِيْنِ بني قُشَيْرٍ وأخوالي الكرامُ بنو كلاب
نعرِّض للطِّعان إذا التقينا وُجوها لا تُعرَّض للسِّباب

أقوال سيارة

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه : « ثلاثٌ من كُنّ فيه فقد كَمُل : من لم يخرجه غضبه عن طاعة الله ، ولم يستزله رضاه إلى معصية الله ، وإذا قدر عفا وكفّ » .

وقال الحسن : « نِعَم الله أكبر من أن تُشْكَر إلاَ ما أعان عليه ، وذنوب ابن آدم أكثر من أن يَسْلم منها إلا ما عفا الله عنه » .

وقـــال عمر بن ذَر ، ودخل على ابنه وهو يجود بنفسه ، فقال : « يا بنى ، إنه ما علينا من موتك غَضاضة ولا بنا إلى أحد سوى الله حاجة » . فلما قَضى وصلّى عـــليه وواراه ، وقـــف على قبره ، فقال : « يا ذَرّ ، إنه قد شغلنا الحزن لك عن الحـــزن عليك ، لأنا لا ندرى ما قلت ولا ما قيل لك . اللهم إنى قد وهبت له ما قَصَّـــر فيـــه مما افترضْتَ عليه من حقى ، فَهبْ له ما قصّر فيه من حَقّك ، واجعل ثوابى عليه له ، وزدنى من فضلك ، إنى إليك من الراغبين » .

وسُـــئل : ما بلغ من بِرّه بك ؟ فقال : « ما مشى معى بنهار قط إلا قدّمنى ؟ ولا بليل إلا تقدّمنى ، ولا رقى سطحـــا وأنا تحته » .

ودخـــــل لَبَطة بن الفَرَزْدَق على أبيه ، وهو محبوس فى سجن مالك بن المنذر ابن الجارُود، ومالك عامل على البصرة لخالد بن عبد الله القسَــْسرىّ ، فقـــال : « يـــا أبـــت هذا عُمر بن يزيد الأُسَيْدىّ ، ضُرب آنفـــا ألف سوط فمات ، فشُدَّ عـــلى حمار » ، فقال الفرزدق : « كأنك والله يا بنى بمثل هذا الحديث قد تُحُدِّث به عن أبيك » ، والحسن إذ ذاك عند محبوس له ، فقال : « يا أبا فراس ، ما عندك إن كان ذلك ؟ » ، فقال : « والله يا أبا سعيد » لله أحبُّ إلىّ مِن سمعى وبصرى ، ومن مالى وولدى، ومن أهلى وعشيرتى، أَفَترُاه يخذلنى ؟ فقال الحسن : « لا » .

وكان عمر بن يزيد الأُسَيْدىّ شريفـــا . حدثنى التوّزىّ عن أبى عُبَيْدة قال : « كـــان رجلَ أهل البصرة عمر بن يزيد الأُسيدىّ ، ورجل الشام عمر بن هُبَيْرة الفَـــزارىّ ، ورجل أهل الكوفة بِلال بن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرى » . فقيل ذلك لعمر بـــن عبد العزيز ، فقـــــال : « أجل ، لـــولا خِبّ [1] فى بِـــلال » .

---

[1] الخب : الخـــــداع .

فقـــال بلال لما بلغه ذلك : « رمتْنى بدائها وانسلّت » . وقتله مالك بن المنذر تعصّـــبـــا فيما تذكره المُضَرِيّة . فلما دُخِل بمالك على هشام ، أقبل على أصحابه فقال : « أمَا رأيتم عمر بن يزيد ، أما إنى ما تمنيت أن تكون أمى ولدَتْ رجلا من العـــرب غيره » . ثم قال لمالك : « قتلتَ والله خيرا منك حسبـــا ونسبـــا ودينـــا وعَقِبـــا ! » . فقال : « وكيف يا أمير المؤمنين ؟ ألست ابن المنذر بن الجارود ، وابـــن مـــالك بن مسمع ؟ » . وكان جده أبا أمّه . وجعل عمر والسياط تأخذه ينادى : « يا هشاماه ! » ففى ذلك يقول الفرزدق :

ألم يَكُ مقتـــــلُ العَبْدِىّ ظلمـــا ... أبا حَفْص من الكُبَرِ العظـــام
قتيلُ جماعـــةٍ فى غير حَـــــقّ ... يُقَطّعُ وهو يدعو : يا هشـــامُ

والـــتقى الحســـن والفرزدق فى جنازة ، فقال الفرزدق للحسن : « أتدرى ما يقول الناس يا أبا سعيد ؟ » قال : « وما يقولون ؟ » قال : « يقولون : اجتمع فى الجـــنازة خير الناس وشر الناس » . فقال الحسن : « كلا ، لستُ بخيرهم ولستَ بشـــرهم . ولكن ما أعددتَ لهذا اليوم ؟ » فقال : « شهادة أن لا إله إلا الله منذ ســـتين سنة ، وخمس نجائب لا يُدْرَ كْن » ، يعنى الصلوات الخمس . فيزعم بعض التميمية أنه رُئى فى النوم ، فقيل له: « ما صنع بك ربك ؟ » فقال : « غفر لى ؟ » فقيل له : « بأى شيء ؟ » فقال : « بالكلمة التى نازعنى فيها الحسن » .

وحدثـــنى العباس بن الفرج الرياشى فى إسناد له ذكره ، قال : كان الفرزدق يخـــرج من منزله ، فيرى بنى تميم والمصاحف فى حجورهم ، فيُسَر بذلك ، ويَجْذَل به ، ويقول : « إيه فدى لكم أبى وأمى ، كـــذا والله كان آباؤكم » .

ونظر إليه أبو هُرَيرة الدَّوْسِيّ فقال له : « مهما فعلتَ فقَنَّطك الناس فلا تقنط من رحمة الله » . ثم نظر إلى قدميه فقال : « إنى أرى لك قدمين لطيفتين ، فابتغ لهما موقفـا صالحـا يوم القيامة » .

يقال : قَنط يَقْنَط وقَنَط يَقْنِط ، وكلاهما فصيح ، فاقرأ بأيهما شئت ، وكذلك نَقِم يَنْقَم ، ونَقَم يَنْقِم .

والفـرزدق يقـول فى آخر عمره ، حين تعلق بأستار الكعبة وعاهد الله أن لا يكذب ولا يشتم مسلمـا :

ألم تَرَنى عاهـدتُ ربى وإننى	لَبَيْنَ رِتاجٍ قائما ومَقـام
على حَلْفة لا أشتم الدهرَ مسلمـا	ولا خارجـا من فِىَّ زُورُ كـلامِ

وفى هذا الشعر :

أطعتُكَ يا إبليسُ تسعينَ حجَّـةً	فلمـا انقضى عمرى وتمّ تمامى
رجعتُ على ربى وأيقـنتُ أننى	مُـلاقٍ لأيامِ الـمَنونِ حِمـامى

قوله : لَبَين رتاج ، فالرتاج : غَلَق الباب ، ويقال : باب مُرْتَج ، أى مغلق ويقال : أُرْتِج على فلان ، أى أُغْلِق عليه الكلام .

وقال الفرزدق فى أيام نُسْكه :

أخافُ وراءَ القبر إنْ لم يُعـافِنى	أشَدَّ من القـبر التهابا وأضيَقـا
إذا قادنى يومَ القيامة قائـدٌ	عنيفٌ وسَوّاق يسوقُ الفرزدقـا
لقد خاب من أولاد آدمَ مَنْ مَشى	إلى النار مغلولَ القِلادة مُوثَقـا
إذا شربوا فيها الحميمَ رأيتَهُـم	يذوبون من حَرّ الحميم تَمَزُّقـا

وعن أبى شَفْقَل راوية الفرزدق ، قال : قال لى الفرزدق يومــا : « امض بنا إلى حلقة الحسن ، فإنى أريد أن أطلّق النّوار » فقلت : « إنى أخاف عليك أن تَتْبَعَها نفسُــك ، ويشــهد عليك الحسن وأصحابه » . فقال : « امض بنا » فجئنا حتى وقفنا على الحسن ، فقال : « كيف أصبحت يا أبا سعيد ؟ » فقال : « بخير ، كيف أصــبحت يــا أبا فراس ؟ » قال : « تَعَلَّمَنَّ أن النوار منى طالق ثلاثــا » . فقال الحســن وأصــحابه : « قد سمعنا. » . فقال لى الفرزدق « يا هذا إن فى قلبى من النوار شيئــا » . فقلت : « قد حذّرتك ! » فقال :

ندمتُ ندامــةَ الكُسَعِىِّ لمــّــــا	غدتْ منّى مُطَلّقةً نَـــــوارُ
وكانتْ جَنّتى فخرجتُ منهــــا	كآدمَ حين أخرجــه الضِّـــرار
ولو أنى ملكتُ يدى ونفســـى	لكــانَ علىَّ للقَدَرِ الخِيــــار

خمريات

قال لَقيط بن زُرارة :

شربتُ الخمــــر حتى خِلْتُ أنّى	أبو قابوسٍ أو عبد المَـــدانِ
أُمَشّى فى بنى عُدَسَ بن زيــــدٍ	رَخِىَّ البــــال منطلق اللسان

وحدثنى أبو عثمان المازنى قال : أُسر رجل يوم الحسين بن على رضى الله عنه فأُتى به يزيد بن معاوية . فقال له : أليس أبوك القائل :

أُرَجِّلُ جُمَّتى وأجــــرُّ ذَيْلى	وتَحْمِلُ شكّتى أُفـــقٌ كُمَيت[1]
أُمَشّى فى سَــــراة بنى غُطَيف	إذا ما ســــامنى ضَيْمٌ أَبيت

قال : « بلى ؟ » . فأمر به فقتل .

---

[1] الجمة : مجتمع شعر الرأس . والشكة : السلاح . وأفق : حصان رائع .

وقال آخـــــر :

شربنا من الدّاذيّ حتى كأننـــــا ... ملوك لهم بَرُّ العراقَيْنِ والبحـرُ[1]
فلما انجلت شمس النهار رأيتنـــا ... تَوَلّى الغنى عنا وعاوَدَنا الفقــــر

وقال آخر ، وهو عبد الرحمن بن الحَـــكَم :

وكأسٍ ترى بين الإناء وبينهــــا ... قذَى العَيْنِ ، قد نازعتُ أُمَّ أبان[2]
ترى شاربَيْها حين يَعْتَوِرانهــا ... يميـــلان أحيانـا ويعتدلان[3]
فما ظَنُّ ذا الواشي بأروَعَ ماجـدٍ ... وَبدّاءَ خَوْدٍ حين يلتقيـــان[4]

وقال رجل من قريش :

مَنْ تَقْرَع الكأسُ اللئيمةُ سِــنَّه ... فلا بُدَّ يوما أن يُسيءَ ويجهـلا
ولم أرَ مطلوبا أخسَّ غنـــيمة ... وأوْضَعَ للأشراف منها وأخمـلا
وأجْدَرَ أن تَلقَى كريما يَذُمُّهــا ... ويشربُها حتى يَخِرَّ مُجــدَّلا
فوالله ما أدرى أخَبْلٌ أصابَهــم ... أم العيشُ فيها لم يلاقوه أشْـكلا

وقال آخر :

إذا صدمتْنى الكأسُ أبدتْ مَحاسِنى ... ولم يَخْشَ نَدْمانى أذاتى ولابُخْلى
ولستُ بفَحّاش عليه وإن أسَـــا ... وما شَكْلُ مَنْ آذَى نداماه من شكلى

---

[1] الداذى : نبت يوضع حبه على الشــــراب .
[2] يريد أنها : صافية ، حتى إنك لترى فى نواحيها ما يشبه فى رقته قذى العين .
[3] يعتورانها : يتعاطيانها ويتبادلانهـــــــــــا .
[4] البداء : البادية المحاسن . والخود : المرأة الشابة .

وقال آخر :

كُلْ هَنيئـا ومـا شربتَ مَريئـا ثم قُمْ صاغرا فغيرُ كـريمِ
لا أحبُّ النديمَ يُومِضُ بالعيـن إذا ما انتشى لعِرسِ النديـم

الإيمـاض : تفتح البرق ولمحه ، يقال : أومضت المرأة ، إذا ابتسمت ، وإنما ذلك تشبيه للمع ثناياها بتبسم البرق ، فأراد أنه فتح عينه ثم أغمضها بغمزة .

وقال حسان بن ثابت :

كأن سَبيئةً مـن بيتِ رأسٍ يكون مزاجهـا عسلٌ ومـاءُ
إذا ما الأشْرِباتُ ذُكرْنَ يومـا فهنّ لطَيّبِ الرّاح الفـداء
نُوَلّيها المَلامة إن ألَمْنـا إذا ما كان مَغْثٌ أو لحـاء
ونشربُها فتتركُنا مـلوكـا وأُسـْدا ما يُنَهْنِهُـنا اللقـاء

المغـث : المماغثة باليد . واللحاء : الملاحاة باللسان : يقول : يعتذر المسيء بأن يقول كنت سكران فيُعْذَر .

وقوله : كأن سبيئـة ، يقال : سبأتها ، إذا اشتريتها سباء ، يعنى الخمر ، والسـابئ : الخمّار ، وقوله : من بيت رأس ، يعنى موضعـا ، كما يقـال حارثُ الجَوْلانِ .

قال الأحْنَف بن قيس « ألا أدلكم على المَحْمَدة بلا مَرْزِئةَ : الخُلُق السَّجيح والكفّ عن القبيح ، ألا أخبركم بأدْوأ الداء : الخلق الدنِء ، واللسان البذِء » .

وقال الأحنف : « ثلاث فيّ ما أقولهن إلا ليعتبر معتبر : ما دخلت بين اثنين حتى يُدخلاني بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء مالم أُدعَ إليه — يعني السلطان — ولا حللتُ حَبْوَتي إلى ما يقوم إليه الناس » . تكسر الحاء وتضمها إذا أردت الاسم ، وتفتحها إذا أردت المصدر . أنشدني عمارة بن عقيل لجرير :

قُتل الزبير وأنت عاقدُ حُبْوَةٍ ... قُبْحاً لِحُبْوَتكَ التى لم تُحْلَلِ

ويقال في جمع حُبوة حِبا وحُبا ، مقصوران .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة : « ما أحسن الحسنات في آثار السيئات وأقبح السيئات في آثار الحسنات ، وأقبح من ذا وأحسن من ذاك : السيئات في آثار السيئات ، والحسنات في آثار الحسنات » .

والعرب تَلفُّ الخبرين المختلفين ، ترمي بتفسيرهما جملة ، ثقة بأن السامع يردّ إلى كلٍّ خبره . وقال الله عز وجل :﴿ وَمِنْ رَحْمَتِه جَعَل لَكُمْ الليلَ وَ النهارَ لتَسْكُنُوا فيه ولِتَبْتَغُوا من فضْله ﴾ .

السيد

قال رجل لسَلْم بن نوفل : « ماأرخصُ السؤدُد فيكم ؟ » فقال سليم : « أما نحن فلا نُسَوِّد إلا من بذل لنا ماله ، وأوطأنا عِرْضه ، وامتهن فى حاجتنا نفسه » . ولسلم يقول القائل :

يُسَوَّدُ أقوامٌ وليسوا بسادةٍ بل السَّيدُ المعروفُ سَلْمُ بن نَوْفَلِ

قال معاوية لعَرابة بن قَيْظِىّ الأنصارى : « بم سُدْت قومك ؟ » فقال « لست بسيدهم ، ولكنى رجل منهم » . فعزم عليه ، فقال : « أعْطيتُ فى نائبتهم، وحَمَلْت عن سفيههم ، وشددت على يدى حليمهم ، فمن فعل منهم مثل فعلى فهو مثلى ، ومن قصر عنه فأنا أفضل منه ، ومن تجاوزه فهو أفضل منى » .

وكان سبب ارتفاع عرابة أنه قدم من سفر . فجمعه الطريق والشماخ بن ضِرار المُضَرِىّ ، فتحادثا ، فقال له عرابة : « مالذى أقْدَمك المدينة ؟ » قال : « قدمت لأمتار منها » . فملأ له عرابة رواحله بُرا وتمرا ، وأتحفه بغير ذلك . فقال الشماخ :

رأيتُ عَرابةَ الأوْسِىَّ يسمو إلى الخيراتِ منقطعَ القرينِ

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجْدٍ تلقّاها عَرابةُ باليمين

إذا بَلَّغتنى وحملتِ رَحْلى عرابةَ فاشْرَقى بدم الوتين

ومثلُ سَراةِ قومك لم يُجارَوْا إلى رُبُعِ الرِّهانِ ولا الثّمين

قوله : تلقاها عرابة باليمين ، قال أصحاب المعانى : معناه بالقوة ، وقالوا مــثل ذلك فى قول الله عز وجل : ﴿وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه﴾ .وقد أحسن كل الإحسان فى قوله :

إذا بلغتنى وحملت رحــــــلى عرابة فاشرقى بدم الوتيــــــن

يقول : لست أحتاج إلى أن أرحل إلى غيره . وقد عاب بعض الرواة قوله : فاشـــرقى بدم الوتين . وقال : كان ينبغى أن ينظر لها مع استغنائه عنها ، فقد قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم للأنصارية المأسورة بمكة ، وقد نجت على ناقة رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : « يا رسول الله ، إنى نذرت إن نجوت أن أنحـــرها . » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لبئس مــــا جَزَيتها » . وقال : « لا نذر فى معصية ، ولا نذر للإنسان فى غير ملكه » .

وممـــا لم يُعَب فى هذا المعنى قول عبد الله بن رَواحة الأنصارى لما أَمَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زيد وجعفر على جيش مُؤْتَة :

إذا بلغـــتنى وحمــــلت رحْلى مســيرةَ أربــعٍ بعـــد الحِساء
فشَـــأنك فانْعَمى وَخَلاكِ ذَمٌ وَلا أَرْجِـــعْ إلى أهلى ورائـــى

الحِســـاء : جمع حِسْى ، وهو موضع رمل تحته صلابة ، فإذا أمطرت السماء عـــلى ذلك الرمل نزل الماء ، فمنعته الصلابة أن يغيض ، ومنع الرمل السمائم أن تنشـــفه . فـــإذا بُحث ذلك الرمل أصيب الماء . يقال : حِسى وأحْساء وحِساء ، ممدودة . وقد اتبع ذو الرُمَّة الشماخ فى قوله :

إذا ابـــنَ موسى بـــلالا بَلَغْتِه فقام بفأس بين وِصْلَيْك جــــازِرُ

الوصْـــل : المفصل بما عليه من اللحم ، يقال : قطع الله أوصاله ، ويقال : وِصْل وكِسْر وجِدْل ، فى معنى واحد.

قلة النوم من الذكاء

أنشدني التَّوَّزى لرجل من رُجَّاز بنى تميم فى وقعة الجُفْرة :

نحن ضربنــــا الأزْدَ بالعراقِ　　　والحىَّ من ربيعــــة المرّاقِ

وابنَ سُهيل قائدَ النّفــــاق　　　بلا معونــــات ولا أرزاق

إلا بقايــــا كــرمِ الأعــراق　　　لشدّة الخَشْية والإشفــــاق

من المخَازى والحديث البــــاقى

الأعراق : جمع عِرْق ، يقال : فلان كريم العرق ، ولئيم العرق ، أى الأصل.

وقال آخــــر يصف ابنـــه :

أعرف منـــه قلةَ النُّعاس

وخفةً فى رأســه من راسى

كيف تَرَيْنَ عنـــده مرَاسى

يخــاطب أمّ ابـــنه . فقوله : أعرف منه قلة النُّعاس ، أى الذكاء والحركة ، وكــان عبد الملك بن مروان يقول لمؤدب ولده : « عَلِّمْهم العوم ، وهَذِّبهم بقلة النوم » .

وكــذا قال أبو كبير الهُذَلى :

فأتتْ به حُوشَ الجَنان مُبطَّنـــا　　　سُهُدا إذا ما نام ليلُ الهَوْجَلِ [1]

وقال آخـــــر :

فجاءت به حُوشَ الفــؤادِ مُسهَّدا　　　وأفضلُ أولادِ الرجالِ المسهَّدُ

---

[1] حوش الجنان : حديد القلب ذكى . والمبطن : الضامر البطن .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن عينىّ تنامان ولا ينام قلبى » .

وقال عروة بن الورد العَبْسى ، وهو عروة الصَّعاليك :

لَحَا الله صعلوكا إذا جَنَّ ليلهُ	مُصافِى المُشاش آلفًا كلَّ مَجْزَرِ[1]
ينامُ ثقيلا ثم يصبح قاعدا	يَحُتُّ الحصى عن جنبه المُتعفر
يُعين نساءَ الحىِّ ما يَستعنّه	فيُضحى طَليحا كالبَعير المُحَسَّر
ولكنَّ صُعلوكا صفيحةُ وجهه	كضوءِ سراجِ القابسِ المُتنوِّر
مُطلا على أعدائه يَزْجرونه	بساحتهم زجرَ المَنيح المشهَّر
وإنْ بَعُدوا لا يأمنون اقترابه	تَشوُّفَ أهلِ الغائب المُتَنَظَّر
فذلك إنْ يَلْقَ المنيّةَ يَلْقَها	حَميدا وإن يَسْتَغنِ يوما فأجْدر

قوله : يحت الحصى عن جنبه المتعفر ، يريد المتترب ، والعَفَر والعَفْر : اسمان للتراب ، وقوله : كالبعير الحسر ، هو المُعْيى ، يقال : جمل حسير وناقة حسير ، قال الله عز وجل : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ . وقوله : وإن بعدوا لا يأمنون اقترابه ، على التقديم والتأخير ، أراد لا يأمنون اقترابه وإن بعدوا. وكيف ترين عنده مراسى ، يقول : للمرأة عَزَزْتُك على شبهه .

وهذا الرجز ضد ما قال الآخر فى ولده ، فإنه أقر بأن امرأته غلبته على شبهه، وذلك قوله :

والله ما أشْبهنى عصامُ
لا خُلقٌ منه ولا قَوام
نِمْتُ وعِرْق الخال لا ينام

يقول عزَّتنى أمه على الشبه ، فذهبت به إلى أخواله .

---

[1] لحا : لعن وقبح . والمشاش : النفس أو الطبيعة .

قـال ابن عباس رضى الله عنهما : « لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفر ، فإنه يشكرك عليه من لم تصطنعه إليه » .

وأُنشِد عبد الله بن جعفر قولَ الشاعر :

إن الصَّنيعةَ لا تكـون صنيعةً — حتى تُصيبَ بها طـريق المَصْنَعِ

فقال : « هذا رجل يريد أن يبخِّل الناس ، أَمْطِرِ المعروف مَطَرا ، فإن صادف موضعا فهو الذى قصدتَ له ، وإلا كنتَ أحق به » .

ومـر يزيد بن المُهلَّب بأعرابية فى خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز يريد البصـرة . فقَـرَتْه عَنزا فقبلها . وقال لابنه معـاوية : « ما معك من النفقة ؟ » فقـال : « ثمانى مئة دينار » . قال : « فادفعها إليها » . قال له ابنه : « إنك تريد الرجال ولا يكون الرجال إلا بالمال، وهذه يُرضيها اليسير ، وهى بَعْدُ لا تعرفك » فقـال لـه : « إن كانت ترضَى باليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى ، ادفعها إليها » .

وزعـم الأصمعى أن حربا كانت بالبادية ، ثم اتصلت بالبصرة ، فتفاقم الأمر فيها . ثم مُشِى بين الناس بالصلح ، فاجتمعوا فى المسجد الجامع . قال : فبُعثتُ وأنا غلام إلى ضِرار بن القَعْقاع من بنى دارم . فاستأذنتُ عليه ، فأذِن لى . فدخلتُ فإذا به فى شَمْلة يَخْلِط بَزْرا لعَنْز له حلوب . فخبرته بمجتمع القوم . فأمهل حتى أكلت

العتر ، ثم غسل الصفحة . وصاح : « يا جارية غَدِّينا » فأتته بزيت وتمر . فدعانى فقَذِرتُــه أن آكــل معــه . حتى إذا قضى من أكله حاجة . وثب إلى طين مُلْقًى فى الــدار ، فغســل بــه يده . ثم صاح : « يا جارية ، اسقينى ماء ». فأتته فشربه ، ومسح فَضْله على وجهه . ثم قال : « الحمد لله ؟ ماء الفرات بتمر البصرة بزيت الشــام ! متى نؤدى شكر هذه النعم ؟ » . ثم قال : « يا جارية ، علىّ بردائى » . فأتــته برداء عَدَنِى ، فارتدى به على تلك الشملة . قال الأصمعى : فتجافيت عنه استقباحا لزيه . فلما دخل المسجد صلى ركعتين ثم مشى إلى القوم . فلم تبق حبوة إلا حلت إعظاما له . ثم جلس فتحمل جميع ما كان بين الأحياء فى ماله وانصرف .

من أقوال العرب في الطيرة

أنشـــدنى رجل من أصحابنا من بنى سعد ، قال أنشدنى أعرابى فى قصيدة ذى الرُّمَّـــة :

أَلا يا اسْلَمى يا دارَ مَىَّ على البِلَى ... ولا زال مُنْهَلا بِجَرْعائك القطَــرُ

بيتين لم تأت بهما الرواة ، وهما :

رأيتُ غرابــًا ساقطــًا فوق قضْبة ... من القَضب لم يَنْبُتْ لها وَرَقٌ نَضرُ

فقلتُ : غراب لاغتراب ، وقَضْبة ... لقَضْب النَّوَى، هذى العِيافةُ والزَّجْر

وقال آخــــر :

وَقدْ هاجنى فازددتُ شــــوقــا ... بكاءُ حمامتين تَجـــــــاوبَان

تَجاوَبَتــــا للَحْنٍ أعْجَمِــىّ ... على عُودَيْن من غَرَب وبـــان

فــكانَ البانُ أنْ بانت ســـليمى ... وفى الغَرَب اغتـــرابٌ غيرُ دان

الفقر والغنى

قال شاعـــــر :

ولقد بَغيت المـــالَ من مَبْغاتـــــــه   والمـــــالُ وجـــه للفتى مَعروضُ

طلبَ الغِنى عــــن صاحبى لِيُحبَّنى   إن الفقير إلى الغنىِّ بَغيـــــــض

غزل

قال ابن الرقاع العاملىّ :

لولا الحياءُ وأنَّ رأسى قد عَســــا   فيه المشيبُ لَزُرْتُ أمَّ القاسمِ [1]

وكأنها بين النســـاء أعـــارَهـــا   عينيـــه أحْوَرُ من جآذِرِ عاسم

وَسْنانُ أقْـصَدَه النعاسُ فرَنَّقتْ   فى عينيه سِنَـــةٌ وليس بنائم

معنى رَنَّقت هيأت ، يقال : رنَّق النسر ، إذا مد جناحيه ليطير .

مواعظ

قيـــل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : « أى الجهاد أفضل ؟ » فقــــال : « جهادك هواك » .

وقال رجل من الحكماء : « أعصِ النساء وهواك واصنع ما شئت » .

---

(1) عســــا : كثر وعظم .

وقـــال محمـــد بن على : « مالك من عيشك إلا لذة تَزْدَلِف بك إلى حِمامك وتقربك من يومك ، فأيَّةُ أكلة ليس معها غَصَص أو شربة ليس معها شَرَق ؟ فتأمل أمرك فكأنَّـــك قد صِرْتَ الحبيب المفقود والخيال المُختَرم ! أهل الدنيا أهل سفر لا يَحُلُّون عَقْد رِحالهم إلا فى غيرها » . تزدلف بك إلى حمامك : يقول : تقرِّبك .

وقـــال رجل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو فى خطبـــــــــــــة : « يـــا أمـــير المؤمنين ، صف لنا الدنيا ! » فقال : « ما أصف من دار أوَّلها عناء ، وآخـــرها فناء ، فى حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب ، مَنْ صَح فيها أمِنَ ، ومن مَرِض فيها ندم ، ومن استغنى فيها فُتِن ، ومن افتقر فيها حَزِن » .

فرسان العرب

قال أبو عبيدة : اجتمع العُكاظِيُّون على أن فُرسان العرب ثلاثة : ففارس تميم عُتَيْـــبة بـــن الحـــارث بـــن شهاب ، أحد بنى ثَعْلبه بن يَرْبُوع بن حنظلة ، صَيَّاد الفوارس، وسَمُّ الفرسان ؛ وفارس قيس عامر بن الطُّفيل ، وفارس ربيعة بِسْـــطام ابن قيس ، أحد بنى شَيبان بن ثعلبة ، ثم اختلفوا فيهم حتى نَعَوْا عليهم سَقَطاتهم .

دينيات

وحدثنى العباس بن الفرج الرِّياشىُّ عن الأصمعىِّ قال : قال عَدِىّ بن الفُضَيل : خرجت إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أستحفره بئرا بالعَذْبة فقـــــــال لى : « وأيـــن العذبة ؟ » فقلت : « على ليلتين من البصرة » . فتأسف ألا يكون بمثل هـــذا الموضع ماء . فأحْفرَنى ، واشترط علىَّ أن أول شارب ابن السبيل . فحضرتُه

فى جمعة ، وهو يخطب ، فسمعته وهو يقول : « يا أيها الناس ، إنكم ميتون ثم إنكم مبعوثون ثم إنكم محاسَبون ، فلَعَمْرى لئن كنتم صادقين لقد قَصَّرتم ، ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم . أيها الناس ، إنه من يُقدَّر له رزق برأس جبل أو بحَضيض أرض يَأته ، فاتقوا الله وأَجْمِلوا فى الطلب » . فأقمت عنده شهرا ما بى إلا استماع كلامه.

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كان آمنـًا فى سَرْبه مُعافىً فى بدنه ، عنده قوت يومه ، كان كمن حِيزَت له الدنيا بحذافيرها » .

فى سربه ، يقول : فى مسلكه ، يقال : فلان واسع السرب ، خليّ السرب يريد المسالك والمذاهب .

وكان الحسن يقول : « ليس العَجَب ممن عَطِب كيف عطب ، إنما العجب ممن نجا كيف نجا » .

وكان الحجَّاج بن يوسف يقول على المنبر : « أيها الناس ، اقْدَعُوا هذه الأنفُس ، فإنها أسأل شىء إذا أُعْطِيت ، وأَمنَعُ شىء إذا سُئلت ، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خِطاما وزماما ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعطفها بزمامها عن معصية الله . فإنى رأيت الصبر عن مَحارم الله أيسر من الصبر على عذابه » .

اقدعوا : يقول امنعوا . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطب خديجة بنت خوَيلد ، ذُكِر ذلك لوَرَقة بن نوفل ، فقال : « محمد بن عبد الله يخطب خديجة بنت خويلد ، الفحلُ لا يُقْدَع أنفه » .

وكان الحجاج يقول : « إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ، أو يستغفر من ذنبه ، أو يفكر فى معاده ، لجَديرٌ أن تطول حَسْرته يوم القيامة » .

الأبناء ومآثر الآباء

أنشدني عُمارة بن عَقيل لنفسه يحضُّ بني كعب وبني كلاب ابني ربيعة على بني نُمَـير بن عامر بن صعصعة ، وبينهم مُطالَبـات وتِرات . وكانت بنو نمير أعـداء عُمـارة ، فكان يحض عليهم السلطان ، ويُغرى بهم إخوتهم ، ويحاربهم في عشيرته . فقال :

رأينا كُما يا ابْنَىْ ربيعةَ خُرْتُمـا ... لعَضِّ الحروبِ والعـديدُ كثيرُ
وصدَّقْتُما قولَ الفرزدقِ فيـكما ... وكذَّبتمُا ما كان قال جـرير
أصابتْ نُمَيرٌ منكمُ فوقَ قَدْرِهـا ... فكـلُّ نُمَيرىٍّ بـذاك أمير
فإنْ تفخَروا بما مضى من قديمكم ... فقـد هُدمت مدائنٌ وقصـور
رَمَتْها مَجانيقُ العـدو فقُوِّضتْ ... مدائنُ منهـا كالجبـال وسُور
وشَيَّدها الأملاكُ كسرى وهُرْمُزٌ ... وآلُ هرِقْل حِقْبـةً ونَضِـير
فإنْ تَعْمُروا المجدَ القديمَ فلم يَزَلْ ... لكم في مُضرّات الحروب ضرير
خَبَطْتمْ ليوثَ الشام حتى تَناذَرَتْ ... حِماكـم وحتى لا يَهرُّ عَقُور
فكيف بأكنافِ الشُّرَيف تصيبكم ... ثعالبُ يبحثن الحَصَى وأُبـور

فقد هدمت مدائن وقصور : مَثَل ، يريد أن مجدكم الذى بناه آباؤكم متى لم تعمروه بأفعالكم خرب وذهب . وهذا كما قال عبد الله بن معاوية :

لَسْنـا وإنْ كَرُمَتْ أوائلُنـا ... يوما على الأحسابِ نَتَّكِـلُ
نبـنى كما كانت أوائلنـا ... تبنى ونفعل مثل ما فعلـوا

كما قال الآخـــــر :

أَلْهَى بنى جُشَمٍ عن كلِّ مكرمـــــةٍ	قصيدةٌ قالها عمرو بـــــن كُلثُومِ
يفاخرون بها مُذْ كـــــــان أولهم	يا لَلرِّجال لفَخْرٍ غيرِ مســــئوم
إنَّ القديم إذا ما ضـــــــاع آخرُه	كساعدٍ فَلَّهُ الأيـــــــام محطوم

وكما قال عامر بن الطُّفَيل العامرى :

إنى وإنْ كنتُ ابنَ فارسِ عامـــــرٍ	وفى السرِّ منها والصريح المهّذبِ
فما سَوَّدتْنى عامرٌ عن وراثـــــــةٍ	أبى اللهُ أنْ أسمو بأمّ ولا أب
ولكنَّنى أحمى حماهـــــــــا وأتَّقى	أذاها وأرمى من رماها بمقْنَب [1]

وقوله : لكم فى مضرات الحروب ضرير ، يقال : رجل ذو ضرير ، إذا كان ذا مشـــقة على العدوّ. ويروى أن معاوية بن أبى سفيان رحمه الله تعالى قال لدَغْفَل ابـــن حَنْظَـــلة النَّسّابة : « ما تقول فى بنى عامر بن صعصعة ؟ » فقال : « أعناق ظِباء وأعجاز نساء » . قال : « فما تقول فى بنى تميم ؟ » قال : « حجر أخشن ، إنْ صـــادمتَه آذاك ، وإن تركتـــه تركك » . قال : « فمـــا تقول فى اليمن ؟ » قال : « سّيد وأنْوَك [2] » .

---

[1] المقنب : الجماعة من الخيل تجتمع للغارة .

[2] الأنوك : الأحمق ، والعاجز الجاهل ، والغبى .

هجاء ومدح

قال أعرابي يهجو قومـــا من طَيِّء :

ولمّا أنْ رأيتُ بنى جُوَيْنٍ ... جلوســا ليس بينهُم جليسُ
يئستُ من التى أقبلتُ أبغى ... لديهم إننى رجـــل يئوس
إذا مــــا قلتُ أيتُّهُم لأَىّ ... تَشابَهتِ المناكبُ والرءوس

وقولـــه : جلوسا ليس بينهم جليس ، يقول : هؤلاء قوم لا ينتجع الناس معروفهم ، فليس فيهم غيرهم . وهذا من أقبح الهجاء .

ومن أمثال العرب : « سمنهم فى أديمهم » ومعناه فى مأدومهم .

وتقول الحكمـــاء : « من كثر خيره ، كثر زائره » .

وقـــال المُهـــلّب بن أبى صُفْرة لبنيه : «يا بَنِىّ إذا غدا عليكم الرجل وراح مسلّما فكفى بذلك تقاضيا » .

ومن أحسن المدح قول زهير :

وقد جعل الطالبون الخيرَ فى هَرِم ... والسائلون إلى أبوابه طُرُقـــا

وقال آخر :

ويزدحم الناس على بابه ... والمَشْرب العذبُ كثير الزحـــام

وقوله : تشابهت المناكب والرءوس ، إنما ضربه مثلا للأخلاق والأفعال ، أى ليـــس فيهـــم مُفضّل . ويقال : إن الأضْبَط بن قُرَيع آذته عشيرته من بنى سعد ، فخرج عنهم . فجعل لا يجاوز قوما إلا آذوه ، فقال : « أينما أذهبْ ألقَ سعدا » ، أى أفر من الأذى إلى مثله .

خير المجالس

قال أبو إدريس الخَوْلانى : « المساجد مجالس الكرام » .

وقيـــل للأحنف بن قيس : « أى المجالس أطيب ؟ » فقال : « ما سافر فيه البصر ، واتَّدَع فيه البدن . » اتدع : افتعل من التوديع .

وقيـــل للمهلب بن أبى صُفْرة : « ما خير المجالس ؟ » فقال : « ما بَعُد فيه مدى الطَّرْف ، وكثرت فيه فائدة الجليس » .

ويــــروى عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه : « إذا أتيت مجلس قوم ، فارمهم بســـهم الإسلام ثم اجلس . فإنْ أفاضوا فى ذكر الله ، فأَجِلْ سهمك ، وإن أفاضوا فى غـــيره فخَـــلّهم وانهض » . قوله : فارمهم بسهم الإسلام ، يعنى السلام . وقوله: فأجِل سهمك مع سهامهم ، يعنى ادخل معهم فى أمرهم ؟ فضربه مثلا من دخول الرجل فى قداح الميسر .

وقال وهب بن عبد منَاف بن زُهْرة جد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمه :

وإذا أتيتَ جماعةً فى مجلسٍ ... فاختر مجالسهم ولَمّا تَقْعُدِ
ودَعِ الغُواة الجاهلين وجَهْلَهم ... وإلى الذين يُذكّرونك فاعمدِ

وقـــال ابن عباس رحمه الله : « لجليسى علىَّ ثلاث : أن أرميه بطَرفى إذا أقبل وأوسِّع له إذا جلس ، وأصغى إليه إذا حدث » .

وكان القَعْقاع بن شَوْر إذا جالسه جليس ، فعَرّفه بالقصد إليه ، جعل له نصيبا فى ماله ، وأعانه على عدوه ، وشفع له فى حاجته ، وغدا إليه بعد المجالسة شاكرا له حتى شُهِر بذلك . وفيه يقول القائل :

كنتُ جليسَ قَعقاعِ بن شَوْرٍ   ولا يَشْقَى بقعقاعٍ جليس
ضحوك السِّنِّ إن أمروا بخير   وعند السوء مِطْراقٌ عَبوس

وقـــال رجل من بنى مَخزوم للأَحْوَص بن محمد الأنصارى ليؤذيه : أتعرف الذى يقول :

ذهبت قريش بالمكـــــــارم كلِّها   واللؤمُ تحت عمائـــم الأنصار

فقال الأحوص : لا أدرى، ولكنى أعرف الذى يقول :

الناسُ كَنَّوْه أباحَكَـــــــــمٍ   والله كَنَّاه أبا جَهْــــــــــل
أبقتْ رياســــته لأســــــرته   لؤمَ الفُـــــروع ودقَّةَ الأصـــل

وهـــذا الشـــعر لحسان بن ثابت . والبيت الذى أنشده المخزومى للأخطل ، وكـــان يزيد بن معاوية عتب على قوم من الأنصار ، فأمر كعب بن جُعَيل التغلبى بهجائهم. فقال له كعب: « أأهجو الأنصار ؟ أرادِّى أنت إلى الكفر بعد الإسلام ؟ ولكـــنى أدلـــك عـــلى غـــلام من الحى نصرانى ، كأن لسانه لسان ثور » . يعنى الأخطـــل. فـــلما قال هذا البيت دخل النعمان بن بشير بن سعد الأنصارى على معاوية ، فحَسَر عمامته عن رأسه ، ثم قال : « يا معاوية أترى لؤما ؟ » . فقـــال: « ما أرى إلا كرما » . فقال النعمان :

مُعاوىَ إنْ لا تُعْطنا الحـــقَّ تعترف   لحى الأزْدِ مَسْدولا عليها العمائمُ
أَيَشْتُمنُا عبدُ الأراقم ضَـــــلّةً   فماذا الذى تجدى عليك الأراقم
فمالىَ ثأرٌ دونَ قطعِ لســــــانه   فدونَك مَن ترضيه عنه الدراهـــم

وكـــان الأحـــنف بن قيس يقول : « لاتزال العرب عربا ما لبست العمائم ، وتقلدت السيوف ، ولم تَعْدُد الحلم ذلا ، ولا التواهب فيما بينها ضعة » .

وقالوا فى تأويل قوله : مالبست العمائم ، يقول : ما حافظت على زيها. وقوله وتقلدت السيوف ، يريد الامتناع من الضيم. وقوله : لم تعدد الحلم ذلا ، يقول ما عرفت موضع الحلم . وتأويل ذلك أن الرجل إذا أغضى للسلطان ، أو أغضى عن الجـــواب وهـــو مـــأمور ، لم يُقَلْ حَلُم ، وإنما يقال حلم إذا ترك أن يقول الشىء لصاحبه منتصرا ولا يخاف عاقبة يكرهها ؛ فهذا الحلم المحض . فإذا لم يفعل ذلك ، ورأى أن تـــركه الحلم ذل ، فهو خطأ وسفه . وقوله : ولم تر التواهب بينها ضعة ، نحو من هذا ، وهو أن يهب الرجل من حقه مالا يستكره عليه .

الإحسان والمنـــــــة

كـــان يقـــال : « أحْيوا المعروف بإماتته » . وتأويل ذلك أن الرجل إذا امتن بمعروفة كدَّره .

وقيـــل : « المنَّـــة تهدم الصنيعة » .

وكان يقـــــــال : « كتمان المعروف من المنعَم عليه كفر ، وذِكْره من المنعِم تكدير له » .

وقـــال قيـــس بن عاصم : « يا بنى تميم ، اصحبوا من يذكر إحسانكم إليه وينسى أياديه إليكم » .

قـال عـبد المـلك بن مروان لأسْلِم بن الأحنف الأسدى : « ما أحسن ما مُدحـت بـه ؟ » فاستعفاه فأبى أن يعفيه ، وهو معه على سريره ، فلما أبى إلا أن يخبره ، قال : قول القائل :

ألا أيُّها الرَّكْبُ المُخِبُّوَن هل لكـم ... بسيِّدِ أهلِ الشامِ تُحْبَوْا وتَرْجعوا [١]

من النَّفَرِ البيض الذين إذا اعْتـزَوْا ... وهابَ الرجالُ حَلْقةَ الباب قَعقَعُوا [٢]

إذا النفرُ السُّودُ اليَمانونَ نَمْنَـمـوا ... له حَوكَ بُرْدَيْه أجادوا وأوسـعوا [٣]

جَلا المِسْكُ والحَمَّام والبيضُ كالدُّمى ... وفَرْقُ المدارَى رأسَه فهو أنـزع [٤]

فقال له عبد الملك : ما قال أخو الأوس أحسن مما قيل لك :

قد حَصَّت البَيْضةُ رأسى فمـا ... أطْـعَمُ نومـًا غير تَهْجـاعِ [٥]

وحُدثـت أن كُـثيِّرا كان يقول : لَوَددْت أنى كنت سبقت الأسود إلى هذين البيتين ، يعنى نصيبا فى قوله :

من النفر البيض الذيـن إذا انْتجَوْا ... أقرَّتْ لنَجْواهم لُؤَىُّ بن غـالبِ

يُحَيَّونْ بسَّامين طَـوْرا وتـارة ... يُحَيَّون عَبَّاسين شُـوس الحواجب

والمختار من الشعر الأول قوله :

---

(١) المخبون : الذين تخب بهم دوابهم ، أى تسرع . وتحبوا : تعطوا .

(٢) اعتزوا : انتسبوا . وقعقعوا : صوتوا .

(٣) نمنموا : زخرفوا ، والحوك : الخياطـة .

(٤) المدارى : الأمشـاط .

(٥) البيضـة : الخـوذة .

من النفر البيض الذيـــن إذا اعتزوا　　　وهاب الرجال حلْقَة البـــاب قعقوا

يخبر بجلالتهم ومعرفتهم بأقدارهم وثقتهم بأن مثلهم لا يُرَد .

وحُدِّثــت أن جريــرا كان يقول : وددت أن هذا البيت من شعر هذا العبد كان لى بكذا وكذا بيتـــا من شعرى ، يعنى قول نصيب :

بزينب أَلْمِمْ قبلَ أن يرحلَ الركبُ　　　وقُلْ إنْ تَمَلّينا فمــــا مَلَّكِ القلبُ

وأما قول نصيب :

أهيمُ بدَعْدٍ مــا حييتُ وإنْ أَمُتْ　　　أُوَكلْ بدعدٍ من يهيم بها بعــــدى

فلم تجد الرواة ولا من يفهم جواهر الكلام له مذهبــا حسنا . وقد ذكر عبد المـــلك ذلك لجلسائه فكلٌّ عابه ، فقال عبد الملك : « فلو كان إليكم كيف كنتم قائلين ؟ » فقال رجل منهم : كنت أقول :

أهيم بدعد مــا حييت وإن أمت　　　فوا حَزَنا من ذا يهيم بها بعدى ؟

فقال عبد الملك : « ما قلت والله أسوأ مما قاله ! » فقيل له : « فكيف كنت قائلا فى ذلك يا أمير المؤمنين ؟ » فقال : كنت أقول :

أهيم بدعد مــا حييت فــإن أمت　　　فلا صَلَحت دعد لذِى خُلَّة بعــدى

فقالوا : « أنت والله أشعر الثلاثة يا أمير المؤمنين » .

وقد فُضِّل نُصَيب على الفرزدق فى موقفه عند سليمان بن عبد الملك ، وذلك أنهما حضرا ، فقال سليمان للفرزدق : « أنشدنى » . وإنما أراد أن ينشده مدحا له . فأنشده :

وركبٍ كأن الريحَ تطلبُ عندَهم — لها ترَةً من جَذْبِها بالعصائب [1]

سَرَوْا يخبطون الريحَ وهى تَلُفُّهم — إلى شُعَب الأكوارِ ذات الحَقائب [2]

إذا آنسُوا نارا يقولون لَيْتها — وقد خَصِرت أيديهمُ نارُ غالب [3]

فأعرض سليمان كالمغضَب . فقال نصيب : « يا أمير المؤمنين أَلا أنشِدك فى رَوِيِّها ما لعله لا يتضع عنها ؟ » فقال : « هات » . فأنشده :

أقول لركبٍ صادرين لَقيتُهم — قَفَا ذاتِ أوشال ومولاكَ قارب [4]

قِفُوا خَبِّرونى عن سليمانَ إننى — لمعروفِهِ من أهل وَدانَ طالب

فعاجُوْا فأثْنَوا بالذى أنت أهله — ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائب [5]

---

[1] الترة : الثأر . والعصائب : العمائم .

[2] الأكوار : جمع كور ، وهو الرحل .

[3] خصرت : بردت .

[4] قفا : خلف . ذات أوشال : موضع . ومولاك : يريد نفسه . وقارب : طالب للماء .

[5] عاجوا : عطفوا إبلهم .

وهـــذا فى بـــاب المـــدح حسن ومتجاوز ومبتدع لم يُسبَق إليه ، على أن الشاعر ، وهو أخو هَمْدان ، قد قال فى عصره فى غير المدح :

يَمُرّون بالدَّهْنا خفافا عيـــابُهـــم ويخرُجْن من دارينَ بُجْرَ الحَقــائبِ
على حينِ أَلْهَى الناسَ جُلُّ أمورهـــم فَنَدْلا زُرَيْقُ المالَ نَدْلَ الثعـــالب

وليـــس شـــعر نصيب هذا الذى ذكرناه فى المدح بأجود من قول الفرزدق فى الفخـــر ، وإنمــا يُفاضَل بين الشيئين إذا تناسبا . وقد قال سليمان للفرزدق حين أنشـــده نصـــيب : « كيـــف تراه ؟ » قال : « هو أشعر أهل جِلْدَته » . فقام الفرزدق وهو يقول :

وخَيْرُ الشعرِ أشرفه رجالا وشَرُّ الشعر ما قال العبيـــد

ثم نـــرجع إلى تفســـير الشعر . يمرون بالدهنا خفافا عيابهم ، يعنى قوما تجارا . وقـــد قـــالوا : إنما ذكر لصوصا . والأول أثبت ، ذلك أن « دَارِين » سوق من أسواق العرب . وبُجْر الحقائب ، يقول : عظام . وأما قوله : فندلا زريق المال ندل الـــثعالب ، فـــزريق : قبيـــلة ، وندلا : مصدر ، يقول الدُّلى ندلا يازريق المال ، والـــنَّدل : أن تجذبه جذبا فنصب ندلا بفعل مضمر ، وهو الدُّلى . وهذا فى الأمر تقول : ضربا زيدا ، وشتما عبد الله . وندل الثعالب : يريد سرعة الثعالب ، يقال فى المثل : « أكسب من ثعلب » .

إصابة الهدف في المديح

وحُدِّثت أن أبا وَجْزَة السُّلمى المعروف بالسَّعْدى لنزوله فيهم ، ومحالفته إياهم ، كان شَخَص إلى المدينة يريد آل الزبير ، وشخص أبو زيد الأسلمى يريد إبراهيم بن هشام ، وهو والى المدينة فاصطحبا . فقال أبو وجزة : « هَلُمّ فَلْنَشترك فيما نصيبه » فقال أبو زيد الأسلمى : « كلا ، أنا أمدح الملوك ، وأنت تمدح السُّوقَة ! » فلما دخلا المدينة صار أبو زيد إلى إبراهيم بن هشام فأنشده :

يا بن هشام يا أخا الكرام

فقال إبراهيم : « وإنما أنا أخوهم وكأنى لست منهم ! » . ثم أمر به فضُرِب بالسياط . وامتدح أبو وجزة آل الزبير ، فكتبوا إليه بستين وَسْقا من تمر ، وقالوا : « هلا لك عندنا فى كل سنة » . فانصرفا . فقال أبو زيد :

مدحتُ عُروقا للنَّدى مَصَّت الثَّرَى ... حَديثا فلم تَهْمُمْ بأن تَتَزعزعا

نقائذَ بؤسٍ ذاقت الفقرَ والغنى ... وَحَلَّبت الأيامَ والدهرَ أَضْرُعا

سقاها ذووالأرحام سَجْلاعلَى الظَّما ... وقد كَرَبتْ أعناقُها أن تَقَطّعا

بفَضْلِ سجالٍ لو سَقَوا من مشى بها ... على الأرضِ أرْواهم جميعًا وأشْبعا

فضمّت بأيديها على فضل مائها ... من الرِّى لما أوشكت أن تَضَلّعا

وَزهَّدها أن تفعل الخير فى الغنى ... مُقاساتُها من قبله الفقرَ جُوَّعا

وقال أبو وجزة :

راحت رواحا قَلوصى وهى حامدةٌ ... آلَ الزبير ولم تَعْدلْ بهم أحدا

راحت بستين وَسْقا فى حقيبتها ... ماحملتْ حَملَها الأدنى ولا السَّددا

ما إن رأيتُ قلوصًا قبلها حَمَلت ... ستين وَسْقا ولا جابت به بلدا

ذاك القِرَى لا قِرى قومٍ رأيتهمُ ... يَقْرون ضيفهمُ المَلويَّة الجُدُدا

أمـــا قول أبي زيد لإبراهيم : مدحت عروقا للندى مصت الثرى حديثا ، فإنما عـــنى أن إبراهيم وأخاه محمدا إنما تَطعَّما بالعيش ، ودخلا فى النعمة ، وخرجا من حـــدّ السُّوق إلى حد الملوك حديثا ، وذلك بهشام بن عبد الملك ، لأنهما كانا خاليه فإنمـــا وَلاّهمـــا عن خمول . وقوله : فلم تهمم بأن تتزعزعا ، فإنما هذا مثل ، يقال : فلان يهتز للندى ، ويرتاح لفعل الخير ، كما قال مُتَمِّم بن نُوَيرة :

تراه كنصلِ السيف يهتز للنـــدى إذا لم تجدعند امرىء السُّوءِ مَطْمَعا

وتأويل ذلك أنه يتحرّك تحرك سرور لفعل الخير . وأنشدنى التوّزى لأبى رباط يقول لابنـــــه :

رأيت رباطـًا حين تمَّ شـــبابـــــه وولّى شبابى ليس فى بـــــــرّه عَتْبُ
إذا كان أولادُ الرجـــــال مرارةً فأنت الحَلال الحلو والبـــارد العذب
لنا جانب منـــه أنيقٌ وجــــــانب شديد على الأعداء مركبـــه صعب
وتأخذه عند المــــــكارم هِزَّةٌ كما اهتزّ تحت البارح الغُصُن الرطْبُ

وقولـــه : نقائذ بؤس ، واحدها نَقيذة ، وتأويله أنهم أُنقذوا من بؤس ، يقال للرجل والمرأة ذلك على لفظ واحد ، تقول : هذا نقيذة بؤس ، تقع الهاء للمبالغة . وقوله : وحلبت الأيام والدهر أضرعـــا ، فإنه مَثَل ، يقال للرجل المجرَّب للأمور : فـــلان قد حلب الدهر أشطره ، أى قد قاسى الشدة والرخاء ، وتصرف فى الفقر والغـــنى . وقولـــــه : سقاها ذوو الأرحام سجلا على الظما ، فالسجل فى الأصل الدلـــو، وإنمـــا ضربه مثلا لما فاض عليها من ندى أقاربها ، يقال للدلو وهى مؤنثة سَجْل وذَنوب . وقوله : وقد كربت أعناقها أن تقطعا ، يقول سقيت هذا السجل وقـــد دنت أعناقها من أن تقَطع عطشـــا . وكرب فى معنى المقاربة ، يقال : كاد

يفعـــل ذلك ، وكرب يفعل ذلك ، أى دنا من ذلك . وقوله : أن تضلّعا ، معنـــاه أن تمتلىء ، وأصـــله أن الطعام والشراب يبلغان الأضلاع فيكظانها ، كذلك قال الأصـــمعى فى قولهم : أكل حتى تضلّع . وأما قوله : يقرون ضيفهم الملوية الجددا، فإنما أراد السياط ، وجمع جديد جُدد .

الدنيـــا

أمـــر مصـــعب بـــن الزبير رجلا من بنى أسد خُزَيمة بقتل مُرّة بن مَحْـــكان السعدىّ ، فقال مرة فى ذلك :

بنى أســـــد إنْ تَقْتُلونى تُحَارِبُوا   تَميمًا إذا الحربُ العوانُ اشْمَعَلَّتِ
ولستُ وإن كـــــانت إلىّ حبيبةً   بباكٍ على الدنيـــا إذا مـــا تولّتِ

قولـــه : إذا الحرب العوان ، فهى التى تكون بعد حرب قد كانت قبلها ، وكذلك أصل العوان فى المرأة إنما هى التى قد تزوجت ثم عاودت فخرجت عن حد الـــبكــــر . وقول الله عز وجل فى كتـــــابه العزيز : ﴿ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ هو تمـــام الـــــكلام ، ثم استأنف فقال : ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ، والفارض ههنا المُسِنَّة ، والـــبكر : الصغيرة . وقوله : اشْمَعَلّت، إنما هو ثارت فأسرعت ، وقوله : ولست بـــباك على الدنيا وإن كانت إلىّ حبيبة . ولولا هـــذا التقدير لم يجز أن يضمر قبل الذكر ، ومثله :

إنْ تَلْقَ يوما على عِلاّته هَرِمـــا   تلْقَ السماحة منه والندى خُلُقـــا

علل

يروى عن الأصمعى أنه قال : هجم علىّ شهر رمضان ، وأنا بمكة ، فخرجت إلى الطـــائف لأصوم بها ، هربـــًا من حرّ مكة ، فلقينى أعرابىٌّ ، فقلت له : « أين تـــريد ؟ » . فقـــال : « أريد هذا البلد المبارك ، لأصوم هذا الشهر المبارك فيه » . فقلت له : « أمَا تخاف الحرَّ ؟ » . فقال : « من الحرِّ أفرُّ » .

هذا الكـــلام نظير كلام الربيع بن خُثَيم . فإن رجلا قال له ، وقد صلّى ليلة حـــتى أصـــبح : « أتعـــبت نفسك ! » ، فقال : « راحتَها أطلبُ . إنَّ أفْرَهَ العبيد أكيسُهم » .

ونظـــير هذا الكلام قول رَوح بن حاتم بن قَبِيصة بن المُهلّب ، ونظر إليه رجل واقفا بباب المنصور فى الشمس ، فقال : « قد طال وقوفك فى الشمس ؟ » . فقال روح : « ليطول وقوفى فى الظل » .

ومثله من الشعر قوله [1] :

تقول سليمى لو أقمتَ بأرضنـــــا ... ولم تَدْرِ أنى للمُقـــــام أُطـــوِّفُ

وقال آخـــــر :

سأطلب بُعْدَ الدار منكم لتَقربـــوا ... وتسكُب عيناى الدموع لتَجمُدَا

وهذا معنى كثير حسن جميل .

---

(1) قائله عروة بن الورد العبسى .

أمثال

من أمثال العرب : « لم يذهب من مالك ما وعظك » . يقول : إذا ذهب من مالك شيء فحَذرك أن يحلّ بك مثله ، فتأديبه إياك عوِض من ذهابه .

ومــن أمثالهم : « رُبَّ عجلة تَهب رَيثا » . وتأويله أن الرجل يعمل العمل فلا يُحكمــه للاســتعجال بــه ، فيحتاج إلى أن يعود فينقضه ثم يستأنف . والريث : الإبطاء، وراث عليه أمره : إذا تأخر .

ومــن أمــثال العرب : « عَشِّ ولاتَغترّ » . وأصل ذلك أن يمرّ صاحب الإبل بالأرض المُكلئة فيقول : أدع أن أعشّى إبلى منها حتى أرِد على أخرى ، ولا يدرى ما الذى يرد عليه .

وقريب منــه قولهم : « أنْ تَرِد الماءَ بماءٍ أكْيَس » . وتأويله أن يمر الرجل بالماء فلا يحمل منه اتّكالا على ماء آخر يصير إليه ، فيقال له : أنْ تحمل معك ماء أحْزم لك ، فإن أصبت ماء آخر لم يضرك ، فإن لم تحمل ، فخففت من الماء عَطبت .

ومــن أمثالهم : « قد أحْزِم لو أعْزِم » ، يقول : أعرف وجه الحزم فإن عزمت فأمضيت الرأى فأنا حازم ، وإن تركت الصواب وأنا أراه وضيّعت العزم لم ينفعنى حزمى . فالذى يُحْمد إمضاء ما تبين رشده ، فأما الإقــدام على الغَرَر ، وركوب

الأمر على الخطر ، فليس بمحمود عند ذوى الألباب ؛ وقد يتحسن بمثله الفُتّاك ، كما قال [1] :

عليكم بدَارى فاهْدِموها فإنها	تُراثُ كريمٍ لا يخاف العَواقبَا
إذا هَمَّ أَلْقَى بين عينيه عزمه	وأعرضَ عن ذكرِ العواقب جانبا
ولم يَسْتشر فى رأيه غير نفسه	ولم يَرْضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا

فهذا شأن الفُتاك . وقال آخر :

غلامٌ إذا ما هَمَّ بالفتكِ لم يُبَلْ	ألامَتْ قليلا أم كثيرا عواذِلُهْ

وقال آخر :

وما العجزُ إلا أن تشاورَ عاجزا	وما الحزم إلا أن تَهُمَّ فَتَفْعلا

وأما قولُ على بن أبى طالب رضى الله عنه : « من أَكْثَرَ الفكرة فى العواقب لم يَشْجُع » . فتأويله أنه من فكّر فى ظَفَرِ قِرْنه به ، وعُلُوّه عليه ، لم يُقدِم. وإنما كان الحزم عند على رضى الله عنه أن يَحَظُر أمر الدين ثم لا يفكر فى الموت. وقد قيل له : « أتقتل أهل الشام بالغداة ، وتظهر بالعشى فى إزار ورداء ؟ » . فقال : « أبالموت أُخوَّف ؟ والله ما أبالى أسقطتُ على الموت أم سقط الموت علىَّ ! » وقال للحسن ابنه : « لا تبدأ بدعاء إلى مبارزة ، فإنْ دُعِيت إليها فأجِبْ، فإنّ طالبها باغٍ ، والباغى مصروع » .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يلتفّ فى كسائه ، وينام فى ناحية المسجد . فلما وُرِد بالمَرْزُبان عليه ، جعلوا يسألون عنه ، فيقال : « مر ههنا آنفا » . فيَصْغر فى قلب المرزبان ، إذ رآه كبعض السُّوَق حتى انتهى إليه ، وهو

---

(1)

نائم فى ناحية المسجد . فقال المرزبان : « هذا والله المُلْك الهنيء » . يقول : لايحتاج إلى أحــراس ولاعُدَد . فلما جلس عمر امتلأ قلب العِلْج [1] منه هيبة لما رأى عنده من الجد والاجتهاد ، وأُلبِس من هيبة التقوى .

التقوى

قــال الكَلْبى : قال لى خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كــُرْز القَسْرَى : « مــا تَعُــدُّون السُّؤدد ؟ » فقلت : « أما فى الجاهلية فالرياسة ، وأما فى الإسلام فالولاية . وخيرٌ من ذا وذاك التقوى » . فقال لى : « صدقت . كان أبى يقول : لم يُدرك الأولُ الشرفَ إلا بالفعل ، ولا يدركه الآخرِ إلا بما أدرك بــــه الأول » . فقــلت : « صــدق أبــوك . ساد الأحنف بحلْمه ، وساد مالك بن مِسْمَع بمحبة العشــيرة له ، وساد قُتَيبة بدهائه ، وساد المهلب بجميع هذه الخلال » . فقال لى : « صــدقت . كان أبى يقول : خير الناس للناس خيرهم لنفسه ، وذلك أنه إذا كان كذلــك اتّقى على نفسه من السَّرَق لئلا يقُطَع ، ومن القتل لئلا يُقاد ، ومن الزنا لئلا يُحَدّ ، فسَلِم الناس منه باتقائه على نفسه » .

وكان عبد الله بن يزيد أبو خالد من عقلاء الرجال . قال له عبد الملك يوما : « مــا مــالُك ؟ » فقال : « شيئان لا عَيْلَة علىّ معهما : الرضا عن الله والغنى عن الـــناس » . فلما نهض من بين يديه ، قيل له : « هلاّ خبّرته بمقدار مالك ! » فقال : « لم يَعْدُ أن يكون قليلا فيَحْقِرنى ، أو كثيرا فيحسدنى » .

[1] العلج : الرجل من كفار العجم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَرّه أن يكون أعز الناس فليَتَّقِ الله ، ومـــن سرّه أن يكون أغنى الناس فليـــكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ، ومن سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه : « من سرَّه الغنى بلا ملل ، والعزَّ بلا ســلطان ، والكــثرة بلا عشيرة ، فليخرج من ذلّ معصية الله إلى عز طاعته ؛ فإنه واجدٌ ذلك كله » .

وخطــب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم . فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال : « أيها الناس ، إن لكم معــالم فانتهوا إلى معالمــكم ، وإن لــــكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ،فإن العبد بين مخافتين : أجلٍ قد مَضَى لا يدرى ما الله فاعلٌ فيه ، وأجلٍ باقٍ لا يدرى ما الله قاضٍ فيه . فلْيَأخُذ العبد من نفسه لنفسه، ومـــن دنيـــاه لآخرته ، ومن الشَّبيبة قبل الكبَر ، ومن الحياة قبل الممات . فوالذى نفسُ محمد بيـــده ، ما بعدَ الموتِ من مستعتَب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النـــــار » .

وقـــال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرنى ربى بتسع : الإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الغضب ، والرضا والقَصْد فى الفقر والغنى ، وأن أعفو عمـــن ظلمنى ، وأصِل من قطعنى ، وأعطى من حَرَمنى ، وأن يكون نطقى ذكرا ، وصمتى فـــكرا ، ونظرى عِبْرة » .

وكان مالك بن دينار يقول : « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » .
وكان يقول : « ما أشدَّ فِطام الـــكبير » .

وقيل لعمر بن عبد العزيز: « أى الجهاد أفضـــل ؟ » فقال: « جهادُك هواك » .

الصديق عند الحاجة

الصديق عند الحاجة

قال رجل :

لَحَى اللهُ أكبــانا زِنــادا وشرَّنا — وأَيْسَرنا عن عِرْضِ والده ذَبّــا

رأيتُك لمــّا نلْت مالا وَمَسَّنــا — زمانٌ تَرى فى حَدِّ أنيابِهِ شَغْبا

جعلتَ لنا ذَنبـا لتمنعَ نائــلا — فأَمسِكْ ولا تجعل غِناك لنا ذنبا

قولــه : أكبانا زنادا ، الزناد التى تُقدَح بها النار ، ويقال أورى القادح ، إذا خرجت لــه النار ، وأكبى ، إذا أخفق منها ، هذا أصله ، يُضرَب للرجل الذى ينبعث الخير على يديه ، ويضرب الإكباءُ للذى يمتنع الخير على يديه .

وقال عبد الله بن معاوية :

رأيتُ فُضَيلا كان شيئــا مُلَفَّفــا — فكَشَّفَهُ التمحيصُ حتى بَدا لِيَــا

أأنتَ أخى مالم تــكن لِىَ حاجة ؟ — فإنْ عرضتْ أيقنتُ أنْ لا أخاليا

فلا زاد ما بينى وبينك ، بعد مــا — بَلَوتُك فى الحاجات ، إلاَّ تَماديا

فلستُ براءٍ عيبَ ذى الود كلــَّه — ولا بعضَ مافيه إذا كنتُ راضيا

فعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كَليــلةٌ — ولكنَّ عينَ السُّخطِ تُبدى المَساويا

كلانا غنيٌّ عن أخيــه حياتَــه — ونحن إذا متْنا أشدُّ تغانيــــــا

قوله : كان شيئــا ملففــا ، يقول : كان أمرا مُغطًّى .

وقــال على بن أبي طالب رضى الله عنه : « ثلاثة لا يُعْرَفون إلا فى ثلاث : لا يعــرف الشجاع إلا فى الحرب ، ولا الحليم إلا عند الغضب ، ولا الصديق إلا عند الحاجة » .

علي وطلحة

حدثنى التَّوَّزِىُّ قال : حدثنى محمد بن عَبّاد بن حبيب بن المهُلّب ، أحسبه عن أبيـــه قال : لما انقضى يومُ الجمل ، خرج على بن أبى طالب رضى الله عنه فى ليلة ذلـــك اليوم ، ومعه قَنْبَر ، وفى يده مشعلة من نار يتصفّحُ القتلى ، حتى وقف على رجـــل . قال التَّوَّزِىُّ ، فقلت : « أهو طلحة ؟ » قال : « نعم » . فلما وقف عليه قال : « أَعْزِزْ علىّ أبا محمد أن أراك مُعفَّرا تحت نجوم السماء ، وفى بطون الأودية . شفيتُ نفسى ، وقتلت مَعْشرى ، إلى الله أشكو عُجَرى وبُجَرى » .

قوله : معفّرا ، أى مُلصَق الوجه بالتراب، ويقال للتراب : العَفَر ، والعَفْر . وقوله : إلى الله أشكو عُجَرى وبُجَرى ، يقول : ما أُسِرُّ من أمرى . قال الأصمعى: وهو قول سائر فى أمثال العرب : لقى فلان فلانــا فبثّه عُجَره وبُجَره .

كفى بالسلامة داء

قال النَّمِر بن تَوْلَب :

تداركَ ما قبـــلَ الشبابِ وبعدَه	حوادثُ أيــــامٍ تَمُرُّ وأَغْفُلُ
يَسُرُّ الفتى طولُ السلامة والبَقــا	فكيف يَرى طولَ السلامة يفعل ؟
يردُّ الفتى بعــــد اعتدالٍ وصحةٍ	يَنوءُ إذا رام القيــــام ويُحْمَل

قصر البقاء ضرورة ، وللشاعر إذا اضطر أنْ يقصر الممدود . وليس له أن يمدّ المقصـــور ، وذلك أن الممدود قبل آخره ألف زائدة ، فإذا احتاج حذفها لأنها ألف زائدة ، فإذا حذفها رد الشيء إلى أصله . فلو مدّ المقصور لـــكان زائدا فى الشيء

ما ليس منه . ومثل هذا كثير فى الشعر جدا . وقوله : ينوء إذا رام القيام ، يقول : ينهض فى تثاقل ، قال الله عز وجل : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ ، والمعنى أن العصبة تنوء بالمفاتيح .

ويُرْوَى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كَفَى بالسلامة داء » .

وقال حُمَيد بن ثَوْر الهلالى:

أرَى بصرى قد رابنى بعد صحـــة ... وَحَسْبُك داءً أن تَصِحّ وتَسْلمـــا
ولا يلبثُ العَصْران : يومٌ وَليـــلةٌ ... إذا طَلبا أنْ يُدْرِكا ما تَيَمَّمـــا

وقال أبو حَيَّةَ النُّمَـــيْرى :

ألا حَيٍّ من أجلِ الحبيب المغانيـــا ... لَبِسْنَ البلى مما لبسن اللياليـــا
إذا ماتَقاضَى المرءَ يـــومٌ وليلةٌ ... تقاضاه شيءٌ لا يَمَلُّ التقاضيـــا

وقال بعض شعراء الجاهلية :

كانت قناتى لا تلينُ لغامـــــزٍ ... فألانَها الإصباحُ والإمســـاءُ
ودعوتُ ربى فى السلامةِ جاهدا ... ليُصِحَّنى فإذا الســـلامةُ داء

وقال عَنترة بن شداد :

فما أوْهَى مِراسُ الحـــرب رُكْنى ... ولكن ما تقادم من زمانـــــى

ومـــن أمثال العرب إذا طال عمر الرجل أن يقولوا : « لقد أكل عليه الدهر وشرب » ، إنما يريدون أنه أكل هو وشرب دهرا طويلا

بكاء الأبناء

قال جَرير :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم ... كيف العزاءُ وقد فارقتُ أشبالى ؟
هذا سوادة يَجْلُو مُقْلَتَىْ لَحِمٍ ... باز يُصَرْصِرُ فوقَ المرْقَبِ العالى
فارقته حين غَضَّ الدهرُ من بَصرِى ... وحين صرتُ كَعَظْم الرِّمَّةِ البالى

قوله : يجلو مقلتى لحم ، شبه مقلته بمقلتى البازى . ويقال : طائر لحم ، من هذا ، وقوله : يصرصر ، يعنى يصوت .

ومثل بيت جرير الأخير قول أبي الشَّغْب يرثى ابنه شَغْبا :

قد كان شغْبٌ لو ان الله عَمَّرَهُ ... عزًّا تُزاد به فى عزها مُضَرُ
ليتَ الجبال تداعتْ قبلَ مَصْرَعه ... دَ كًّا فلم يبق من أحجارِها حَجَر
فارقت شغبا وقد قَوِّستُ من كِبرٍ ... بِئْسَ الحليفانِ طولُ الحزنِ والكِبَرُ

اللذة الباقية

كان يقال : « إذا رغبت فى المكارم فاجتنب المحارم » .
وكان يقال : « أنعم الناس عيشا من عاش غيره فى عيشه » .

وانتبه معاوية من رَقْدة له ، فأنبه عمرو بن العاص . فقال له عمرو : « ما بقى من لذتك يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « عَيْنٌ خرارة فى أرض خوّارة ، وعين ساهرة لعين نائمة ، فما بقى من لذتك يا أبا عبد الله ؟ » قال : « أنْ أبيت مُعَرِّسا بعقيلة من عقائل العرب » . ثم نبها وردان ، فقال له معاوية : « ما بقى من لذتك ؟ » ، فقال : « الإفضال على الإخوان » . فقال له معاوية « اسكت فأنا أحق بها منك » . فقال له : « قد أمْكَنَك فافعل » .

ويروى أن عَمْرا لما سئل قال : « أن أستتم بناء مدينتى بمصر » ، وأن وَرْدان لما سئل قال : « أن ألقى كريما قادرا فى عَقِب إحسان كان منى إليه » ، وأن معاوية سئل عن الباقى من لذته فقال : « محادثة الرجال » .

ويروى عن عبد الملك أنه قال ، وقد سئل عن الباقى من لذته فقال : « محادثة الإخوان فى الليالى القُمْر على الكُثْبان العُفْر » .

وقال سليمان بن عبد الملك : « قد أكلنا الطيب ، ولبسنا اللَّيِّن ، وركبنا الفاره ، وامتطينا العَذْراء ، فلم يبق من لذتى إلا صديق أطرح بينى وبينه مؤنة التحفظ » .

وقال رجل لرجل من قريش : « إنى والله ما أمل الحديث » قال : « إنما يُمَل العتيق ! » .

وقال المهلب بن أبى صفرة : « العيش كله فى الجليس الممتع » .

وقال يزيد بن المهلب : « ما يسرنى أنى كُفيت أمر الدنيا كلّه » . قيـــل له : « ولِمَ أيها الأمير ؟ » قال : « أكره عادة العجز » .

تواضع وبر وشجاعة

وهـــمّ السِّراج فى مجلس عمر بن عبد العزيز ليلة بأن يخمد ، فوثب إليه رجاء ابن حَيْوَة ليصلحه . فأقسم عليه عمر فجلس فأصلحه . فقال له رجـــاء : « أتقوم يـــا أمير المؤمنين ؟ » قال : « قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجَعْت وأنا عمر ابن عبد العزيز » .

وقيـــل لعـــلى بن الحسين رضى الله تعالى عنهما : « إنك من أبر الناس بأمك ولسنا نراك تأكل مع أمك فى صَحْفة ؟ » فقال : « أخاف أن تسبق يدى إلى ما قد سبقت عينها إليه ، فأكون قد عَقَقْتها » .

وســـئل المهلب : « من أشجع الناس ؟ » فقـــــال : « عَبّاد بن حُصَين ، وعمـــر بن عبيد الله بن مَعْـــمر ، والمغيرة بن المهُـــلّب » . فقيل له : « فأين ابن الـــزُّبير ، وابن خازم ، وعُمَير بن الحباب ؟ » فقال : « إنما سئلت عن الإنس ولم أسأل عن الجِنّ ! » .

عظات

قالت عائشة رضى الله عنها : « من أرضى الله بإسخاط الناس ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ؛ ومن أرضى الناس بإسخاط الله وَكَله الله إلى الناس ؛ ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته » .

ويُروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن هذا الدين متين فَأَوْغِلْ فيه برفق ، ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادة ربك . فإنّ المُنْبَتَّ لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى » . المتين : الشديد ، قال الله عز وجل : ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ إنّ كَيدِى متين ﴾ . فاوغل فيه برفق : يقول ادخل فيه . والمُنْبَتّ : اشتقاقه من الانقطاع ، يقال : انبتّ فلان من فلان ، أى انقطع منه .

وحُدِّثت أنّ ابن السَّمّاك كان يقول : « إذا فعلتَ الحسنة فافرح بها واستَقْلِلْها، فإنك إذا استقللتها زِدْت عليها ، وإذا فرحت بها عُدْتَ إليها » .

ويروى أن يزيد بن عمر دخل على المنصور يوما، فقال المنصور : « حدِّثنا » فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة . فأذيقوا الناس حَلاوة عَدْلها ، وجَنِّبوهم مرارة جَوْرها . فوالله يا أمير المؤمنين لقد مَحَضْتُ لك النصيحة » . ثم نهض فنهض معه سبعمئة من قيس . فأتأرَه المنصور بصَره ، ثم قال : « لا يَعزُّ مُلْكٌ يكون فيه مثل هذا ! » . قوله : مَحَضتُ لك النصيحة ، يقول أخلصت لك ، وأصل هذا من اللبن ، والمحض منه الخالص الذى لا يشوبه شىء . وأتأره بصره : أتبعه بصره وحدّ إليه النظر .

ويـــروى عن الأحنف بن قيس أنه قال : « ما شاتمت رجلا منذ كنت رجلا ، ولاَ زَحَمَتْ ركبتاى ركبتيه . وإذا لم أصل مُجْتدىً حتى يَنتحَ جبينهُ عَرَقا كما يَنْتِح الحَميـــت ، فو الله ما وصلتُه » . قوله : مجتدىً ، يريد الذى يأتيه يطلب فضله ، وأصل ذلك مأخوذ من الجَدَى - مقصور - وهو المطر العـــام النافع .

وقوله : حتى ينتح جبينه عرقا ، فهو مثل الرَّشْح . وقوله : الحميت ،فالحميت والـــزِّق اسمان له ، وإذا زُفِّت أو كان مَرْبوبا فهو الوَطْب ، وإذا لم يكن مربوبا ولا مُزَفَّتا فهو سِقاء ونِحْى ، والوطب يكون للبن والسمن ، والسقاء يكون للبن والماء.

رثاء الابناء والاخوة

قال رجل يذكر ابنه :

ألاَ يا سُمَيَةُ شُبِّى الوَقُـــــودَا	لعلّ الليـــــالى تُؤدِّى يزيـــدا
فنَفْسى فِداؤُكَ من غـــــــائب	إذا ما المســـارحُ كانت جَليـــدا
كفــــانى الذى كنت أسعى لـــه	فصار أبـــا لِى وصرت الوليدا

قولـــه : إذا ما المسارح كانت جليدا ، فالمسارح : الطرق يَسْرحون فيها ، واحدها مِسْرح ، والجليد : يقع من السماء ، وهو ندًى فيـــه جمود ، فتبيض لـــه الأرض ، وهو دون الثلج ، يقال له الجليد والضَّريب والسّقيط والصَّقِيع .

وقالت أخت طَرَفة بن العَبْد :

عدَدْنا له ستًّا وعشريـــــن حجَّةً	فلما تَوفاها استوى سَيِّدا ضَخْما
فُجِعْنا به لما رَجَوْنا إيابَـــــه	على خيرِ حال لا وليدا ولا قَحْما

الوليد : الصغير . والقحم : الرجل المتناهى سنا .

وقال إبراهيم بن عبد الله يرثى أخـــاه محمدا :

أبا المُنازلِ ياعُبْرَ الفَـــوارسِ مَنْ ... يُفجَعْ بمثلك فى الدنيا فقد فُجعـا

الله يعــلم أنى لـــــو خَشيتُمُ ... أوآنسَ القلبُ من خوفٍ لهم فزعا

لم يقتلوك ، ولم أُسْلِمْ أخى لهــمُ ... حتى نعيشَ جميعا أو نموت معـا

قوله : يا عبر الفوارس ، يصفه بالقوة منهم وعليهم ، كما يقال : ناقة عبر الهواجـــر وعـــبر السُّرَى . وقوله : أو لآنس القلب من خوف لهم فزعا ، يقول : أحـــس ، وأصل الإيناس فى العين ، يقال : آنست شخصا ، أى أبصرته من بُعد ، وفى كتاب الله عز وجل : « آنسَ من جانبِ الطُّورِ نارا » .

وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرَة :

وقالوا : أتبكى كــــلَّ قبر رأيته ... لمَيْتٍ ثَوَى بين اللّوَى فالدَّكادكِ

فقلتُ لهم إن الأسى يبعث البُكا ... ذَرُونِى فهذا كلُّه قبرُ مــــالك

قومـــه

قال على بن عبد الله بن العباس رحمه الله :

أبِى العباسُ قـــــرْمُ بنِى قصَىٍّ ... وأخـــوالى المـــلوك بنو وَليعَـةْ

همو منعوا ذمارِى يـــوم جاءت ... كتائبُ مُسْرِفٍ وبنـــو اللَّكيعــةْ

أراد بِىَ التى لا عزَّ فيهـــــا ... فحالتْ دونَهُ أيـــد منيعـــــةْ

قولـــه : كتائب مسرف ، يعنى مُسلم بن عُقْبه المُرّى صاحبَ الحَرّة ، وأهل الحجـــاز يســـمونه مســـرفا ، وكان أراد أهل المدينة جميعا على أن يبايعوا يزيد بن معاويـــة على أن كل واحد منهم عبدٌ قِنٌّ له إلا علىّ بن الحسين . فقال حُصين بن نُمَـــير السّكُونىّ من كندة : « ولا يبايع ابن أختنا علىّ بن عبد الله إلاّ على ما يبايع عليه علىّ بن الحسين، على أنه ابن عم أمير المؤمنين ، وإلا فالحرب بيننا » .

فأعفى علىّ بن عبد الله وقبِل منه ما أراد ، فقال هـــذا الشعر لذلك . وقوله : بنو اللكيعة ، فهى اللئيمة .

وقال هشام أخو ذى الرمـــــة :

تَعَزَّيتُ عن أوْفى بغَيْلانَ بعـــــــده	عَزاءً وجَفْنُ العين بالمـــــاء مُترَعُ
ولم تُنسنِى أوفى المُصيباتُ بعـــــده	ولكنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقرح أوجع

غيـــلان : هو ذو الرمة ، وكان هشام من عقلاء الرجال ، حدثنى العباس ابـــن الفـــرج فى إسناد ذكـــره يعزوه إلى رجل أراد سفرا فقال : قال لى هشام بن عقبة : « إنّ لـــكل رُفْقة كلبا يَشرَكُهم فى فَضْلة الزاد وَيهرُّ دونَهم ، فإنْ قدرتَ ألا تـــــكون كلب الرفقة فافعل . وإياك وتأخيرَ الصـــلاة عن وقتها ، فأنتَ مُصَلّيها لامحالةَ فصلها وهى تُقْبَل منك » .

جرير وقيس

حدثنى عمارة قال : مرض جرير مرضة شديدة فعادته قيس ، فقال :

نفسى الفداءُ لقـــوم زَيّنوا حَسَبى	وإنْ مرضتُ فهم أهلى وعُوّادى
لو خفتُ لَيْثـــا أَباشِبْلَيْنِ ذا لِبَـــد	ما أسلمونى لليثِ الغابة العـــادى
إنْ تَجْرِ طيرٌ بأمرٍ فيـــه عافيـــــةٌ	أو بالرحيـــل فقد أحسنتمُ زادى

أبناء الشعراء

قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، وهو يُهاجي عبد الرحمن بن الحكم ابن أبي العاص :

فأما قولُكَ الخلفاءُ منا ... فهم منعوا وَرِيدَكَ من وِداجِ [1]
ولولاهم لكنتَ كحوتِ بحرٍ ... هَوَى فى مظلم الغَمَراتِ داجِى [2]
وكنتَ أذلَّ مِنْ وَتِدٍ بقاعٍ ... يُشجِّجُ رأسَه بالفِهْرِ واجِى [3]

فكتب معاوية إلى مروان أن يؤدبهما ، وكانا قد تقاذفا . فضرب عبد الرحمن ابن حسان ثمانين وضرب أخاه عشرين . فقيل لعبد الرحمن بن حسان : « قد أمكنك فى مروان ما تريد ، فأَشِدْ بذكره ، وارفعه إلى معاوية » . فقال : « إذن والله لا أفعل ، وقد حَدَّنى كما تُحَدُّ الرجال الأحرار ، وجعل أخاه كنصف عَبد » فأوجعه بهذا القول .

ويروى أن عبد الرحمن بن حسّان لسعه زُنبور فجاء أباه يبكى ، فقال له : « مالك ؟ » فقال : « لسعنى طائر كأنه ملتف فى بُرْدَىْ حِبَرَة [4] » . فقال : « قلتَ والله الشعر » .

---

(1) الوداج : قطع الودج ، ويريد هنا قطع الوريد .
(2) الداجى : المظلم .
(3) الفهر : الحجر . وواجى : أصله واجىء بالهمز ، وهو الضارب الداقّ .
(4) الحبرة : نوع من ثياب اليمن ذو حمرة يضرب إلى السواد .

ويروى أن معلمه عاقب الصبيان على ذنب وأراده بالعقوبة ، فقال له :

الله يعلم أنّى كنتُ مُنتبذا ‍ ‍ ‍ ‍ في دار حَسّان أصطاد اليعَاسيبا [1]

وأعْــرَقُ قوم كانوا في الشعر آلُ حسّان ، فإنهم يَعْتدّون ستة في نَسَق ، كلهم شـــاعر ، وهم سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المُنْذر بن حَرام . وبعد هؤلاء في الوقت آلُ أبي حَفْصة ، فإنهم أهلُ بيت كلُّهم شاعر ، يتوارثونه كابرا عن كابر .

ويروى أن ابنـــــة لابن الرِّقاع وقف بباب أبيها قوم يسألون عنه . فقالت : « ما تريدون إليه ؟ » . فقالوا : « جئنا لنهاجيه » . فقالت وهي صبية :

تَجمَّعتمُ من كل أوْبٍ ووجهةٍ ‍ ‍ ‍ ‍ على واحدٍ لا زلتمُ قِرْنَ واحدِ [2]

فهذه بلغت بطبعها على صِغَرها مبلغ الأعشى في قلب هذا المعنى ، حيث يقول لهوْذَة بن عليّ :

يرى جمعَ ما دون الثلاثين قُصْرَةً ‍ ‍ ‍ ‍ ويَعْدو على جمع الثلاثين واحدا [3]

---

(1) المنتبذ : المتنحى . واليعاسب : جمع يعسوب ، وهو ذكر النحل .

(2) أوب : جهة : وقرن : كفء .

(3) قصــــرة : تقصــــــير .

قـــال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « علّموا أولادكم العــوم والرماية ، ومُرُوهم فَلْيَثِبوا على الخيل وثبا ، وَروُّوهم ما يَجمُل من الشعر » .

ويـــروى عن الشعبى أن عبد الله بن العباس قال : قال لى أبى : « يا بنى ، إنى أرى أمـــير المؤمنين قد اختصَّك دون من ترى من المهاجرين والأنصار. فاحفظ عنى ثلاثـــا : لا يُجرِّبنَّ عليك كذبا ، ولا تغتب عنده مسلما ، ولا تُفشيَنَّ له سرا » . فقـــلت لـــه : « يا أبَه ، كل واحدة منها خير من ألف » . فقال : « كل واحـــدة منها خير من عشرة آلاف » .

وحدثنى العباس بن الفرج قال : نُظِر إلى عمرو بن العاص على بغلة قد شَمط وجهُها هَرَما . فقيل له : « أتركب هذه وأنت على أكرم ناخرة بمصر ؟ » فقـــال : « لا ملل عندى لدابتى ما حملت رُجْلتى [1]، ولا لامرأتى ما أحسنت عشرتى ، ولا لصـــديقى مـــا حفظ سرى . إن الملل من كواذب الأخلاق » . قوله : على أكرم ناخـــرة ، يريد الخيل ، يقال للواحد ناخر ، وقيل : ناخرة يراد جماعة ، كما تقول رجل بَغّال وحَمّار والجماعة البغّالة والحَمّارة ، وكذلك تقول : أتتنى عصبة نبيلة ، وقبيلة شريفة ، والواحد نبيل وشريف .

وقـــــال عمرو لعائشة رحمها الله : « لَوددتُ أنكِ كنتِ قُتلتِ يوم الجمل » فقـــالت : « ولِـــم لا أبالك ؟ » فقال : « كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر التشنيع على علىّ » .

وحدثـــنى العباس بن الفرج الرِّياشى ، قال ابن عباس : دخلت على عمرو بن العاص وقد احتُضِر. فدخل عليه عبد الله بن عمرو فقال له : « يا عبد الله ، خذ

[1] الرجلة : السير على الأرجـــل .

ذلك الصندوق » . فقـــال : « لا حاجة لى فيه » . قال : « إنه مملوء مالا » . قـــــال : « لا حاجة لى به » . فقال عمرو : « ليته مملوء بعْرا » . فقلت : « يا أبا عبد الله ، إنك كنت تقول : أشتهى أن أرى عاقلا يموت حتى أسأله : كيف يَجِــد ؟، فكيــف تَجِدُك ؟ » . قال : « أجد السماء كأنها مُطبقة على الأرض وأنا بيــنهما ، وأرانى كأنمـا أتنفس من خَرْت إبرة » . ثم قال : « اللّهُمَّ خذ منى حتى ترضَــى » . ثم رفع يديه فقال : « اللهم أمرتَ فعَصَيْنا ، ونهيت فركبنا ، فلا برىءٌ فأعــتذر ، ولا قــوى فأنتصر ، ولكن لا إله إلا الله » (ثلاثا) ثم فاظ . قوله : من خَــرت إبــرة ، يعنى من ثقب إبرة . وقوله : فاظ ، أى مات ، يقال : فاظ وفاد وفَطَسَ وفاز وفَوَّز ، كل ذلك فى معنى الموت .

زياد بن أبيه والسلطان

حدثــنى مســعود بن بشر قال : قال زياد : « الإمْرَةُ تُذهب الحَفِيظة . وقد كانت من قوم إلىَّ هنات ، جعلتها تحتَ قدمى ، وَدبْرَ أُذُنى . فلو بلغنى أن أحدكم قــد أخذه السلّ من بغضى ما هتكتُ له سترا ، ولا كشفت له قناعا ، حتى يبدِىَ لى عن صفحته ، فإذا فعل لم أناظره » .

وسمــع زياد رجلا يسب الزمان ، فقال : « لو كان يدرى ما الزمان لضربت عنقه ! إن الزمان هو السلطان » .

وفى عهــد أَرْدَشِير : « وقد قال الأولون منا : عَدْل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان » .

وقال المُهَلّب بن أبي صُفرة لبنيه : « إذا وليتُم فَلِينوا للمحسن ، واشتدوا على المُريب ، فإن الناس للسلطان أَهْيَب منهم للقرآن » .

وقـــال عـــثمان بن عفان رضى الله عنه : « إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يزَع بالقـــرآن » . قولـــه : يزع ، أى يَكُفُّ . وقال الحسن مرة : « ما حاجة هؤلاء الســـلاطين إلى الشُـــرَط ؟ » . فلما ولى القضاءَ كثر عليه الناس ، فقال : « لابد للناس من وَزَعة » .

الحجـــاج

خطـــب الحَجّـــاج بن يوسف ذات يوم ، يومَ جمعة . فلما توسط كلامه سمع تكـــبيرا عاليـــا من ناحية السوق . فقطع خطبته التى كان فيها ثم قال : « يا أهْلَ العراقِ ، ويا أهل الشّقاق ، ويا أهل النفاق ، وسَيِّئى الأخلاق ، يا بَنِى اللّـــكيعة ، وعبيد العصا ، وأولاد الإماء . إنى لأسمع تكبيرا ما يراد الله به إنما يراد به الشيطان، وإن مَثَلى ومَثَلكم قول ابنَ برّاقة الهمدانى :

وكنتُ إذا قوم رَمَونى رميتهـــــم ... فهل أنا فى ذا يالَ هَمدان ظـــالمُ

متى تجمعِ القلب الذكىَّ وصارمـــا ... وأنفـــا حَمِيًّـــا تَجْتَنِبْك المظالم »

ثم نزل فصلى بهم .

قولـــه : بنو اللـــكيعة : يريد اللئيمة . وقوله : عبيد العصا ، يريد أنهم لا ينقادون إلا بالإذلال ، كما قال ابنُ مفرغ الحِمْيَرّى :

العبدُ يُقـــرَعُ بالعصـــــا ... والحُرُّ تَـــكْفِيـــهِ المـــلامةْ

وخطب الناس عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث بالمِرْبَد ، عند ظهور أمر الحجّاج عليه ، فقال : « أيها الناس ، إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذَنَب الوَزَغَة ، تضرب به يمينا وشمالا ، فلا تلبث أن تموت » . فسمعه رجل من بنى قُشَير بن كعب ، فقال : « قَبَحَ الله هذا ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس من عدوهم ويعِدهم الغرور » .

وروت الرواة أن الحجّاج لما أخذ رأس ابن الأشعث وَجَّه به إلى عبد الملك ابن مروان مع عِرار بن عمرو بن شَأْس الأسدىّ ، وكان أسود دميما . فلما ورد به عليه جعل عبد الملك لا يسأل عن شىء من أمر الوقيعة إلا أنبأه به عِرار ، فى أَصَحِّ لَفْظ ، وأَشْبَع قول ، وأجْزإ اختصار . فشَفاه من الخبر ، وملأ أذنه صوابا ، وعبد الملك لا يعرفه ، وقد اقتحمته عينهُ حيث رآه . فقال عبد الملك متمثلا :

أرادتْ عِرارا بالهَوان ومَنْ يُرِد	لَعمْرِى عِرارا بالهَوان فقد ظَلَمْ
وإنّ عرارا إنْ يَكُنْ غيرَ واضح	فإنى أحِبُّ الجَوْن ذا المَنْكِب العَمَمْ

فَقال له عِرار : « أتعرفنى يا أمير المؤمنين ؟ » . قال : « لا » . قال : « فأنا والله عرار » . فزاده فى سروره ، وأضعف له الجائزة .

غـــزل

قال أعرابى :

شكوتُ فقالتْ : كلُّ هذا تَبرُّمـــا ... بحُبىِّ ؟ أراح الله قلبَك مـــن حبى

فلما كتمتُ الحبَّ قالت : لَشَدَّ ما ... صَبَرتَ وما هذا بفعل شَجِى القلب

وأدنو فتُقْصِينى ، فأَبْعُد طالبـــا ... رضاها فتَعْتَدُّ التباعد مـــن ذنبى

فشكواى تؤذيها، وصبرى يَسُوءُها ... وتجزع من بعْدى ، وتنفر من قربى

فياقومِ هَلْ من حيلةٍ تعرفونهـــا ؟ ... أشيروا بها،واستوجبوا الشكر من ربى

وقال قيس بن مُعاذ ، أحد بنى عُقَيل بن كعب ، وهو المجنون ؛ وحدثنى عبد الصمد بن المعذل قال : سمعت الأصمعىّ يثبّته ، ويقول : لم يـــكن مجنونا إنما كانت به لُوثَة أبى حَيَّة :

ولم أرَ ليلى بعد موقفِ ساعـــــةٍ ... ببطن منى ترمى جِمـــار المحصَّبِ

ويبدى الحصى منها إذا قذفتْ بـــه ... من البُرْدِ أطرافَ البَنان المخضَّب

فأصبحت من ليلى الغداةَ كنـــاظرٍ ... مع الصبح فى أعقاب نجمٍ مغرِّب

ألا إنمـــا غادرتِ يا أمَّ مــــالكٍ ... صَدى أينما تذهبْ به الريح يَذْهَبِ

هذا البيت من أعجب ما قيل فى النحافة .

ومما يستطرف فى هذا الباب قول عمر بن أبى ربيعة :

رأتْ رجلا أمّا إذا الشمس عارضت ... فيَضْحَى وأمـــا بالعشى فيَخْصَرُ

أخا سفرٍ ، جوابَ أرضٍ، تقاذفتْ ... به فَلَوَاتٌ ، فهـــو أشعثُ أغبر

قليلا على ظهـــر المطيةِ ظلـــهُ ... سوى ما نفى عنه الرداءُ المحبَّر

وفى هـــذا الـــباب أشياء كثيرة تأتى فى موضعها إن شاء الله تعالى ومن الإفراط فيه قوله :

فلـــو أنّ مــــا أبقيتِ منى مُعَلَّقٌ بعُود ثُمامٍ ما تأوَّد عودُهـــــا

وهذا متجاوز كقول القائل : « ويمنعها من أن تطير زمامها » .

وأحســـن الشـــعر مـــا قارب فيه القائل إذا شبَّه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقـــة ونـــبَّه بفطنـــته على ما يخفى عن غيره ، وساقه برَصْفٍ قوى ، واختصار قريب.

وقال قيس بن معــــاذ :

وأخرج من بين الجُلوس لعلَّنى أحدِّث عنك النفسَ فى السِّرِّ خاليا

وإنى لأَستَغْشِى وما بىَ نَعْسة لعلّ خيالا منك يلقى خياليـــــا

وفى هذا الشعر :

أشَوقا ولـــا تَمْضِ لى غيرُ ليلةٍ رُوَيْدَ الهوى حتى يَغِبَّ لياليـــــا

هذا من أجود الـــكلام وأوضحه معنى .

ويُستحسن لذى الرمّة قوله فى مثل هذا المعنى :

أحبُّ المكان القفر من أجل أننى بـــــه أتغنى باسمها غيرَ مُعْجَم

أنشدنى ابن عائشة لبعض القرشيين :

وقفوا ثلاثَ مِنًى بمنزل غبطـــــةٍ وهمُ على غَرَضٍ هنالك ماهـــمُ

متجاورين بغير دار إقامـــــــة لو قد أجَدَّ تَفَرُّقٌ لم يندمـــــوا

ولهنَّ بالبيت العتيــــــق لُبانَــةٌ و الركنُ يعرفهنّ لو يتكلّـــمُ

لو كان حيًّـــا قبلَهنّ ظعائنـــــا حيَّا الحطيمُ وجوهَهن وزمـــزمُ

وكأنه وقد صَدَرْنَ لَواغِبـــــا بَيْض بأفنية المقام مُرَكَّـــمُ

اللاغب : المعيى ، قال الله عز وجل : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ . والمركَّم : الذى بعضه على بعض ، والمرأة تشبه ببيضة النعامة كما تشبه بالدُّرة .

وروى بعـــض الرواة أن أبادَهْبَل الجُمَحِيَّ كان تقيا وكان جميلا . فقفل من الغزو ذات مرة ، فمر بدمشق . فدعته امرأة إلى أن يقرأ لها كتابا ، وقالت : « إن صـــاحبته فى هذا القصر، وهى تحب أن تسمع ما فيه ! » . فلما دخلت به ، برزت لـــه امرأة جميلة ، وقالت له : « إنما احتلت لك بالكتاب حتى أدخلتك ! » . فقال لها : « أما الحرام فلا سبيل إليه ! » قالت : « فلستَ تُراد حرامـــا ». فتزوجته .

وأقـــام عندها دهرا ، حتى نُعِى بالمدينة . ففى ذلك يقول ، وقد استأذنها ليُلِمَّ بأهله ثم يعود ، فجاء وقد اقتُسم ميراثه . فلما همَّ بالعود إليها ، نُعيت له . فهذا ما روى مـــن هذا الوجه . والذى كأنه إجماع الناس أنه لعبد الرحمن بن حسان ، وهو فى بنت معاوية :

صـــاحِ حيّا الإلهُ أهـــلا ودارا	عند أصـــــلِ القَناة من جَيْرونِ
عن يسارى إذا دخلت من البـــــا	ب وإنْ كنت خارجـــا فيَمينى
فبِتلك ارتُهِنْتُ بالشـــــأم حـــتى	ظَن أهلى مُرجَّـــــاتِ الظنـــون
وهى زهراء مثل لؤلؤة الغَـــــــ	ـــوْاصِ ميزَتْ من جَوْهر مكنون
وإذا ما نسبتُها لم تجـــــدهــــا	فى سَـــناء من المــــكارم دُون
ثم خاصرتُها إلى القبـــــة الخضْـــ	ـــــراء تمشى فى مَرمرٍ مَـــسْنون
تجعلُ المسك واليَلَنْجُوجَ والنَّـــدْ	دَ صِـــلاء لهـــــا على الكـــانون
قبةٌ من مَراجلٍ ضربتْهـــــــا	عند برد الشـــتاء فى قَيْـــــطونِ

المســـنون : المصـــبوب عـــلى استواء . والمراجل : ثياب من ثياب اليمن . والقيطـــون : البيت فى جوف بيت . ويروى أن يزيد بن معاوية قال لمعاوية : « أما سمعت قول عبد الرحمن بن حسان فى ابنتك ؟ » . قال : « وما الذى قال ؟ » قال: قـــال :

وهى زهـــراء مثـــل لؤلؤة الغـــ ـــواص ميزت من جوهر مكنون

قال معاوية : « صدق » فقال يزيد : وقال :

وإذا ما نسبتها لم تجـــــدهـــا فى ســـــناء من المـــكارم دون

قال معاوية : « صدق » فقال يزيد : إنه قال :

ثم خاصرتهـــا إلى القبـــة الخضـــ ـــراء تمشى فى مَرْمرَ مســـنون

قال معاوية : « كذب » .

الأرحـــام

أُنشِدت لرجل من بنى ضَبَّة بن أُدّ يقوله لبنى تميم بن مُرّ بن أُدّ :

أبنِى تميمٍ إننى أنا عَمُّـــكم لا تُحْرَمُنّ نصيحة الأعمـــامِ

إنى أرى سبب الفنـــاء وإنمـــا سببُ الفنـــاء قطيعةُ الأرحـــام

فتداركـــوا بأبى وأمى أنتمُ أرحامَـــكم برَواجح الأحـــلام

ويـــروى أنـــه لما أتى عبدَ الله بن الزبير خبرُ قتل مُصْعَب بن الزبير ، خطب الـــناس . فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أتانا خبر قتل المُصْعَب ، فسُرِرْنا به ، واكتأبـــنا له . فأما السرور فلما قُدِّر له من الشـــهادة ، وحيز له من الثواب .

وأمـــا الكـــآبة فلوعةٌ يجدها الحَميم عند فراق حميمه . وإنّا والله ما نموت حَبَجـــا كميتة آل أبي العاص ، إنما نموت والله قتلا بالرماح ، وقَعْصا تحت ظلال السيوف. فإن يهلك المصعب فإن فى آل الزبير منه خَلَفا » . قوله : حبجا : يقال حَبِج بطنُه ، إذا انتفخ ، وكذلك حَبِط بطنه . والمُقْعَص : المقتول . واللوعة : الحرقة يقال : لاع يلاع لوعة ، فهو لائع ، ويقال لاعٍ ، على القلب .

أقوال لزياد

حدثـــنى مسعود بن بشر قال : قال زياد لحاجبه : « يا عجلانُ إنى وليتك هذا الباب ، وعزلتك عن أربعة : عزلتك عن هذا المنادى إذا دعا للصـــلاة ، فلا سبيل لـــك عـــليه ؛ وعـــن طارق الليـــل ، فشَرٌّ ما جاء به ، ولو جاء بخير ما كنتُ من حاجـــته ؛ وعن رسول صاحب الثَّغر ، فإن إبطاء ساعة يُفسد تدبـــير سنة ؛ وعن هذا الطباخ إذا فرغ من طعامه ! » .

توقيعات

كُـــتب إلى جعفـــر بن يحيى : « إن صاحب الطريق قد اشتطّ فيما يطلب من الأموال » . فوقّع جعفر : « هذا رجل منقطع عن السلطان ، وبين ذُؤبان العرب ، بحيـــث العـــدد والعُدّة ، والقلوب القاسية ، والأنوف الحَمِيّة ، فَلْيُمدَد من المال بما يَستصـــلح بـــه مَـــنْ معه ، ليدفع به عدوّه ، فإن نفقات الحروب يُستظهَر لها ولا يستظهر عليها » .

وأكثر الناسُ شكيةَ عاملٍ ، فوقّع إليه فى قصتّهم : « يا هذا ، قد كثر شاكوك، وقلّ حامدوك . فإمّا عدلتَ وإما اعتزلت ! » .

وزعم الجاحظ قال : قال ثُمامة بن أشْرَس النُّمَيْرى : « ما رأيت رجلا أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون » .

وقـــال مُوَيس بن عمران : « ما رأيت رجلا أبلغ من يحيى بن خالد وأيوب بن جعفر » .

وقـــال جعفـــر بن يحيى لكتّابه : « إن قدرتم أن تكون كتبكم كلها توقيعات فافعلوا » .

وقـــال عليه الصلاة والسلام : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » . يقول : لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييعه ودَفْنه .

وقـــال عليه الصلاة والسلام : « اجتنبوا القعود على الطرقات إلا أن تَضْمنوا أربعا : ردّ السلام ، وغض الأبصار ، وإرشاد الضال ، وعَوْن الضعيف » .

وقالت هند بنت عُتْبة : « إنما النساء أغلال ، فلْيَختَر الرجل غلا ليده » .

وذكـــرت هـــند بنت المهلب بن أبى صفرة النساء ، فقالت : « مازُيِّنَّ بشىء كأدب بارع تحته لُبٌّ ظاهر » .

وقـــالت هـــند بنت المهلب بن أبي صفرة ، أيضا : « إذا رأيتم النِّعَم مُسْتَدِرَّة فبادروا بالشكر قبل حلول الزّوال » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « افْصِلوا بين حديثكم بالاستغفار » .

وقال عمر بن عبد العزيـــز رحمه الله : « قَيِّدوا النعم بالشكر ، وقيدوا العلم بالكتاب » .

وقـــــــال عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه : « العجب لمن يهلك والنجاة معه ! » . فقيل : « ما هي يا أمير المؤمنين ؟ » . قال : « الاستغفار » .

وفـــــــادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى فداءه من أسرى بدر فمـــن لم يكـــن له فداء أمره أن يعلم عشرة من المسلمين الكتابة . ففشت الكتابة بالمدينة .

وقـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال أمتى صالحا أمرها مالم تر الفيء مغنما ، والصدقة مغرمـــا » .

وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه : « يأتى على الناس زمان لا يُقرَّب فيه إلا المـــــاحل ، ولا يُظرَّف فيه إلا الفاجر ، ولا يُضعَّف فيه إلا المنصف ، يتخذون الفيء مغنما ، والصدقة مغرما ، وصلة الرحم مَنًّا ، والعبادة استطالة على الناس. فعند ذلك يكون سلطان النساء ومشاورة الإماء وإمارة الصبيان » .

ويقـــال : كان الحجاج إذا استغرب ضَحكا والى بين الاستغفار ، وكان إذا صـــعد المنبر تَلَفَّع بمطرفه ، ثم يتكلم رُوَيدا فلا يكاد يُسْمَع ثم يتزيد فى الكلام حتى يخـــرج يـــده من مطرفه ، ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من فى المسجد . وكان

يُطعـــم فى كل يوم على ألف مائدة ، على كل مائدة ثَريد وجَنْب من شواء وسمكة طرية . ويُطاف به فى مِحَفّة على تلك الموائد ليتفقد أمور الناس . وعلى كل مائدة عشرة، ثم يقول : « يا أهل الشام ، اكسروا الخبز لئلا يُعاد عليكم » . وكان لـــه ساقيان أحدهما يسقى الماء والعسل ، والآخر يسقى اللبن .

ويروى أن ليلى الأخيلية قدمت عليه فأنشدته :

إذا ورد الحجّاجُ أرضا مريضـــــةً ... تتبع أقصى دائهـــا فشَفـــاهـــا
شفاها من الداءِ العُقام الذى بهـــا ... غلامٌ إذا هزَّ القنـــــاة ثناهـــا

فقـــال لها : « لا تقولى : غلام ، قولى همام » . ثم قال لها : « أىّ نسائى أحبّ إليك أن أُنزلك عندها الليلة ؟ » . قالت : « ومن نساؤك أيها الأمير ؟ » . قال : « أمّ الجلاس بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفزاريّـــة، وهـــند بنت المهلّب بن أبى صفرة العَتَـــكية ». فقالت : « القيسيّة أحب إلىّ » . فلما كان الغد دخلت عليه فقال : « يا غلام أعطها خمسمئة » . فقـــــــالت : « أيها الأمير اجعلها أُدْما » . فقال قائل : « إنما أمر لك بشاء » . قالت : « الأمير أكـــرم مـــن ذلك » . فجعلها إبلا إناثـــا استحياء . وإنما كان أمر لها بشاء أولا . والأُدْم : البيض من الإبل ، وهى أكرمها .

الجـــــود

قال المُفضَّل بن المهلّب بن أبي صُفْرة :

هل الجـــود إلا أن نجـــود بأنفس	على كل ماضي الشّفْرَتَيْنِ قَضيبِ
وما خيرُ عيشٍ بعدَ قتــــلِ محمدٍ	وبعد يزيدَ و الحـَـــرون حبيبِ
ومَنْ هَرَّ أطرافَ القَنا خَشْيةَ الرَّدَى	فليس لمجدٍ صـــــالحٍ بكَسُوب
وما هي إلا رَقْدةٌ تُورث العُــــلى	لرَهْطِكَ ما حَنَّت رَوائـــــم نِيب

قوله : ومن هرّ أطراف القنا خشية الردى ، يقول : من كره . قال عنترة ابن شـــــداد :

حلفتُ لهم والخيلُ تَرْدى بنا معــا	نُفارِقُهم حتى يَهِرُّوا العَواليـــــا
عَوالىَ زُرْقا من رمـــــاحِ رُدَيْنَــةٍ	هريرَ الــكلابِ يَتَّقين الأفاعيــا

وقوله : الحرون ، فإن حبيب بن المهلب كان ربما انهزم عنه أصحابه فلا يَريم مكانه ، فكان يلقّب الحَرُون . والنيب : جمع ناب ، وهي المُسنة من الإبل .

عجوزان

نظر شيخ من الأعراب إلى امرأته تتصنع وهى عجوز ، فقال :

عجوزٌ تُرجِّى أن تكون فتيَّةً ... وقد لُحِب الجنبان واحْدَوْدَبَ الظهر
تَدُسّ إلى العطّار سلعةَ بيتِها ... وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهر

فقالت له امرأته :

ألم تر أن النّاب تُحْلَب عُلْبَةً ... ويُترَكُ ثِلْبٌ لا ضِرابٌ ولا ظَهْر

ثم استعانت بالنساء ، وطَلَب الرجال ، فإذاهم خلوف . فاجتمع النساء عليه فضربنه . قوله : قد لحب الجنبان ، يقول : قلّ لحمهما . وقوله : تدسّ إلى العطار سلعة بيتها ، يريد السَّويق والدقيق وما أشبه ذلك ، وكل عَرَض فالعرب تقول له سِلْعة . وقولها : ألم تر أن الناب تحلب علبة ، تقول : فيها منفعة على حال ، والعلبة : إناء لهم من جلود يحلبون فيه . ومن أمثال العرب : « قد تُحْلَب الضَّجُور العلبة » . يضربون ذلك للرجل البخيل الذى لا يزال يُنال منه الشىء القليل . والضجور : الناقة السيئة الخلق ، إنما تحلب حين تطلع عليها الشمس فتطيب نفسها . والثلب : الذى قد انتهى فى السن من الإبل .

الرزق المقدور

قال ضابىء بن الحارث البُرْجُمِىّ :

ومَنْ يَكُ أمسى بالمدينة رَحْـــلُه	فإني وَقيّــارا بهـــا لغريبُ
وما عاجلاتُ الطير تُدنى من الفتى	نجاحا ولا عن رَيْثِهِنّ يَخيب
ورُبَّ أمـــورٍ لا تَضيرُكَ ضَيْرةً	وللقلبِ من مَخشاتِهِنّ وَجيب
ولا خيرَ فيمن لا يوطِّنُ نفسَــه	على نائباتِ الدهــر حين تنوب

قوله : وما عاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحا ، يقول : إذا لم تعجل له طير ســانحة فليس ذلك بمبعد خيرا عنه ، ولا إذا أبطأت خاب ، فعاجلها لا يأتيه بخير وآجــلها لا يدفعه عنه ، إنما له ما قُدِّر له . والعرب تَزجُر على السانح وتتبرَّك به ، وتكره البارح وتتشاءم به . والسانح : ما أراك مياســره فأمكن الصائد ، والبارح ما أراك ميامنه فلم يمــكن الصائد إلا أن ينحرف له .

علي ومعاويـــة

وَجَّـــه عـــلىّ بن أبي طالب رضى الله عنه جرير بن عبد الله البَجَلِىّ إلى معاوية رحمه الله ، يأخذه بالبيعة له . فقال له : « إن حولى من ترى من أصحاب رسول الله صـــلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصـــار ، ولــكنّى اخترتُك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك : خير ذى يَمَنٍ . ائت معاوية فخذه بالبيعة » . فقال

جريـــر : « والله يـــا أمير المؤمنين ما أَدَّخرك من نُصْرتى شيئـــا وما أطمع لك فى معاوية » . فقال علىّ رضى الله عنه : « إنما قصدى حُجَّة أقيمها عليه » . فلما أتاه جرير دافَعَه معاوية ، فقال له جرير : « إنّ المنافق لا يُصلّى حتى لا يجد من الصلاة بـــدًا . ولا أحسبك تبايع حتى لا تجد من البيعة بدًا » . فقال لـــه معاوية : « إنها ليســـت بخَدْعَة الصبىّ عن اللبن ، [1] إنه أمر له ما بعده ، فأبلعنى ريقى » . فناظر عَمْرا فطالت المناظرة بينهما ، وألح عليه جرير . فقال له معاوية : « ألقاك بالفصل فى أوّل مجـــلس إن شاء الله تعالى » . ثم كتب لعمرو بمصر طُعمَة [2] وكتب عليه : « ولا يَـــنقُض شرط طاعة » . فقال عمرو : « يا غلام ، اكتب : ولايَنْقُض طاعة شرطا » . فلما اجتمع له أمره رفع عقيرته [3] بنشد ليُسْمِع جريرا :

تَطاوَلَ لَيْلى واعترتْنى وســاوسى	لآت أتى بالترَّهات البَسابسِ [4]
أتانى جريرٌ والحوادثُ جَمَّـــــة	بتلك التى فيها اجْتداعُ المَعاطس
أُكابدُه والسيفُ بينى وبينـــــه	ولستُ لأثواب الدَّنىِّ بلابــس
إن الشأم أعطتْ طاعة يَمَنيـَّـــة	تواصفَهَا أشياخها فى المجالـــس
فإنْ يفعلوا أصْدم عليــا بجبهـــة	تَفتُّ عليه كلَّ رطبٍ ويابـــس
وإنى لأرجـــو خيرَ ما نــالَ نــائلٌ	وما أنا من مُلْك العراق بيائـــس

وكتب إلى على رضى الله عنه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، مـــن معاوية بن صَخْر إلى عـــلى بن أبى طالب ، أما بعد ، فلعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت

---

[1] أى إعطاء الصبى شيئا يتلهى به عن اللبن .

[2] يريد أنه ولاه مصر بحيث يـــكون خراجها له .

[3] العقيرة : الصـــوت .

[4] الترهات البسابس : الأباطيـــــل .

بـــرىء مـــن دم عثمان ، كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغريتَ بعثمان المهاجرين وخَذَّلت عنه الأنصار . فأطاعك الجاهل ، وقَوى بـــك الضـــعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . ولعمرى ما حُجَّتك علىَّ كحجتك على طلحة والـــزبير، لأنهمـــا بايعاك ولم أبايعك . وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ، أطاعوك ولم يطعك أهل الشام . وأما شرفك فى الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعك من قريش ، فلست أدفعه » .

ثم كتب إليه فى آخر الكتاب بشعر كعب بن جُعَيل ، وهو :

أرَى الشام تـــكره مُلْكَ العـــراق	وأهـــلَ العراق لهم كارهينـــــا
وكُلا لصاحبـــه مبْغضـــا	يرى كُلٌّ ما كان من ذاك دينـــا
إذا مارَمَوْنـــا رمينـــاهمُ	ودِنّاهمُ مثلَ ما يُقْـــرِضُونـــا
فقالوا : علىٌّ إمـــام لنـــــا	فقلنا : رضينا ابنَ هند رضينـــا
وقالوا : نرى أنْ تَدينوا لـــــه	فقلنا : ألاَ لا نرى أن ندينـــا
ومن دون ذلك خَرْطُ القَتـــاد	وضربٌ وطعنٌ يُقِرُّ العيونـــــا

وأحســـن الروايـــتين : يَفُضّ الشئونا . وفى آخر هذا الشعر ذمّ لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أمسكنا عن ذكره . وقوله : ودناهم مثل ما يقرضونا ، يقول جزيناهم . وقال المفسرون فى قوله عز وجل : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، قالوا : يوم الجزاء والحساب . ومن أمثال العرب : (كما تَدين تُدان) . وقوله : أن تدينوا له، أى أن تطيعـــوه وتدخـــلوا فى دينه أى فى طاعته . وقوله : ومن دون ذلك خرط القتاد، فهذا مثل من أمثال العرب . والقتاد : شجيرة شاكة غليظة أصولِ الشوك ،

فلذلك يضرب خرطه مثلا فى الأمر الشديد ، لأنه غاية الجهد . ومن قال : يفض الشئونا ، فيفض يفرق ، والشئون : واحدها شأن وهى مجارى الدموع .

فكتب إليه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه جواب هذه الرسالة : « بسم الله الرحمن الرحيم : من على بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر ، أما بعد، فإنه أتانى منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه . زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان . ولعَمْرِى ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا ؛ وما كان الله ليجمعهم على ضلال ، ولا ليضربهم بالعمى . وبعدُ فما أنت وعثمانُ ؟ إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه . فإن زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلىّ. وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير ، وأهل الشام وأهل البصرة ، فلعمرى ما الأمر فيما هناك إلا سواء ، لأنها بيعة شاملة لا يُستَثنى فيها الخِيار ، ولا يستأنف فيها النظر . وأما شرفى فى الإسلام وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعى من قريش ، فلعمرى لو استطعت دفعه لدفعته » .

ثم دعا النَّجاشىّ أحد بنى الحارث بن كعب ، فقال له : « إن ابن جُعَيل شاعر أهل الشام ، وأنت شاعر أهل العراق فأجب الرجل » . فقال : « يا أمير المؤمنين أسْمِعنى قوله » . قال : « إذا أُسمعك شعر شاعر » . فقال النجاشى يجيبه :

دَعَا يا معاوىَ مالن يكونا	فقد حقّق الله ما تحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهل العراق	وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟

وبعد هذا ما نمسك عنه.

خالد بن يزيد
وعبد الملك بن مروان

يـــروى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدا فقال : « يا أخى ، لقد همــت اليـــوم أن أفــتك بالوليد بن عبد الملك ! » . فقال له خالد : « بئس والله ماهممتَ به فى ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ! » . فقال : « إن خيلى مرت بـــه فعــبث بها وأصغرنى » فقـــــال له خالد : « أنا أكفيك » . فدخل خالد على عبد الملك، والوليد عنده . فقال : « يا أمير المؤمنين ، الوليد ابن أمير المؤمنين وولى عهـــد المســـلمين مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد، فعبث بها وأصغره ! » . وعبد الملك مطرق . فرفع رأسه ، فقـــال : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَــلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فقال خالد : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَــرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾. فقـــــــال عبد الملك : « أفى عبد الله تكلمنى ؟ والله لقد دخل علىّ فما أقام لسانه لحنـــا » . فقـــال لـــه خالد : « أفعَلَى الوليد تعوّل ؟ » . فقال عبد الملك : « إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان » . فقــــــال خالد : « وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد». فقال له الوليد: « اسكتْ يا خالد ، فوالله ما تُعَدُّ فى العير ولا فى النَّفير » . فقـــال خالد : « اسمعْ يا أمير المؤمنين » . ثم أقبل عليه ، وقال : « وَيْحَكَ ! فَمَن العـــير والـــنفير غــــيرى ؟ جدى أبو سفيان صاحب العير ، وجدى عُتْبة بن ربيعة صـــاحب الـــنفير . ولكن لو قلتَ : غُنَيْمات وحُبَــيْلات ، والطائف ، ورحم الله عثمان ، لقلنا : صدقت ! » .

أما قوله : فى العير ، فهى عير قريش التى أقبل بها أبو سفيان من الشام ، فنهد إليهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وندب إليها المسلمين ، وقال : « لعلّ الله يُنَفِّلُكموها » ، فكانت وقعة بَدر . وأما النفير ، فَمَنْ نَفَر من قريش ليدفع عن العير ، فجاءوا فكانت وقعة بدر ، وكان شيخ القوم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وهو جد خالد من قبل جدته هند أم معاوية بنت عتبة . ثم اتسع هذا المثل حتى صار يقال لمن لا يصلح لخير ولا شر ، ولا يُحفَل به : « لا فى العير ولا فى النفير » . وقوله : غنيمات وحبيلات ، يعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أطرد الحكم بن أبى العاص بن أمية ، وهو جد عبد الملك بن مروان ، لجأ إلى الطائف . فكان يرعى غنيمات ، ويأوى إلى حُبَيلة وهى الكرْمة . وقوله : رحم الله عثمان ، أى لرده إياه . وقولنا : أطرده أى جعله طريدا .

العصبية

قال رجل من بنى أسد بن خُزَيمة يمدح يحيى بن حَبان :

ألا جعل الله اليَمانين كُلَّهم	فدى لفتى الفتيان يحيى بن حَيان
ولولا عُرَيْقٌ فىَّ من عصبية	لقلت وألفا من مَعَد بْن عَدْنان
ولكن نفسى لم تَطِب بعشيرتى	وطابت له نفسى بأبناء قحطان

وهذا من التعصب المفرط .

وحدثنى شيخ من الأزد ثقة عن رجل منهم أنه كان يطوف بالبيت ، وهو يدعو لأبيه . فقيل له : « ألا تدعو لأمك ! » . فقال : « إنها تميمية » .

وسُمع رجل يطوف بالبيت وهو يدعو لأمه ولا يذكر أباه . فعوتب فقـــال : « هذه ضعيفة ، وأبى رجل يحتال لنفسه » .

وحدثنى المازنى عمن حدثه قال : رأيت رجلا يطوف بالبيت ، وأمه على عنقه، وهو يقول :

أَحْمِل أمى وهى الحَمّالَةْ
تُرضعنى الدِّرَّةَ والعُلالَةْ
ولا يُجازَى والدٌ فعالَهْ

قولـــــه : الدرة ، فهو اسم ما يدر من ثدييها ، ابتداء كان ذلك أو غير ذلك . والعلالة : لا تكون إلا بعد ، يقال عَلّة يَعُله عَلا ، والاسم العلالة .

بعد العسر يسر

قال الآخـــــر :

إذا ضَيَّقْتَ أمرا ضـــــاق جـــــدا	وإنْ هَوَّنْتَ ما قد عَزَّ هـــانـــــا
فلا تَهلك لشىء فاتَ يأســـــــــا	فـــكم أمرٍ تَصعَّب ثم لا نـــــا
سأصبر من رفيقى إنْ جفانـــــــــى	على كل الأذى إلا الهوانـــــــا
فإن المرءَ يجـــزَع فى خــــــــــلاءٍ	وإنْ حضرَ الجماعةُ أنْ يُهانـــــا

ذكر العتبىّ أن الحجاج بن يوسف بن الحَكَم الثَّقفى لما أكره عبد الله بن جعفر عـــلى أنْ زَوَّجـــه ابنـــته ، اسْـــتأجَلَه فى نقلها سنة . ففـــكر عبد الله بن جعفر فى

الانفكــاك مـــنه، فأُلقى فى رُوعه خالد بن يزيد . فكتب إليه يُعْلمه ذلك ، وكان الحجــاج تــزوّجها بلا إذن عبد الملك . فورد على خالد كتابه ليلا ، فاستأذن من ســاعته عــلى عبد الملك . فقيل له : « أفى هذا الوقت ؟ » . فقال : « إنه أمر لا يؤُخَّر ». فأُعلم عبد الملك بذلك ، فأذن له . فلما دخل عليه ، قال له عبد الملك : « فيم السُّرَى يا أبا هاشم ؟ » . قال : « أمر جليل لم آمَن أنْ أؤخره فتحدث علىّ حادثــة فلا أكون قضيت حق بيعتك » . قال : « وما هو ؟ » . قال : « أتعلم أنه ما كان بين حيَّين من العداوة والبغضاء ما كان بين آل الزبير وآل أبى سفيان ؟ » . قــال : « لا » قال : « فإن تزويجى إلى آل الزبير حَلَّل ما كان لهم فى قلبى ، فما أهــل بيــت أحبّ إلىّ منهم » . قال : « فإن ذلك لَيــكون » . قال : « فكيف أَذنــت لــلحجاج أن يتزوج فى بنى هاشم ، وأنت تعلم ما يقولون ويقال فيهم ، والحجّاج من سلطانك بحيث علمت ؟ » . فجَزَّاه خيرا . وكتب إلى الحجّاج بعَزْمة أن يطلقها فطلقها . فغدا الناس عليه يعزّونه عنها ، فكان فيمن أتاه عمرو بن عُتبة ابــن أبى سفيان . فأوقع الحجّاج بخالد ، فقال : « كان الأمر لآبائه فعجز عنه حتى انتُزِع منه » . فقال له عمرو بن عُتبة : « لا تقل ذا أيها الأمير ، فإنّ لخالد قديما سَــبَق إليه ، وحديثا لم يُغْلَب عليه ، ولو طَلَب الأمر لطلبه بجَدّ وجدّ ، ولكنه عَلِم عِــلْما فسَلَّم العِــلْم إلى أهله » . فقال الحجاج : « يا آل أبى سفيان ، أنتم تحبون أن تَحْــلُموا ، ولا يكون الحلم إلا عن غضب ، فنحن نُغْضبكم فى العاجل ، ابتغاء مرضاتكم فى الآجل » . ثم قال الحجَّاج : « والله لأتزوَّجنَّ من هو أمسُّ به رحما ، ثم لا يمكنه فيه شىء » . فتزوج أم الجُلاس بنت عبد الله بن خالد بن أسيد .

مواعــــظ

قال رجل لإبراهيم بن أدهم : « عِظْنى » . فقال : « اتَّخذ الله صاحبا ، وذر الناس جانبا » .

وقال سعيد بن المُسَيَّب: كنت بين القبر والمنبر مفــكرا ، فسمعت قائلا يقول ولم أره : « الـــلهم ، إنى أسألك عملا بارا ، ورزقا دارًّا ، وعيشا قارًّا » . فلزمتُهن فلم أر إلا خيرا .

وقـــال الأصـــمعى : كان من دعاء أبي المُجيب : « اللهم اجعل خير عملى ما قـــارب أجلى » . وكان يقول فى دعائه : « اللهم لا تَكِلنا إلى أنفسنا فنعجِز ، ولا إلى الناس فنُضيَّع » .

وقـــال أبو زيد : وقف علينا أعرابى فى حلقة يونس النحوى ، فقال : « الحمد لله كمـــا هـــو أهــلُه ، وأعوذ بالله أن أذكِّر به وأنساه . خرجنا من المدينة ، مدينة رســـول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين رجلا ، ممن أخرجتْه الحاجة ، وحُمِل على المكـــروه ، لايُمرِّضـــون مريضهم ، ولا يدفنون ميتهم ، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه . والله ياقوم لقد جعت حتى أكلت النوى المحرَّق ، ولقد مَشَيت حـــتى انتعلتْ الدم ، وحتى خرج من قدمى بَخَص ولحم كثير . أفَلا رجلٌ يرحم ابـــن ســــبيل ، وفَلَّ طريق ، ونِضْوَ سفر ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن ثـــواب الله عز وجل ، ولا عمل بعد الموت . وهو الذى يقول جل شأنه: « من ذا الـــذى يقرض الله قرضـــا حسنا فيضاعفه له » ، مَلِىٌّ وَفِىٌّ ،ماجد واجد ،جواد، لا يستقرض من عوز ولكنه يَبْلو الأخبار ». فبلغنى أنه لم يبرح حتى أخذ ستين دينارا .

قوله : بخص ، يريد اللحم الذى يركب القدم ؛ هذا قول الأصمعى . وقال غيره : هو لحم يخلطه بياض من فساد يحل بـــه .

وفى حديـــث الحجـــاج بـــن علاط السلمى ، وكان قد أسلم ولم تعلم قريش بإســـلامه ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر فى أن يصير إلى مكة فيأخذ ما كان لـــه من مال ، وكانت لـــه هناك أموال متفرقة ، وهو رجل غريب بينهم، إنما هو أحد بنى سليم بن منصور ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يار سول الله ، إنى أحتاج أن أقول » . قال : « فَقُلْ » .

وهـــذا كلام حسن ومعنى حسن ، يقول : أقول على جهة الاحتيال غير الحق فـــأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه من باب الحيلة ، وليس هو من باب الفســـاد . وأكثر ما يقال فى هذا المعنى تَقَوَّل ، كما قال الله عز وجل : « يَقُولون تَقوَّله » .

فصار إلى مكة فقالت قريش : « هذا لَعَمْر الله عنده الخبر » . فقالوا : « بلغنا أن القاطع قد خرج إلى أهل خيبر » . فقال الحجاج : « نعم فقتلوا أصحابه قتلا لم يُسْـــمَع بمثله وأخذوه أسيرا ، وقالوا : أن نـــكارم به قريشـــا فندفعه إليهم ، فلا تـــزال لنا هذه اليد فى رقابهم . وإنما بادرت لجمع مالى لعلى أصيب به من فَلِّ محمد وأصحـــابه قبل أن يسبقنى إليه التجار ويتصل بهم الحديث. فاجتهدوا فى أن جمعوا إلىّ مـــالى أسرع جمع ، وسروا أكثر السرور . وأتانى العباس وهو كالمرأة الوالة . فقـــال : « ويحك يا حجاج ما تقول ؟ » . فقلت : « أ كاتمٌ أنت علىّ خبرى ؟ » . فقـــال : « إى والله » . فقـــلت : « فَالْبَثْ علىّ شيئـــا حتى يخف موضعى » . فسرتُ إليه فقلت : « الخبر والله على خلاف ما قلتُ لهم : خلّفت رسول الله صلى

الله عـــليه وسلم وقد فتح خيبر . وخلفته والله مُعْرِسا بابنة ملكهم . وما جئتك إلا مُسْــلما ، فَــاَطْوِ الخبر ثلاثا حتى أُعْجِز القوم ، ثم أَشِعْه فإنه والله الحق » . فقال العـــباس : « ويْحك ، أحَقٌّ ما تقول ؟ ». قلت: « إئ والله » فلما كان بعد ثلاثة تخـــلَّق العـــباس ، وأخـــذ عصاه ، وخرج يطوف بالبيت ، فقالت قريش : « يا أبا الفضـــل ، هـــذا والله التجُّلد لحَرِّ المصيبة » . فقال : « كلاّ ومن حلفتم به ، لقد فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرس بابنة ملكهم » . فقالوا : « من أتاك بهذا الحديث ؟ » . فقال : « الذى أتاكم بخلافه ، ولقد جاءنا مُسْلمـــا » . ثم أتت الأخبار من النواحى بذلك . فقالوا : « أفلتَنا الخبيث ، أَوْلَى له » .

الأعـراب

قـــال عـــبد المـــلك بن عُمَير : استعمل عُتْبة بن أبى سفيان رجلا من آله على الطائف ، فظلم رجلا من أزد شَنُوءة . فأتى الأزدىّ عتبة ، فمَثلَ بين يديه ، فقال :

أمرتَ من كان مظلوما ليأتيَـــكمْ ... فقد أتاكم غريبُ الدارِ مظلوم

ثم ذكـــر ظُلامته . فقال له عتبة : « إنى أراك أعرابيا جافيا ، والله ما أحسبك تدرى كم تصلى فى كل يوم وليلة » . فقال : « أرأيتَ إن أنبأتك ذلك ، أتجعل لى عليك مسألة » . قال : « نعم » . قال الأعرابى :

إن الصـــلاةَ أربعٌ وأربعُ
ثم ثلاثٌ بعـــدهن أربع
ثم صلاة الفجر لا تُضيَّع

فقال : « صدقت فاسأل » . فقال : « كم فقَار ظهرك ؟ » . فقـــــال : « لا أدرى » . فقـــال : « أفَــتَحْــكُم بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك؟ » . قال : « رُدُّوا عليه غُنَيْمته » .

وشـــهد أعرابى عند معاوية بشىء كرهه ، فقال له معاوية « كذبتَ » . فقال الأعرابى : « الكاذب والله مُتزمّل فى ثيابك » . فقال معاوية وتَبسَّم : « هذا جزاء من عَجِل » .

السـواقط

قـــال أبـــو عـــبيدة معمر بن المثنى التميمىّ : كانت السَّوَاقطُ تَرِد اليمامةَ فى الأشـــهر الحُرم لطلب التمر . فإن وافقت ذلك ، وإلا أقامت بالبلد إلى أوانه ، ثم تخرج منه فى شهر حرام . فـــكان الرجل منهم إذا قدم يأتى رجلا من بنى حنيفة ، وهـــم أهـــل الـــيمامة . فيكـــتب له على سهم أو غيره : « فلان جار فلان » . والســـواقط: مَـــنْ ورد اليمامة من غير أهلها . وقد كان النعمان بن المنذر أراد أن يُجْليهم منها ، فأجارهم مُرارة بن سُلْمِـــّى الحَنَفىّ ، ثم أحد بنى ثعلبة بن الدّول بن حَنيفة ، فسوّغه الملك ذلك . فقال أوْس بن حَجَر يحضُّ النعمان عليه :

زعم ابن سُلْمِى مُرارةُ أنـــه ... مَوْلى السواقـــط دونَ آل المُنذِرِ
منع اليمامةَ حَزنَها وسُهولَـــا ... من كل ذى تاجٍ كـــريمِ المَفْخر

وذكر أبو عبيدة أن رجلا من السواقط من بنى أبى بكر بن كلاب قدم اليمامة، ومعه أخ له . فكتب له عُميَر بن سلمىّ أنه له جار ، وكان أخو هذا الكلابى جميلا، فقـــال له قُرين أخو عمير : « لا تَرِدَنّ أبياتنا بأخيك هذا » .فرآه بعدُ بين أبياتهم

فقتله . قال أبو عبيدة : وأما المولى فذكر أن قرينا أخا عمير كان يتحدث إلى امرأة أخى الـكلابى ، فعثر عليه زوجها ، فخافه قرين عليها ، فقتله وكان عمير غائبا ، فأتى الـكلابى قبر سلمى أبى عمير وقرين ، فاستجار به ، وقال :

وإذا استجرتَ من اليمامة فاستجرْ ... زيدَ بن يربـــوعٍ وآلَ مُجَمِّعِ
وأتيتُ سُلْميــا فعُذْتُ بقَـبره ... وأخو الزّمانة عـائذٌ بالأمْنع
أقَرينُ إنك لـــو رأيتَ فوارسِى ... بعَمايَتَيْنِ إلى جوانب ضَـلْفَع
حَدَّثتَ نفسك بالوفاء ولم تـكن ... للغدر خائنةً مُغلَّ الإصْبَـــع

فـلجأ قَـرين إلى قَتادة بن مَسْلمة . فحمل قتادة إلى الكلابىّ ديات مضاعفة وفعـلت وجوه بنى حنيفة مثل ذلك . فأبى الـكلابىّ أن يقبل . فلما قدم عُمَيرة ، قالت له أمه ، وهى أم قَرين : « لا تقتل أخاك ، وسُق إلى الـكلابىّ جميع ماله » . فـأبى الـكلابىّ أن يقبل ، وقد لجأ قرين إلى خاله السمين بن عبد الله ، فلم يمنع عُمير ، فمضى به ، حتى قطع الوادى ، فربطه إلى نخلة . وقال للـكلابى : « أما إذ أبيتَ إلا قتله فأسهِلْ حتى أقطع الوادى ، وارتحل عن جوارى ، فلا خير لك فيه » فقتله الـكلابى . ففى ذلك يقول عمير :

قَتلْنا أخانا للوفاء بجـــارنا ... وكان أبونـا قد تُجير مقابرُهْ

وقالت أم عمير :

تَعُدُّ مَعـاذرا لا عُذْر فيهـا ... ومن يقتل أخاه فقد ألامـا

قوله : ولم تـكن للغدر خائنة ، ولم يقل خائنا ، فإنما وضع هذا فى موضع المصـدر ، والـتقدير ولم تـكن ذا خيانة ، وقوله : للغدر ، أى من أجل الغدر ، وقـال المفسرون والنحويون فى قول الله عز وجل : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أى لشـديد من أجل حب الخير ، والخير ههنا : المال ، ومن قوله تعالى : ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْـرًا الْوَصِيَّةُ ...﴾ . والمُغِل : الذى عنده غُلول ، وهو ما يُختان ويُحتجَن ، ويسـتعمل مسـتعارا فى غير المال . والإصبَع أفصح ما يقال ، وقد يقال : أصْبَع وَإصبع وأصبُع ، وكلٌ جَيد ، وإنما يعنى ههنا النعمة . وأما قولها : ومن يقتل أخاه فقد ألاما ، تقول : أتى ما يلام عليه .

أفضل الأخيار

أنشدنى السَّعْدىّ أبو مُحَلِّم :

إنـّا سألنا قومنا فخيارُهـم — مَن كـان أفضلَهم أبوه الأول
أعْطَى الذى أعطى أبوه قبـلَه — وتَبخَّلتْ أبناءُ من يَتَبَخـل

مديح

أنشـدنى أيضا :

لَطلحةُ بن حبيب حين تسـألُه — أنْدَى وأكرَمُ من فِند بن هَـطَّال
وبيتُ طلحةَ فى عز ومـكرمـة — وبيتِ فِنْدٍ إلى رِبقٍ وأحمـال [1]

[1] الربق : حبل فيه عدة عرى تشد به الصغار من الغنم والمعز .

ألاَ فتى من بنى ذُبيـــانَ يحملنى	وليس يحملنى إلا ابـــنُ حَمّال
فقلتُ طلحةُ أَولىَ من عَمَدْتُ له	وجئت أمشى إليه مَشْىَ مختـــال
مُستيقِنا أنّ حَبلى سوف يَعْلقُـــه	فى رأسِ ذَيالةٍ أو رأسِ ذَيّـــال

قولـــه : إلى ربق وأحمال ، إنما أراد جمع حَمَل على القياس ، كما تقول فى جميـــع بـــاب فَعَـــل حَمَل وأحمال ، وصنم وأصنام ، وقوله : فى رأس ذيالة ، يعنى فرســـا أنثى أو حصانا ، والذّيال : الطويل الذنب ، وإنمـــا يُحمَد منه طول شعر الذنب ، وقِصَر العَسيب .

الفرزدق والذئب

قال الفَرَزْدق ، ونزل به ذئب فأضافه :

وأَطْلَس عَسّالٍ وما كان صاحبـــا	رفعت لنارى مَوْهنـــا فـــأتانى
فلما دنا قلتُ : ادنُ دُونَك إننى	وإيّاك فى زادى لُمشتركـــــان
فبتُّ أقد الزاد بينى وبينــــه	على ضَـــوء نارٍ مرّة ودخـــان
وقلت له لـمـــا تَكَشر ضـــــاحكا	وقائمُ سيفى من يـــدى بمـــكان
تَعشَّ فإنْ عـــــاهدتَنى لا تخونُنى	نَــكُنْ مثل من ياذئبُ يصطحبان
وأنت امرؤٌ ياذئب والغدرُ كنتما	أُخَيَّــين كانا أُرْضعا بلبـــــان
ولو غيرنا نَبَّهت تلتمس القـــرَى	رمـــاك بسهم أو شباةِ ســـنان

قوله : وأطلس عسال ، فإنما نسبه إلى مشيته ، يقال : مرّ الذئب يَعْسل ، وهو مشـــى خفيف كالهَروْلَة ، وقوله : رفعت لنارى ، من المقلوب ، إنما أراد رفعت له نارى ، والـــكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب للاختصار . وقوله : أوشباة سنان، الشّبا والشَّباة واحد ، وهو الحَدّ .

الغـــد

مما يستحسن فى وصف الجود ، والحث على المبادرة به ، وتعريف حَمْد العاقبة فيه ، قول النَّمرِ بن تَوْلب العكلىّ :

أعاذِلَ إنْ يُصبح صـــــداىَ بقفْرةٍ	بعيدا نآنى صـــــاحبى وقريبى
تَرَىْ أن ما أبقيتُ لم أكُ ربَّـــــه	وأن الذى أنفقتُ كـــان نصيبى
وذى إبـــــلٍ يسعى ويحسبها له	أخى نَصب فى رَعيــها ودُءُوب
غدتْ وغدا رَبٌّ ســـواه يقودها	وبُدِّل أحجارا وجـــالَ قَليب

قوله : إن يصبح صداى بقفرة ، فالصدى : على ستة أوجه ، أحدها ما ذكره وهـــو مـــا يبقى من الميت فى قبره ، وقوله : وبدّل أحجارا وجال قليب ، فالجال : الناحية ، يقال لـــكل من البئر والقبر وما أشبه ذلك : جال وَجَوْل .

وروى عـــن رســـول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول ابن آدم مالى مـــالى ، ومـــالك مـــن مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت، وأعطيت فأمضيت » .

ويـــروى عـــن بعضهم أنه قال : « إنى أحب البقاء ، وكالبقاء عنـــدى حسن الثنـــاء » .

وقـــال معاوية لابن الأشْعَث بن قيس : « ما كان جَدُّك قيس بن مَعْدى كَرِب أعطـــى الأعشى ؟ » . فقال : « أعطاه مالا وظَهْرا ورقيقا وأشياء أُنْسِيتُها » فقال معاوية : « لـــكن ما أعطاكم الأعشى لا يُنْسَى » .

وقـــال عُمر بن الخطاب رضى الله عنه لابنة هَرِم بن سنان المُرّىّ : « ما وهب أبوك لزهير ؟ » . فقالت : « أعطاه مالا وأثاثا أفناه الدهر » . فقـــــــال عمر : « لـــكن ما أعطاكُمُوه لا يُفنيه الدهر » .

وقال المفسرون فى قول الله عز وجل عن إبراهيم صلوات الله عليـــــــــه : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى ثناء حسنا ، وفى قوله تعـــــالى : ﴿ وَتَرَكْـــنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى يقال لـــه هذا فى الآخرين . والعرب تحذف هذا الفعل من قال ويقول استغناء عنه ، قال الله عز وجـــــــل : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أى فيقال لهم . ومثـــــله : ﴿ وَالَّذِيـــنَ اتَّخَـــذُوا مِـــنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أى يقولون. وكذلك : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ .

خطبة الحجاج حين ولي الكوفة

قـــال عـــبد الملك بن عُمَير اللَّيْثىّ : بينا نحن فى المسجد الجامع بالكوفة وأهل الكوفـــة يومـــئذ ذوو حـــال حسنة ، يخرج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من مواليه، إذ أتى آت فقال : « هذا الحجّاجُ قد قدم أميرا على العراق » . فإذا به قد دخل المسجدَ مُعْتَمّا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهـــه ، متقلدا سيفا ، متنكبا قوسا، يؤمُّ المِنبر . فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر . فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس

بعضهم لبعض : « قَبَح الله بنى أميةَ حيث تستعمل مثل هذا على العراق ؟ » . حتى قــال عُمَــير بن ضابِئ البُرْجُمِىّ : « ألا أحْصِبهُ لــكم ؟ » . فقالوا : « أمهِل حتى ننظر » . فلما رأى عيون الناس إليه ، حَسَر اللثام عن فيه ، ونهض فقال :

أنا ابن جَلا وطَلاّعُ الثّنــــايا   متى أضعِ العــــمامةَ تعرفونى

ثم قــال : « يا أهل الــكوفة ، إنى لأرى رءوسا قد أينَعَتْ ، وحان قِطافها، وإنى لَصاحبُها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللّحى » . ثم قال :

هذا أوانُ الشّــــدّ فاشتدى زِيَمْ   قد لَفّها الليــــلُ بسَوّاقٍ حُطَمْ
ليس براعى إبــلٍ ولا غــــنم   ولا بجَزّار على ظهــــرِ وَضَمْ

ثم قــــال :

قد لَفّــها الليــــلُ بعَصْــلَبِىّ   أرْوَعَ خَرّاج مــــــن الدَّوِّى
مهاجرٍ ليس بأعــــرابىّ

وقال :

قد شَمَّرتْ عن ساقها فشُــدُّوا   وجَدّت الحربُ بكــم فجدُّوا
والقوسُ فيهــــــا وَتَرٌ عُرُدّ   مثلُ ذراع البَــكْرِ أو أشـــدّ

إنى والله – يــا أهل العراق – ما يــُقَعْقَعُ لى بالشّنــان ، ولا يُغْمَز جانبى كــتغماز التين . ولقد فُرِرْتُ عن ذكاء ، وفُتِّشت عن تجربة . وإن أمير المؤمنين – أطــال الله بقاءه – نَثَر كِنانته بين يديه ، فعَجَم عيدانها . فوجــدنى أمرَّها عُودا ، وأصــلَبها مَــكْسِرا، فرماكم بى ، إنــكم طال ما أوْضَعْتُم فى الفتنــة ؛ وأضجعتم فى مَــراقد الضلال ، والله لأحزِمنــّكم حَزْمَ السَّلَمَة ، ولأضربنّكم ضرب غَرائب

الإبل. فإنكم لَكأهل قرية كانت مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَدا من كل مكان، فكفرتْ بـأنْعُم الله ، فأذاقهـا الله لباس الجـوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإنى والله ما أقـول إلا وفَيـت، ولا أهُمُّ إلا أمضَيت ، ولا أخلق إلا فَرَيْت . وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعْطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهَلّب بن أبى صُفْرة. وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تَخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنـقه . يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين .

فقرأ : «بسم الله الرحمن الرحيم . مـن عـبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، إلى من بالكوفة من المسلمين. سلام عليـكم » . فلم يقل أحد منهم شيئا فقال الحجاج : « اكفُف يا غلام » . ثم أقبل على الناس فقال : « أسلّمَ عليـكم أمير المؤمنين فلم تـردّوا عليه شيئا ، هذا أدب ابن نِهْية . أما والله لأؤدبنكـم غير هذا الأدب أو لَتسـتقيمُنّ . اقـرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين » . فلما بلغ إلى قوله : « سلام عليكم » ، لم يبق فى المسجد أحـد إلا قال : « وعلى أمير المؤمنين السلام » .

ثم نزل فوضع للناس أعْطياتهم . فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شيخ يَرْعَش كبرا، فقـال : « أيهـا الأمـير ، إنى من الضعف على ما ترى ، ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى ، فتقبّلْه بدلا منى » . فقال له الحجاج : « نفعل أيُّها الشيخ ؟ » . فلما ولّـى قال له قائل : « أتدرى من هذا أيها الأمير » . قال : « لا » . قال : « هذا عُمير بن ضابىء البرجمىّ الذى يقول أبوه :

هَممْتُ ولم أفعلْ وكِدْتُ وليْتَنى تركتُ على عثمانَ تبكى حَلائلُه

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا، فوطىء بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه » . فقـال : « رُدُّوه » . فلما رُدّ قال له الحجاج : « أيها الشيخ ، هلا بعثت إلى أمير

المؤمنين عثمان بَدَلا يــوم الدار ، إنّ فى قتلك ، أيها الشيخ ، لصلاحا للمسلمين. يا حَرِسىّ اضربَنْ عُنقه » .

فجعـــل الـــرجل يَضيق عليه أمره فيرتحل ، ويأمر وليَّه أن يلحقه بزاده . ففى ذلك يقول عبد الله بن الزَّبِير الأســـدىّ :

تَجهَّزْ فإما أنْ تزور ابـــــنَ ضابِىء	عُميرا وإما أن تزور المهَلَّبــــــا
هما خُطَّتا خَسْفٍ نَجاؤُكَ منهمـــا	ركوبُــك حَوْليًّا من الثلج أشْهَبا
فأَضْحَى ولو كانت خراسانُ دونه	رآها مكان السُّوق أو هى أقربــا

قوله : أنا ابن جلا ، إنما يريد المنكشف الأمر . والشعر لسُحَيم بن وَثِيل الرّياحى ، وإنما قاله الحجاج متمثلا . وقوله : وطلاع الثنايا ، الثنايـــا : جمع ثَنِيَّة ، والثـــنيّة : الطـــريق فى الجـــبل ، وإنمـــا أراد به أنه جَلْد يَطلُع الثنايا فى ارتفاعها وصـــعوبتها. وقولـــه : هذا أوان الشدّ فاشتدى زيم ، يعنى فرسا أو ناقة . والشعر لـــلحُطَم القيســـى . وقوله : قد لفّها الليل بسواق حطم ، فهو الذى لا يُبقى من السير شيئا . وقوله : على ظهر وضَم ، فالوضم : كل ما قُطع عليه اللحم . وقوله: قـــد لفّهـــا الـــليل بعصلبىّ ، أى شديد . وأروع : أى ذكىّ . وقوله : خرّاج من الدوّىّ، يقول : خراج من كل غمّاء شديدة . وقوله : والقوس فيها وترعرد ، فهو الشديد . وقوله : إنى والله ما يقعقع لى بالشنان ، واحدها شَنّ ، وهو الجلد اليابس، فـــإذا قُعقـــــع بـــه نفرت الإبل منه ، فضرب ذلك مثلا لنفسه . وقولـــه : ولقد فُررت عن ذكاء يعنى تمام السّن . وقوله : فعجم عيدانها، يقول : مضغها لينظر أيها أصلب . وقوله : طال ما وضعتم فى الفتنة ، الإيضاع : ضرب من السير . وقوله:

فأضحى ولو كانت خراسان دونه ، يعنى دون السفر ، رآها مكان السوق للخوف والطاعة .

وحدثنى محمد بن إبراهيم الهاشمى قال : بلغ عمر بن الخطاب رحمه الله أن قوما يفضلونه على أبى بكر الصديق رحمه الله . فوثب مُغضَبا حتى صعد المنبر . فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم قال : « أيها الناس ، إنى سأخبركم عنى وعن أبى بكر . إنه لما تُوُفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدّت العرب ، ومنَعتْ شاتَها وبَعيرها . فأجمع رأينا كلّنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنْ قلنا له : يا خليفة رسول الله ، إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة ، يمده الله بهم ، وقد انقطع ذلك اليوم ، فالزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب. فقال أبو بكر الصديق : أوَكُلُّكم رأيه على هذا ؟ فقلنا : نعم . فقال : والله لأنْ أخِرَّ من السماء فَتخطفَنى الطير ، أحبّ إلىَّ من أن يكون هذا رأيى . ثم صعد المنبر فحمد الله وكبّره ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . أيها الناس ، أأنْ كَثُر أعداؤكم ، وقل عددكم ، ركب الشيطان منكم هذا المركب . والله ليُظهِرنَّ الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون ؛ قوله الحق ، ووعده الصدق، بل نقذف بالحق على الباطل فيَدْمَغه فإذا هو زاهق ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . والله أيها الناس لو أُفرِدتُ من جميعكم لجاهدتهم فى الله حَقَّ جهاده حتى أُبْلِىَ بنفسى عذرا ، أو أُقتَل قتلا . والله أيها الناس لو منعونى عِقالا لجاهدتهم عليه ، واستعنت عليهم الله وهو خير معين . ثم نزل فجاهد فى الله حق جهاده ، حتى أذعنت العرب بالحق » .

قوله : لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه ، فإن المُصَدِّق [1] إذا أخذ من الصدقة ما فيها ، ولم يأخذ ثمنها قيل : أخذ عقالا ، وإذا أخذ الثمن قيل . أخذ نَقْدا .

وكـــان ارتداد من ارتد من العرب أنْ قالوا : نقيم الصلاة ولا نؤتى الزكاة . فمن ذلك قول الـحُطَيْئـــة :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننـــا فيالَهْفتا ما بالُ ديـــنِ أبى بكرِ
أيُورِثُها بَـــكْرا إذا مـــات بعده فتلك وبيتِ الله قاصمةُ الظهـــر
فقوموا ولا تعطوا اللئامَ مقَـــادَةً وقوموا ولوكان القيامُ على الجَمْر
فِدًى لبنى نَصْرٍ طَرِيفى وتـــالِدى عشيةَ ذادُوا بالرماح أبا بكـــر

من أشعار المولدين

هـــذه أشـــعار اخترناها من أشعار المولدين ، حكيمة مستحسنة ، يُحتاج إليها للتمـــثُّل ، لأنها أشْكَلُ [2] بالدهر ، ويستعار من ألفاظها فى المخاطبـــات والخطب والكتب .

قال محمود بن حسن الوراق :

تعصى الإله وأنتَ تُظهـــر حُبـــَّه هذا محالٌ فى القيـــاس بديـــعُ
لو كان حُبُّك صادقا لأطعتَـــــه إن المحِبَّ لمن يحب مطيـــــع

---

[1] المصدق : جامع الزكـــاة .
[2] أشكل : أشـــبه .

وقال أيضـــــا :

إني شـــــكرتُ لظالمي ظلمي ... وغفرتُ ذاك له على عـــــلمي

ورأيـــتُه أسْدَى إليّ يــــــدا ... لمـــا أبان بجهــــــله حـــلمي

رجعتْ إساءته وإحســـــانى ... فعـــــاد مضاعفَ الجُـــرْم

وغدوتُ ذا أجــــرٍ ومَحْمَدة ... وغدا بكَسب الظلم والإثـــم

فـــكأنما الإحســـانُ كـــان له ... وأنا المُسيء إليـــه فى الحـــكم

ما زال يظلمنى وأرحمـــــــه ... حتى بكيتُ له من الظلـــــــم

أخذ هذا المعنى من قول رجل من قريش لرجل قال له : « إني مررت بقوم من قريـــــــش ، من آل الزبير أو غيرهم ، يشتمونك شتما رحمتك منه » . قال : « أفسمعتَنى أقول إلا خيرا » . قال : « لا » . قال : « إياهم فارحم » .

وقـــال أبـــو بكر الصديق رحمه الله لرجل قال له : « لأشتمنّك شتما يدخل معك فى قبرك » . قال : « معك والله يدخل لا معى » .

وقال ابن مسعود : « إن الرجل ليظلمنى فأرحمه » .

وقـــال رجل للشعبيّ كلاما أقذع له فيه . فقال له الشعبى : « إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك » .

ويروى أنه أتى مسجدا ، فصادف فيه قوما يغتابونه . فأخذ بعضادتى الباب ثم قال :

هنيئا مريئـــا غير داءٍ مُخامــــرٍ ... لعَزَّةَ من أعراضنـــــا ما استحلّتِ

وذكـــر ابن عائشة أن رجلا من أهل الشام قال : دخلت المدينة فرأيت رجلا راكـــبا عـــلى بغلة ، لم أر أحسن وجهـــا ولا سَمْتا ولا ثوبا ولا دابة منه فسألت عـــنه. فقيل لى : « هذا الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما » . فامتلأ قلبى له بغضا وحسدت عليا أن يكون له ابن مثله . فصرت إليه فقلت له : « أأنت ابن أبى طالب ؟ » . فقال : « أنا ابن ابنه » . فقلت : « فبك وبأبيك أسبّهما » . فلما انقضى كـــــلامى قال لى : « أحسبك غريبا ؟ » . قلت : « أجل » . قال : « فمـــلْ بـــنا ، فإن احتجت إلى منزل أنزلناك ، أو إلى مال آسيْناك ، أو إلى حاجة عاونَاك » . قال : فانصرفت عنه ووالله ما على الأرض أحب إلىّ منـــــه.

وقال صالح بن عبد القدوس :

إن يكن ما به أصِبْتُ جليــــــلا   فذهابُ العزاء فيـــه أجَـــــــلُّ

كـــلُّ آت لا شــــك آت وذو الجهـــــــل مُعَنًّى والغمُّ والحزن فَضْلُ

وأنشد مُنشِد من الأبيات المنفردة القائمة بأنفسها :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى   إلى بعضِ ما فيه عليك مَقَـــــالُ

وقال آخـــــــر :

ويعرف وَجْهَ الحزم حتى كأنمـــــا   تخاطبه من كل أمر عواقبُـــــــهُ

وقال أشْجَع السُّـلَمى :

رَأىٌ سَرَى وعيونُ الناس راقـــدةٌ   ما أخَّرَ الحزمَ رأىٌ قدَّمَ الحـــذرا

وقال آخـــــــر :

فلو عاب نفسى غيرُ نفسى لَسؤتُهُ   فكيف ونفسى قد أتت ما يعيبها

وقال عبد الصمد بن المُعَـــذَّل :

أمُنُّ على المُجْــــــــتَدِى   ومـــا أتْبِــعُ المَنَّ مَنْ [1]

[1] المجتدى : طالب المعروف . والمن الأول : الإحسان . والمن الثانى : الفخر بالإحسان .

كأنْ لم يَزَل مــــا أتــــى ... ومــا قــــد مضى لم يكــــن
أرى النــــاس أحـــــدوثةً ... فــكونى حديثـــا حســــن

وقال دعْبِل بن على الخزاعى :

أحببتُ قومى ولم أعدلْ بحبهـــــمُ ... قالوا: تعصّبتَ جهلا قولَ ذى بَهت
دَعنى أَصِلْ رَحِمى إن كنتَ قاطعَها ... لابُدَّ للرحمِ الدنيا من الصـــــلةِ
فاحفظ عشيرتَك الأدْنينَ إنَّ هـــم ... حَقا يُفَرِّق بين الزوج والمَـــــرة
لا تَعْرضنَّ بمـــزحٍ لامرئ طَبِنٍ ... ما راضَه قلبُه أجْراه فى الشفة [1]
فُربَّ قافيةٍ بالمزح جاريـــــــةٍ ... مشئومة لم يُـــرَدْ إنماؤُها نَمَت

وقال الخليل بن أحمد ، وكان نظر فى النجوم فأبعد ، ثم لم يرضها فقال :

أَبْلغـــــا عنى المُنجِّم أنــى ... كافرٌ بالذى قَضَتْه الـكواكبْ
عالمٌ أنّ ما يــكون وما كـــا ... ن بحَتْمٍ مـــن المُهَيْمِن واجبْ

وأنشدنى الرياشى لغيره :

قد نَقَّر الناسُ حتى أحدثوا بدَعــا ... فى الدين بالرأى لم تُبْعَث بها الرسل [2]
حتى استخفَّ بحق الله أكثرُهـــم ... وفى الذى حُمِّلوا من حقــه شُغُل

وقال الحَكَمىّ أبو نواس :

أخِى ما بالُ قلبك ليـــس يَنْقَى ... كأنكَ لا تظن المـــوتَ حَقّــا
ألا يا ابنَ الذين فَنوا وبــــادوا ... أماَ واللهِ ما ذهبـــــوا لتبقى
وما أحد بزَادك منـــك أحْظى ... وما أحد بزادك منـــك أشقى
ولا لك غير تَقـــوى الله زادٌ ... إذا جَعلتْ إلى اللّهـــَوات تَرْقَى

---

(1) الطبن : الفصـــل الحاذق .

(2) نقر : بحث .

الصبر

كان ابن شبرمة إذا نزلت به نازلة قال : « سحابة ثم تنقشع » .

وكـــان يقـــال : « أربع من كنوز الجنة : كتمان المصيبة ، وكتمان الصدقة، وكتمان الفاقة ، وكتمان الوجع » .

وقـــال عمر بن الخطاب رحمه الله : « لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليتُ أيهما ركبت » .

وقال العُتْبِيّ محمد بن عبيد الله يذكر ابنا له مات :

أضحتْ بخَدِّى للدموعِ رســـــومُ ... أسَفا عليك وفى الفؤاد كُلـــــومُ
والصبر يُحْمَدُ فى المصائبِ كلهـــا ... إلا عليـــــكَ فإنه مذمـــــوم

وأحســـب أن حبيـــبا الطائى سمع هذا فاستَرقه فى بيتين : أحدهما قوله فى إدريس بن بدر الشامى :

دموعٌ أجابتْ داعىَ الحـــزنِ هُمَّعُ ... تَوصَّلُ منـــا عن قلوبٍ تقطَّعُ
وقد كان يدْعَى لابسُ الصبرِ حازما ... فأصبحَ يُدْعى حازما حينَ يجزَعُ

والآخر قوله :

قالوا : الرحيل ، فما شككتُ بأنها ... نفسى عن الدنيا تريد رحيـــلا
الصبر أجْمَلُ غيرَ أنّ تَلَـــــدُّدا ... فى الحبِّ أحْرَى أن يكون جميـــلا

عقل ولسان

كان الحسن يقول : « لسان العاقل من وراء قلبه . فإنْ عرض له القول نظر، فإن كان له أن يقول قال ، وإن كان عليه القول أمسك. ولسان الأحمق أمام قلبه، فإذا عرض له القول قال كان عليه أوله » .

وقـــال إيـــاس بن معاوية المُزَنىّ أبو واثِلَة ، وكان أحد العقلاء الدهاة الفضلاء لخالد بن صفوان : « لا ينبغى أن نجتمع فى مجلس » . فقال له خالـــــد : « وكيف يا أبا واثلة ؟ » فقال : « لأنك لا تحب أن تسكت ، وأنا لا أحب أن أسمع » .

أقضيـــة

خاصــــم إلى إياس رجل رجلا فى دَين ، وهو قاضى البصرة . فطلب منه البيِّنة فـــلم يأته بَمْقنعَ . فقيل للطالب : « استَجرْ وكيع بن أبى سُود حتى يشهد لك فإن إياســـــا لا يجترئ على رد شهادته » . ففعل ، فقال وكيع : « والله لأشهدن لك فـــإن رد شهادتى لأعَممنَّه السيف » . فلما طلع وكيع فهم إياس عنه . فأقعده إلى جانـــبه ثم سأله عن حاجته . فقال : « جئت شاهدا » . فقال له : « يا أبا المُطرف أتشـــهد كمـــا تفعل الموالى والعجم . أنت تَجلُّ عن هذا » . فقال : « إذن والله لا أشهد » . فقيل لوكيع بعد : « إنما خدعك » . فقال : « أوْلَى لابن اللخناء » .

واختـــــلف نصرانى إلى أبى دُلامة مولى بنى أسد يَتطَبّب فوعده إن برأ على يديه أن يعطيـــه ألف درهم . فبرأ ابنه ، فقال للمتطبب : « إن الدراهم ليست عندى ، ولكــن والله لأُوصلنَّها إليك . ادَّعِ على جارى فلان هذه الدراهم فإنه موسر، وأنا

وابنى نشهد لك فليس دونَ أَخْذِها شيء » . فصار النصرانى بالجار إلى ابن شبرمة فسأله البينة . فطلع عليه أبو دلامة وابنه ، ففهم القاضى . فلما جلس بين يديه قال أبو دلامة :

إنِ الناسُ غَطَّونى تغطيتُ عنهمُ وإن بَحَثونى كان فيهم مباحثُ

فقـــال ابن شبرمة : « من ذا الذى يبحثك يا أبا دلامة ؟ » . ثم قال للمدعى : قد عرفت شاهديك فخلِّ عن خصمك ، ورح العشيّة إلىّ . فراح إليه ، فغرمها من ماله .

وشهد أبو عبيدة عند عبيد الله بن الحسن العَنْبرى على شهادة ، ورجلٌ عدل ، فقال عبيد الله للمدعى : « أما أبو عبيدة فقد عرفته ، فزدنى شاهدا » . وكـــــان عبيد الله أحد الأدباء الفقهاء الصلحاء .

وتقـــدم رجـــل إلى سوار بن عبد الله ، وسوار ابن عم عبيد الله بن الحسن ، يدعى دارا ، وامرأة تدافعه ، وتقول لسوار : « إنها والله خطة ما وقع فيها كتاب قـــط ». فـــأتى المدعى بشاهدين يعرفهما سوار ، فشهدا له بالدار . وجعلت المرأة تنكر إنكارا يعضده التصديق. ثم قالت : « سل عن الشهود فإن الناس يتغيرون » . فرد المسألة فحُمد الشاهدان :فلم يزل يُرِيِّث أمورهم ويسأل الجيران فكل يصدق المـــرأة ، والشاهدان قد ثبتا . فشكا ذلك إلى عبيد الله ، فقال للشاهدين : « ليس للقاضـــى أن يسألـــكما كيف شهدتما ، ولـــكن أنا أسألـــكما » . فقالا: « أراد هـــذا أن يحج فأدارنا على حدود الدار من خارج ، وقال : هذه دارى فإن حدث بى حادث فلْتَبع ولتقسم على سبيل كذا ». قال: « فعند كما غير هذه الشهادة ؟ »

قـالا : « لا » . فقـال : « الله أكبر ، وكذا لو أدرتكما على دار سوار وقلت لـكما مثل هذه المقالة أكنتما تشهدان بها لى ؟ » . ففهما أنهما قد اغترا .

وحدثـنى أحـد أصحابنا أن رجلا من الأعراب تقدم إلى سوار فى أمر ، فلم يصـادف عـنده ما يحب فاجتهد فلم يظفر بحاجته . فقال الأعرابى وكانت فى يده عصـا :

رأيت رُؤيا ثم عَبرْتُهـا	وكنتُ للأحـلام عَبّارا
بأننى أخبِطُ فى ليلـق	كلبا فـكان الـكلب سَوَّارا

ثم أنحى على سوار بالعصا فضربه حتى مُنع منه ، فما عاقبه سوّار بشىء .

وحُدِّثـت أن أعـرابيا مـن بنى العَنْبر سار إلى سوّار ، فقال : « إن أبى مات وتـركنى وأخالى » . وخط خَطَّـين فى الأرض ثم قال : « وهجينـا » . وخط خطّـا ناحية ، « فكيف نقسم المال » . فقال : « أههنا وارث غيركم ؟ » . قال : « لا ». قـال : « المـال بينكم أثلاثا » . فقال : « لا أحسبك فهمت عنى ، إنه تركنى وأخى وهجينا لنا » . فقال سوّار : « المال بينكم أثلاثا » . فقال الأعرابى: « أيأخذ الهجين كما آخذ ، وكما يأخذ أخى » . قال : « أجَل » . فغضب الأعرابى ثم أقـبل على سوار فقال : « تَعلّمْ والله أنك قليل الخالات بالدَّهناء [1] » . فقال سوّار : « إذا لا يضيرنى ذلك عند الله شيئـا » .

---

[1] قيل إنه لم يـكن بالدهناء إماء وإنما كل نسائها حرائر .

وكــان عَقيــل بــن عُلَّفة من الغَيرة والأنفة على ما ليس عليه أحد علمناه . فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته على أحد بنيه ، وكانت لعقيل إليه حاجات. فقال : « أما إذ كنتَ فاعلا فَجنِّبنى هُجَناءَك » .

وخطــب إليه ابنتَه إبراهيم بن هشام ، وهو خال هشام بن عبد الملك ، ووالى المدينة ، وكان أبيض شديد البياض . فرده عقيل وقال :

رددتُ صحيفةَ القُرشىِّ لمــــــا أبتْ أعــراقــه إلا احمـــرارا

وكــانت حفصة بنت عمران قد ميتَ عنها . فخطبها جماعة من قريش أحدهم عبد الله بن حسن وأحدهم إبراهيم بن هشام . فــكان أخوها محمد بن عمران إذا دخـــل إلى إبراهيم بن هشام أوسع له وأنشده :

وقالوا : يا جميل أتى أخوهــــــا فقلت : أتى الحبيبُ أخو الحبيب
أحبكَ أنْ نزلت جبال حِسْمى وأن ناسبتَ بَثْنةَ مـــن قريب

وهذا الشعر لجميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْرى .

وكان يقال : إن أول من أظهر الجور من القضاة فى الحكم بلال بن أبى برُدَة ، وكان أمير البصرة وقاضيها . وكان بلال يقول : « إن الرجلين لَيتقدَّمان إلىَّ فأجد أحدهما على قلبى أخفّ فأقضى له » .

ويروى أن بلالا وفد على عمر بن عبد العزيز بخُناصِرةَ فسَدِك [1] بسارية من المسـجد . فجعل يصلى إليها ويديم الصلاة . فقال عمر بن عبد العزيز للعلاء بن المغـيرة بـن البُنْدار : « إنْ يكن سرُّ هذا كعلانيته فهو رجل أهل العراق غـير مُدافَع » . فقـال العـلاء : « أنا آتيك بخبره » . فأتاه وهو يصـلى بين المغرب والعشـاء فقال : « اشفع صلاتك فإن لى إليك حاجة » ففعل . فقال له العـلاء : « قـد عـرفت حالى من أمير المؤمنين ، فإنْ أنا أشرتُ بك على ولاية العراق فما تجعـل لى ؟ » . قال : « لك عُمالتى [2] سنة » . وكان مبلغها عشرين ألف ألف درهـم . قـال : « فاكـتب لى بذلك » . فارقدّ [3] بلال إلى منزله فأتى بدواة وصـحيفة فكـتب له بذلك . فأتى العلاء عمر بالكتاب . فلما رآه كتب إلى عبد الحميـد بـن عبد الرحمن ، وكان والى الـكوفة : « أما بعد ؛ فإن بلالا غَرَّنا بالله فكدنـا نغـتر ، فسـبكناه فوجدناه خَبَثا كلّه ، والسلام » . ويُروى أنه كتب إلى عـبـد الحميـد : « إذا ورد عليك كتابى هذا ، فلا تستعن على عملك بأحد من آل أبى موسـى » . وكان بلال داهية لَقِنـا أديبـا . ويقـال : إن ذا الرُّمَّة لمـا أنشده :

سمعتُ الناسَ يَنْتَجعون غيثـا	فقلتُ لصَيْدَحَ : انتجعى بـلالا
تُناخِى عنـد خيرِ فتى يَمـانٍ	إذا النَّـكْباءُ ناوحتِ الشـمالا

---

(1) خناصرة : بلدة من أعمال حلب . وسدك : لصق .

(2) العمالة : أجـرة العامل .

(3) ارقـد : أسـرع .

فلما سمع قوله : فقلت لصيدح انتجعي بلالا ، قال : « يا غلام ، مُرْ لها بقَتٍّ ونوى » . أراد أن ذا الرمة لا يحسن المدح . وقوله : إذا النكباء ناوحت الشمالا، فإن الرياح أربع ، ونكباواتها أربع ، وهى الريح التى تأتى من بين ريحين ، فتكون بين الشمال والصَّبا ، أو الشمال والدَّبور ، أو الجنوب والصبا، فإذا كانت النكباء تُناوِح الشمال فهى آية الشتاء . ومعنى تناوح تقابل .

العرب والموالي والأنساب

قال المُنتَجِع لرجل من الأشراف : « ما علّمتَ ولدَك ؟ » . قال : « الفرائض » . قال : « ذلك علم الموالى لا أبالك . عَلمهم الرَّجَز فإنه يُهَرّت أشداقهم » .

ومن ذلك قول الشعبىّ ، ومر بقوم من الموالى يتذاكرون النحو ، فقال : « لئن أصلحتموه إنكم لأوّل من أفسده » .

وقول العرب : « ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر » يريد العربىّ والعجمىّ.

وقال المختار لإبراهيم بن الأشتَر يوم خازَر ، وهو اليوم الذى قُتل فيه عُبيد الله بن زياد : « إن عامّة جندك هؤلاء الحمراء، وإن الحرب إنْ ضَرَّستهم هربوا فاحمل العرب على متون الخيل ، وأَرْجِل الحمراء أمامهم » .

ومن ذلك قول الأشعث بن قيس لعلى بن أبي طالب رحمه اله، وأتاه يتخطّى رقاب الناس ، وعلىّ على المنبر ؛ فقال : « يا أمير المؤمنين ، غلبتنا هذه الحمراء على قربك » . فركض علىّ المنبر برجله . فقال صَعْصَعة بن صُوحان العَبْدىّ :

« مــا لنــا ولهذا ». يعنى الأشعث ، « لَيَقُولنَّ أمير المؤمنين اليوم فى العرب قولا لا يــزال يُذكَر » . فقال علىّ : « من يَعْذِرنى من هذه الضــّياطِرَة ، يتمرغ أحدهم عــلى فراشــه تَمــرُّغ الحمار ويُهَجِّر قوم للذكر ، فيأمرنى أن أطردهم ؟ ما كنت لأطــردهم فأكون من الجاهلين . والذى فَلَق الحَبة ، وبرأ النَّسمَة ، لَيَضرِبُنَّكم على الديــن عَوْدا كما ضربتموهم عليه بَدْءا » . قوله : الضياطرة ، واحدهم ضَيْطَر وضيْطار ، وهو الأحمر العَضِل الفاحش .

قــال يحــيى بــن نوفــل يهجو العُرْيان بن الهَيْثم بن الأسود النخَعىّ ، وكان العــريان تزوج زَبادِ ، من ولد هانِىء بن قَبيصة الشَّيبانىّ ، وكانت عند الوليد بن عبد الملك فطلقها ، فتزوجها العريان . وكان ابن نوفل له هجّاء ، فقال :

أعُريانُ ما يدرى امرؤ سيلَ عنكمُ	أمِنْ مذْحجٍ تُدْعَوْنَ أم من إيــادِ
فإنْ قلتمُ : من مذحج إنّ مذحجا	لَبِيضُ الوجوهِ غير جدٍّ جعــاد
وأنتم صِغار الهام حُدْلٌ كأنمــا	وجوهــكمُ مطليّــةٌ بمــداد
لَعمْرُ بنى شيبان إذ ينْــكحونه	زَبادِ لَقدْ ما قَصَّروا بزبــاد
أبعْدَ الوليدِ أنــكحوا عبد مذحجٍ	كُمُترِيةٍ عَيْرا خــلافَ جَواد

قوله : وأنتم صغار الهام حدل ، فالأحدل : المائل العنق . وقولــه : لقد ما قصــروا، فمــا : زائدة ، مثل قوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾ ، ولو قال : لَقدْمــا قصّروا ، لم يكن جيدا ودخل الوليد فى الذم . وقوله : كمترية عيرا خلاف جواد ، يقول : بعد جواد ، قال الله عز وجل : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ .

صيغة فعالِ

اعـــلم أنــه لا يُبْــنَى شيء من هذا الباب على الكسر إلا وهو مؤنث معرفة معـــدول عن جهته ، وهو فى المؤنث بمنزلة فُعَل ، نحو عُمَر وقُثَم فى المذكر ، وفُعَل معـــدول فى حـــال المعرفة عن فاعل وكان فاعل ينصرف ، فلما عُدِل عنه فُعَل لم ينصـــرف. وفَعـــالِ معدول عن فاعِلة ، وفاعلة لا ينصرف فى المعرفة ، فعُدل إلى البناء لأنه ليس بعد مالا ينصرف إلا المبنىّ . وبُنِى على الكسر لأن فى فاعلة علامة الـــتأنيث . وكان أصل هذا أن يكون إذا أردت به الأمر ساكنا كالمجزوم من الفعل الذى هو فى معناه ، فَكَسَرْتَه لا لتقاء الساكنين ، مع ما ذكرنا من علامة التأنيث ، والكســـر مما يؤنث به فلم يخل من العلامة ، تقول للمرأة : أنتِ فعلتِ . فالكسر علامة التأنيث . وكذلك إنّكِ ذاهبةٌ ، وضربتُكِ يا امرأة .

فممـــا لا يكون إلا معرفة مكسورا ما كان اسما للفعل نحـــــو نزَالِ ، ومعناه انـــزلْ ، وكذلك تَراكِ زيدا أى اتركه . فهما معدولان عن المتاركة والمنازلة ، وهما مؤنـــثان معرفـــتان . يدلك على التأنيث القيــــاس الذى ذكرنا ، قال الشاعر تصديقا لذلك :

وَلَنِعمْ حَشْوُ الدرعِ أنتَ إذا ... دُعِيَتْ نَزالِ ولُجَّ فى الذعرِ

قال : دعيت ، لما ذكرته لك من التأنيث . فهذا باب من الأربعة .

ومـنها أن يـكون صفة غالبة تحلّ محل الاسم ، نحو قولهم للضبع : جَعارِ ، وللمنية: حَلاقِ ، لأنها حالقة . والدليل على التأنيث بعد ما ذكرنا قوله :

لَحِقَتْ حَلاقِ بهم على أَكْسائِهِمْ ضَرْبَ الرقابِ ولا يهمُّ المَغْنَمُ [1]

وتقول فى النداء : يا فَساقِ ، وياخَباث ، ويالـكاع لأنه فى النداء فى موضع معرفة كما تقول للرجل : يافُسَق وياخبث وبالـكع ، فهذا باب ثان.

ومن ذلك ما عُدِل عن المصدر ، نحو قوله :

جَماد لهـا جَمـادِ ولا تقولى طَوالَ الدهرِ مـا ذُكِرَتْ حَماد

يـريد قـولى لها : جمودا ولا تقولى لها حمدا هذا المعنى ، ولـكنه عدل مؤنثا . وهذا باب ثالث .

والـباب الرابع أن تُسمِّى امرأة أو شيئا مؤنثا باسم تصوغه على هذا المثال ، نحـو رَقـاشِ وحَـذامِ وقَطامِ وما أشبهه ، فهذا مؤنث معدول عن راقشة وحازمة وقاطمة ، إذا سميت به . وأهل الحجاز يُجْرونه على قياس ما ذكرت ، لأنه معدول فى الأصـل وسُمِّى به ، فنُقل إلى مؤنث كالباب الذى كان قبله فلم يغيروه ، فعلى ذلك قالوا : اسق رَقاشِ إنها سَقاية ، وقال آخر :

إذا قالتْ حذام فصَدّقوهـا فإن القول مـا قالت حـذام .

---

[1] الأكسـاء : المتأخرون .

وأمـــا بـــنو تمـــيم فإذا أزالوه من النعت فَسموا به صرفوه فى النـــكرة ، ولم يصـــرفوه فى المعرفة . وسيبويه يختار هذا القول الآخر ، فيقول : هذه رقاشُ قـــد جـــاءتْ ، وهـــذه غَلابُ قد جاءت ، وهـــــذه غلابٌ أخرى . ولا اختلاف بين العرب فى صرفه إذا كان نـــــكرة ، وفى إعرابه فى المعرفة ، وصرفه فى النـــــكرة إذا كـــان اسما لمذكر ، نحو رجل تسميه نَزالِ أو رقاشِ أو حَلاقِ ، فهو بمنزلة رجل سميـــته بعَناقٍ أو أتانٍ ، لأن التأنيث قد ذهب عنه . فاحتج سيبويه فى تصحيح هذا القـــول بأنك لو سميت شيئـــا بالفعل الذى هو مأخوذ منه لأعربته ، نحـــــو أنزِلْ واضْرِبْ لو سميت بهما رجلا لجرى مجرى إصْبَع وأحمد وإثمد ونحو ذلك . فهذا يحيط بجميع هذا البـــاب.

الـــــزواج

قالت امرأة أحسبها من بنى عامر بن صَعْصَعة زُوِّجت فى طَيئْ :

لا تحمدَنَّ الدهرَ أختٌ أخا لهـــــا	ولا ترثينَّ الدهـــــرَ بنتٌ لوالدِ
همُ جعلوهـــــا حيثُ ليستْ بحُرَّةٍ	وهم طرحوها فى الأقاصى الأباعد

ويُروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « إنما النـــــكاح رِقٌ . فلينظر امرؤ من يُرِقُّ كريمتـــه » .

وعـــلى هذا جاءت اللغة فقالوا : كنا فى إملاك فلان ، وفى مِلْك فلان ، وفى مَلْك فلان ، وفى مَلَكة فلان ، وفى مِلْـــكان فلان . ويقول الرجل : ملـــكتُ المرأة وأملـــكنيها وليُّها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوصيكم بالنساء فإنهم عندكم عَوان » . أى أسيرات .

وقال رجل يذكر امرأة زُوِّجت من غير كفء :

لقد فرح الواشون أنْ نال ثعلبٌ شبيهةَ ظَبي مُقلتاها وجيدُها
أضَرَّ بها فَقْدُ الوَلِيِّ فأصبحتْ بكَف لئيم الوالدين يَقودُها

ولما زَوَّج إبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصارى يحيى بن أبي حَفْصة مولى عثمان بن عفان ابنته ، على عشرين ألف درهم ، قال قائل يُعيِّره :

لَعَمْرى لقد جَلَّلْتَ نفسك خَزْيَةً وخالفتَ فِعْلَ الأكثرين الأكارم
ولو كانَ جَدّاكَ اللذان تتابعا ببَدرٍ لَمَا راما صنيعَ الألائم

فقال إبراهيم بن النعمان يرد عليه :

ما تركتْ عشرون ألفا لقائل مَقالا فلا تَحفِلْ مَلامةَ لائم
وإنْ أكُ قد زَوَّجْتُ مولى فقد مَضَتْ به سُنةٌ قَبْلى وحبُّ الدراهم

وتزوج يحيى بن أبي حَفصة ، وهو جد مروان الشاعر ، ويزعم النسابون أن أباه كان يهوديا أسلم على يدى عثمان بن عفان ، وكان يحيى من أجود الناس وكان ذا يسار فتزوج خَوْلة بنت مُقاتل بن طَلْبة بن قيس بن عاصم ، سيد أهل الوبر ، ومَهَرها خرَقا . ففى ذلك يقول القلاخ بن حَزْن :

لم أرَ أثوابا أجَرَّ لخَزْية وألأمَ مَكْسُوا وألأمَ كاسيا
من الخِرَقِ اللاتى صُبِبْنَ عليكم بحَجْرٍ فكُن المبقيات البواليا

فقال يحيى بن حفصة يجيبه :

تجاوزتُ حَزْنــا رغبةً عن بناتــــه وأدركت قيســا ثانيا من عنانيــا

يقــال ذلك للسابق إذا تقدم تقدما بَيِّنا فبلغ الغاية ، فمن شأنه أن يثنى عنانه فينظر إلى الخيل .

وقال القلاخ فى هذه القصــــة :

نُبئتُ خَوْلة قالتْ حين أنكَحَهــا : لَطالمــا كنتُ منك العارَ أنتظرُ
أنكحتَ عَبْدَيْنِ ترجو فضل مالهما فى فيك مما رجوتَ التُّربُ والحَجر
لله دَرُّ جيـــادٍ أنتَ سائسها بَرْذَنْتها وبها التَّحْجيل والغرَر [1]

وقال الفرزدق :

ألم تــــرَ أنــــا بنى دارمٍ زُرارةُ منــا أبــو مَعْبَدِ
ومنــــا الذى منع الوائــدات وأحيــا الوَئيـــدَ فلم تُوأَدِ
ألَسْنا بأصحـــابِ يوم النِّســار وأصحـــابِ ألويــة المِرْبَــد
ألسنا الذيـــن تميمٌ بهم تُســامى وتفخــر فى المَشْهَد
وناجية الخــــير والأقْرعــان وقبرٌ بـــكاظمــةَ الــمَوْرِد
إذا ما أتى قـــــبرَه عائـــذٌ أنــاخ على القـــبر بالأسْعُد
أيطلُب مجــــــــدَ بنى دارمٍ عَطِيَّةُ كالجُعَــلِ الأســـــود
ومجــــــدُ بنى دارم دونَــه مــــكانُ السِّماكَيْنِ والفرْقَــد

[1] برذنتها : جعلتها براذين ، وهى ما ليس من نتاج العرب من الخيل . والتحجيل : البياض فى قوائم الفرس . الغرو : البياض فى مقدم رأسه .

زرارة الذى ذكـــــر : هو زرارة بن عـــُدَس ، وكان زرارة يكنى أبا معبد .
أمــا قولـــه : ومنا الذى منع الوائدات ، فإنه يعنى جـــده صَعْصعة بن ناجيـــة ، وكـــانت العرب فى الجاهلية تئد البنات . ولم يكن هذا فى جميعها ، إنما كان فى تميم ابن مُرّ ثم استفاض فى جيرانهم . فهذا قول واحد . وقال قوم آخرون : بل كان فى تميم وقيس وأسد وهُذَيل وبـــكر بن وائل ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الـــلهمّ اشـــدد وَطـــأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كِسِنِى يوسف ». فأجدبوا سبع سنين ، حتى أكلوا الوَبَر بالدم ، ولهذا أبان الله عز وجل تحريم الدم ، ودل على ما من أجله قتلوا البنات، فقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ ، فهذا خبر بَيِّن أن ذلك للحاجة .

وقد روى بعضهم أنهم إنما فعلوا ذلك أنفـــة . وذكر أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى أن تمـــيما مـــنعت الـــنعمان الإتاوة . فوجه إليهم أخاه الرّيان بن المنذر ، وكانت للـــنعمان خمـــس كـــتائب : إحداها الوَضائع ، وهم قوم من الفرس كان كسرى يضعهم عنده عُدّة ومَددا ، فيقيمون سنة عند الملك من ملوك لَخْم ، فإذا كان فى رأس الحَوْل رَدهَّم إلى أهليهم وبعث بمثلهم ؛ وكتيبة يقال لها الشَّهباء ، وهى أهل بيـــت المـــلك ، وكـــانوا بيض الوجوه يسمَّون الأشاهب ؛ وكتيبة ثالثة يقال لها الصَّـــنائع، وهم صنائع الملك ، أكثرهم من بكر بن وائل ؛ وكتيبة رابعة يقال لها الـــرَّهائن ، وهـــم قـــوم كان يأخذهم من كل قبيلة فيكونون رهنا عنده ثم يوضع مكانهم مثلهم ؛ والخامسة دَوْسَر ، وهى كتيبة ثقيلة تجمع فرسانا وشجعانا من كل قبيلة. فأغزاهم أخاه ، وجلّ من معه بكر بن وائل . فاستاق النَّعَم وسبى الذراريّ. فوفدت إليه بنو تميم . فلما رآها أحب البُقيا ، فأناب القومُ وسألوه النساء . فقال النعمـــان : « كل امرأة اختارت أباها ، رُدَّت إليه ، وإن اختارت صاحبها تُركت

عـــليه » فكـــلهن اختارت أباها إلا ابنة لقيس بن عاصم ، فإنها اختارت صاحبها عمرو بن المُشَمرَج . فنذر قيس أن لا تولد له ابنة إلا قتلها ، فهذا شيء يعتلّ به من وَأد ، ويقـــول: « فعلناه أنفة » . وقد أُكذِب ذلك بما أنزل الله تعالى فى القرآن . وقال ابن عباس رحمه الله فى تأويل هذه الآية : « وكانوا لا يُورِّثون ولا يتخذون إلا من طاعن بالرمح ومنع الحريم » ، يريد الذُكْران .

وروت الـــرواة أن صعصـــعة بن ناجية لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأســـلم ، قال : « يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا فى الجاهلية أ فَيَنْفعُنى ذلك اليـــوم ؟ » . قال : « وما عملك ؟ » قال : « أَضْلَلْتُ ناقتين عُشَرَاوَيْن ، فركبت جملا ومضيت فى بُغائهما [1] . فرُفِع لى بيت حَرِيدٌ [2] فقصدته . فإذا شيخ جالس بفـــناء الدار فسألته عن الناقتين » . فقال : « ما نارُهما ؟ » قلت : « ميسم بنى دارم » . فقال : « هما عندى وقد أحيا الله بهما قوما من أهلك مضر » . فجلست معـــه لتَخرَجـــــــا إلىّ ، فإذا عجوز قد خرجت من كسْر البيت ، فقال لها : « مـــا وضعت ؟ فإنْ كان سَقْبا شاركَنا فى أموالنا ، وإن كان حائلا وَ أْدْناها » . فقـــالت العجـــوز : « وضعت أنثى » ، فقلت : « أتبيعها ؟ » قال : « وهل تبيع العرب أولادها ؟ » قلت : « إنما أشترى منك حياتها ولا أشترى رِقّها » . قـــال : « فـــبكم ؟ » قلت : « احتـــكمْ » ، قال « با لناقتين والجمل » قلت : « ذاك لك على أن يبلّغنى الجمل وإياها » . ففعل فآمنت بك يا رسول الله وقد صارت لى سُنة عَلَى أن أشترى كل مَوْءودة بناقتين عشراوين وجمل . فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومئتـــا موءودة فقد أنقذتها . فقال رسول الله صلى الله عليه وســــــــــلم :

---

(1) بغائهما : طلبهما .

(2) حريد : منعزل عن الناس .

« لا ينفعك ذلك ، لأنك لم تبتغِ به وجه الله . وإنْ تعمل فى إسلامك عملا صالحا ، تُثَب عليه ».

وأما قوله : قبر بكاظمة المورد ، فإنه يعنى قبر أبيه غالب بن صعصعة بن ناجية. وكان الفرزدق يُجير من استجار بقبر أبيه ، وكان أبوه جوادا شريفا . فممن استجار بقبر غالب فأجاره الفرزدق امرأة من بنى جعفر بنِ كلاب، خافت لما هجا الفرزدق بنى جعفر بن كِلاب أن يسميها ويسبها ، فعاذت بقبر أبيه . فلم يذكر لها اسما ولا نسبا ، ولكن قال فى كلمته التى يهجو فيها بنى جعفر بن كلاب :

عجوزٌ تصلّى الخمس عاذتْ بغالبٍ فلا والذى عاذت به لا أضيرُها

ومن ذلك أن الحجاج لما ولّى تميم بن زيد القَيْنىّ السِّنْد ، دخل البصرة . فجعل يُخرج من أهلها من شاء . فجاءت عجوز إلى الفرزدق فقالت : « إنى استجرت بقبر أبيك » ، وأتت منه بحَصَيات . فقال لها : « وما شأنك ؟ » فقالت : « إن تميم بن زيد خرج بابن لى معه ، ولا قرَّة لعينى ولا كاسبَ لى غيره » . فقال لها : « وما اسم ابنك ؟ » فقالت : « خُنَيس » فكتب إلى تميم بن زيد مع بعض مَنْ شَخَص :

تميم بن زيد لا تكونَنَّ حاجتى بظَهْرٍ فلا يَعْيا علىَّ جوابُها
وَهبْ لى خُنَيسا واحتسب فيه منَّةً لعَبرةِ أُمٍّ ما يسوغُ شرابُها
أتتنى فعاذتْ يا تميمُ بغالب وبالحفرة السافى عليها ترابُها
وقد علم الأقوام أنك ماجد وليثٌ إذا ما الحربُ شبّ شهابُها

فلما ورد الكتاب على تميم تشكك فى الاسم فقال : « أحبيش أم خنيس » ثم قال : « انظروا من له مثل هذا الاسم فى عسكرنـــا » ، فأصيب ستة ما بين حبيش وخنيس فوجـــّه بهم إليه .

ومـــنهم مُكاتَب لبنى منْقَر ظلع بمكاتبته [1] . فأتى قبر غالب فاستجار به . وأخــذ منه حَصَيات فشدّهنّ فى عمامته ثم أتى الفرزدق فأخبره ، وقال : « إنى قد قلت شعرا » فقال : « هاته » فقال :

بقَبرْ ابنِ ليلى غالبِ عُذْتُ بعدمـــا ... خَشيتَ الرَّدَى أوأن أُرَدَّعلى قَسرِ
بقبرِ امرئ تَقرى المِئينَ عظامُــــــه ... ولم يَكُ إلا غالبــــا ميتٌ يَقْرِى
فقالَ لِىَ : استَقْدِم أمامك إنمـــــــا ... فكاككَ أنْ تلقَى الفرزدقَ بالمصْرِ

فقال له الفرزدق : « ما اسمك ؟ » قال : « لَهْذَم » . قال : « يالهذم ، حُكمُك مُسَــمَّطا » . قــال : « ناقة كَوْماء سوداء الحدقة » قال : « يا جارية اطرحى إلينا حَــبْلا » ثم قــال « يا لهذم ، اخرج بنا إلى المِرْبد فألْقه فى عنق ما شئت » . فتخير العبد على عينه ثم رمى بالحبل فى عنق ناقة . وجاء صاحبها ، فقال له الفــرزدق : « اغْــدُ علىّ فى ثمنها » . فجعل لهذم يقودها والفرزدق يسوقها ، حتى إذا نفذ بها من البيوت إلى الصحراء صاح به الفرزدق : « يالهذم قَبح الله أخْسرَنا ! » .

---

[1] المكاتب : العبد الذى تعهد كتابة أن يدفع لسادته مبلغا من المال نظير حريته . وظلع بمـــكاتبته : عجز عنهـــا .

الخداع

يروى أن يزيد بن معاوية قال لمعاوية فى يوم بويع له على عهده ، فجعل الناس يمدحونه ويقرظونه : « يا أمير المؤمنين ، والله ما ندرى : أنخدع الناس أم يخدعوننا ؟ » فقال له معاوية : « كل من أردت خديعته فتخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته » .

سفارات

لما وجّه عبد الملك الشَّعْبِىّ إلى صاحب الروم فكلّمه ، قال له صاحب الروم بعد انقضاء ما بينهما : « أضمن أهل بيت المملكة أنت ؟ » قال الشعبى : « لا ولكنى رجل من العرب » فكتب معى رقعة وقال لى : « إذا أديت جواب ما جئت له ، فأدّ هذه الرقعة إلى صاحبك » . فلما رجعت إلى عبد الملك فأعطيته جواب كتابه وخبّرته بما دار بيننا مضت . ثم ذكرت الرقعة فرجعت فدفعتها إليه . فلما ولّيتُ دعانى فقال لى : « أتدرى ما فى هذه الرقعة ؟ » . قلت : « لا » قال : « فيها : العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف وَلوا أمورهم غيره » . فلما ولّيت دعانى فقال لى : « أفتدرى ما أراد بهذا ؟ » . قلت : « لا » . قال : « حسدنى عليك فأراد أن أقتلك » . فقلت : « إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يرك ». فرجع الكلام إلى ملك الروم ، فقال : « لله أبوه ، ما عدا ما فى نفسى » .

وحُدِّثت أن معاوية كان إذا أتاه عن بَطْريقٍ من بطارقة الروم كيد للإسلام، احتال له . فأهدى إليه وكاتَبَه حتى يُغْرِىَ به ملك الروم . فكانت رسله تأتيه

فتخبره بأن هناك بطريقا يؤذى الرُسُل ويطعن عليهم ويسىء عشرتهم . فقال معاوية : « أى ما فى عمل الإسلام أحبّ إليه ؟ » فقيل له : « الخفَاف الحمر ودُهْن البان » . فألطفه بهما حتى عرفتْ رسلُه باعتياده . ثم كتب إليه كتابا كأنه جواب كتاب منه ، يعْلِمُه فيه أنه وثق بما وعده به من نصره وخذلان ملك الروم ، وأمر الرسول بأن يتعرض لأن يُظهَر على الكتاب . فلما ذهبت رسله فى أوقاتها ثم رجعت إليه ، قال : « ما حدث هناك ؟ » . قالوا : « فلان البطريق رأيناه مقتولا مصلوبا » . فقال : « وأنا أبو عبد الرحمن ! » .

وحُدِّثت أن ملك الروم فى ذلك الأوان وجّه إلى معاوية : « إن الملوك قبلك كانت تراسل الملوك منا ، ويجهد بعضهم فى أن يُغْرِب على بعض . أفتأذن فى ذلك ؟ » . فأذن له . فوجَّه إليه برجلين أحدهما طويل جسيم والآخر أيِّد[1] . فقال معاوية لعمرو : « أما الطويل فقد أصبنا كفأه ، وهو قيس بن سعد بن عُبادة وأما الآخر الأيد فقد احتجنا إلى رأيك فيه » . فقال : « ههنا رجلان كلاهما إليك بغيض : محمد بن الحَنَفِيّة وعبد الله بن الزبير » . فقال معاوية : « من هو أقرب إلينا على كل حال » . فلما دخل الرجلان ، وجه إلى قيس بن سعد بن عبادة يُعْلمه . فدخل قيس فلما مَثَل بين يدى معاوية ، نزع سراويله فرمى بها إلى العلج فلبسها، فنالت ثَنْدُوَته [2] . ثم وجه إلى محمد بن الحنفية فدخل فخُبِّر بما دعى له ، فقال : « قولوا له : إن شاء فليجلس وَلْيُعْطِنى يده حتى أقيمه أو يقعدنى، وإن شاء فليكن القائم وَأنا القاعد » . فاختار الرومى الجلوس فأقامه محمد ،

[1] الأيد : القوى .
[2] الثندوة : حلمة الثدى .

وعجز ﷺ عن إقعاده ، ثم اختار أن يكون محمد هو القاعد فجذبه وأقعده ، وعجز الرومىّ عن إقامته . فانصرفا مغلوبين .

وحدثنى أحد الهاشميين أن ملك الروم وجه إلى معاوية بقـــــــارورة ، فقال : « ابعثْ إلىّ فيها من كل شىء » . فبعث إلى ابن عباس ، فقال : « لتَمْلأْ له ماء » . فـــلما ورد بها على ملك الروم ، قال : « لله أبوه ، ما أدهاه » . فقيل لابن عباس : « كيف اخترت ذلك ؟ » . فقال : « لقول الله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ » .

وقيـــل لرجل من بنى هاشم ، وهو جعفر بن محمد ، وكان يُقدَّم فى معرفتـــه : « ما طعم الماء ؟ » . فقال : « طعم الحيـــــاة » .

وكـــان قيس بن سعد شجاعا جوادا سيدا . وجاءته عجوز قد كانت تألفه ، فقال لها : « كيف حـــــالك ؟ » فقالت : « مــــا فى بيتى جُرذ » . فقال : « ما أحسن ما سألتِ ! أمــَا والله لأكثرن جُرذان بيتك » .

وكان سعد بن عبــــادة حيث توجه إلى حَوْران قسَّم ماله بين ولده . وكان لـــه حَمْل لم يشعر به . فلما وُلد له قال له عمر بن الخطاب يَعنى قيسا : « لأنْقُضَنَّ مـــا فعل سعد » . فجاءه قيس فقال : « يا أمير المؤمنين ، نصيبى لهذا المولود ولا تنقض ما فعل سعد » .

أولاد الإماء

قال السُّلَيك بن السُّلكة ، وهى أمه ، وكانت سوداء حبشية ، وكان من غربان العرب ، وهو السليك بن عُمَير السعْدى :

أَلا عَتبتْ علىَّ فصارمتْنى	وأعجبَها ذوو اللّمم الطّوالِ
فإنى يا بنة الأقوام أُربى	على فِعْلِ الوَضىِّ من الرجال
فلا تَصلى بصعلوكٍ نؤومٍ	إذا أمسى يُعَدُّ من الرجال
ولكنْ كلُّ صعلوكٍ ضروبٍ	بنصل السيف هامات الرجال
أشاب الرأسَ أنى كلَّ يومٍ	أرى لى خالةً وسْطَ الرحال
يَشقُّ علىَّ أنْ يَلْقَينَ ضَيْما	ويَعْجِز عن تَخلُّصهن مالى

قوله : وأعجبها ذوو اللمم الطوال ، يعنى الجُمَم . وقوله : على فعل الوضىِّ من الرجال ، يريد الجميل . وقوله : تصلى بصعلوك ، يقول : لا تتصلى به . وإنما توجع لخالاته لأنهن كنّ إماء .

ويروى عن رجل من قريش لم يُسَمَّ لنا قال : كنت أجالس سعيد بن المُسيَّب فقال لى يوما : « من أخوالك ؟ » . فقلت : « أمى فتاة » . فكأنى نقصت فى عينه . فأمهلتُ حتى دخل عليه سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رحمه الله . فلما خرج من عنده ، قلت : « يا عم من هذا ؟ » فقال : « يا سبحان الله ! أتجهل مثل هذا من قومك ؟ هذا سالم بن عبد الله » . قلت : « فمن أمه ؟ » قال: « فتاة » . ثم أتاه القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رحمه الله ، فجلس عنده ثم نهض فقلت : « يا عم من هذا ؟ » . فقال : « أتجهل من أهلك مثله ؟ ما

أعجب هذا ! هذا القاسم بن محمد » . قلت : « فمن أمه ؟ » . قال : « فتاة » . فأمهلت شيئا حتى جاءه على بن الحسين بن على بن أبي طالب رضى الله عنه فسلم عليه ثم نهض فقلت : « يا عم من هذا ؟ » . قال : « هذا الذى لا يسع مسلما أن يجهله . هذا على بن الحسين » . قلت : « فمن أمه ؟ » . قال : « فتاة » . قلت : « يـــا عـــم رأيـــتُنى نقصت فى عينك لما علمت أنى لأُمِّ ولد ، أفمالى فى هـــؤلاء أُســـْوة ؟ » . فجللتُ فى عينه جدا . وكانت أم على بن الحسين سُلافة من ولد يَزْدَ جِرد معروفة النسب ، وكانت من خيرات النساء .

وقـــال رجل من ولد الحـــكم بن أبي العاص ، يقال له عبيد الله بن الحُـــرِّ ، وكان شاعرا متقدما ، وكان لأم وَلدَ :

فإنْ تَكُ أمى من نساء أفاءَهـــا جياد القنـــا والمُرْهَفاتُ الصَّفائح
فَتبًّا لفضل الحُرِّ إنْ لم أنَلْ بـــه كرائمَ أولادِ النســـاء الصَّرائح

وإنما أخذ هذا من قول عنترة :

وأنا امرؤٌ من خير عبسٍ مَنصِبـــا شَطْرِى وَأَحْمِى سائرى بالمُنصُـــلِ

وأنشد لبلال بن جرير ، وبلغه أن موسى بن جرير كان إذا ذكره نسبه إلى أمه لأنه ابن أم ولد ، فيقول : « قال ابنُ أمِّ حـــكيم » . فقال بلال :

يارُبَّ خالٍ لى أغَرَّ أبْلَجَـــــا
من آلِ كسرى يَغْتَدى مُتَوَّجـــا
ليس كخالٍ لك يُدْعَى عَشْنجَـــا

والعشـــنج : المتقبض الوجه السيىء المنظر ، وكان سبب أم بلال عند جرير ، أن جريرا فى أول دخوله العراق دخل على الحـــكم بن أيوب بن أبى عَقِيل الثّقفى، وهو ابن عم الحجاج وعامله على البصرة . وفى ذلك يقول جرير :

أقْبَلْنَ من ثَهْـــلانَ أو وادى خِيَمْ
على قِلاصٍ مثل خيطان السَّلَمْ [١]
إذا قطعنَ عَلَما بدا عــــــــلم
حتى أنَخْناها إلى باب الحَــــــكَمْ
خليفة الحجاج غــــــير المتهم
فى ضِنْضِىءِ المجد وبُحْبُوح الكرم[٢]

فكتب الحـــــكم بعد أن فاطَنَه [٣] إلى الحجاج ، وذلك فى أول سببه : «إنه قـــدم علىّ أعرابى باقعة [٤] لم أر مثله » . فكتب إليه الحجاج أن يحمله معه . فلما دخل عليه ، قال له : «بلغنى أنك ذو بديهة ، فقل فى هذه الجارية » ، لجارية قائمة على رأسه . فقال جرير : «مالى أن أقول فيها حتى أتأملها ، ومالى أن أتأمل جارية الأمــير» . فقــال : «بــلى فتأمــلها واسألها» ، فقال لها : «ما اسمك يا جارية» فأمســكت . فقال لها الحجاج : «خَبِّريه يا لَخْناء» . فقالت : «أمامــــة» . فقال جرير :

---

(١) القلاص : جمع قلوص ، وهى الناقة الشابة . والخيطان : جمع خيط ، وهو الجماعة . والسلم : نوع من الشجر يدبغ به .

(٢) ضنضىء : أصل . وبحبوح الكريم : الواسع منه الغزير .

(٣) فاطنه : اختبر فطنته وعرفهـــــا .

(٤) باقعــــــة : داهيــــــة .

وَدِّعْ أمامةَ حانَ منـــك رحيلُ	إنّ الوَداعَ لمـــن يُحبُّ قليلُ
مثلَ الكَثيبِ تمايلتْ أعطافُـــه	فالرِّيحُ تَجْبُر مَتْنَه وتَهيـــل
هَذى القلوبُ صَواديا تَيَّمتهـــا	وأرى الشفاءَ وما إليـــه سبيل

فقال له الحجاج : «قد جعل الله لك السبيل إليها ، خذها هى لك» . فضرب بيده إلى يدها فتمنعت عليه فقال :

إن كان طبعـــكمُ الدلال فإنه	حسنٌ دَلالك يا أمـــامَ جميلُ

فاستضحك الحجاج ، وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة . وخُبِّرت أنها كانت من أهـــل الرىّ ، وكان إخوتها أحرارا ، فاتبعوه بها حتى بلغوا عشرين ألفا فلم يفعل . ففى ذلك يقول :

إذا عرضوا عشرين الفا تعرّضتْ	لأم حكيم حاجةٌ هى ما هيـــا
لقد زدتِ أهلَ الرى عندى مودة	وحَبَّبت أضعافا إلىّ المواليـــا

فأولدها حكيما وبلالا وحَزْرة بنى جرير ، هؤلاء من أذْكُر من ولدها .

ويقال : إن الحِمّانى قاوَل بلالا ذات يوم فيما كان بينهما من الشر ، فقـــال : «يـــا ابن أم حكيم» . فقال لـــه بلال : «ما تذكر من ابنة دهْقَان ، وأخيذة رماح وعطيـــة مَلك . ليست كأمك التى بالمرُوت تغدو على أثر ضَأنها كأنما عَقباها حافرا حمـــار» . فقال له الحمانى : «أنا أعلم بأمك إنما عتب عليها الحجاج فى أمر ، الله أعلم به ، فحلف أن يدفعها إلى ألأم العرب. فلما رأى أباك لم يشكك فيه» .

وأنشدت لرجل من رُجّاز بنى سعد :

أنا ابنُ سعدٍ وتَوَسَّطتُ العَجَمْ
فأنا فيما شئت من خالٍ وعَمْ

وقال عمر بن الخطاب رحمه الله : « ليس قوم أكْيَس من أولاد السَّرارى لأنهم يجمعون عزّ العرب ودهاء العجم » .

وكتب أمير المؤمنين المنصور إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على ابـن أبى طـالب رحمهـم الله ، لما كتب إليه محمد : « واعلم أنى لست من أولاد الطـلقاء ولا أولاد اللُّعـناء ، ولا أعرقتْ فىّ الإماء ، ولا حَضَنَتْنى أمهات الأولاد ولقـد علمتَ أن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى من قِبَل جَدَّىّ الحسن والحسين » . يعنى أن أم عـلىّ فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وأم الحسن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، وأن أمه فاطمة بنت الحسين بن عـلى بـن أبى طـالب بن عبد المطلب بن هاشم . فكتب إليه المنصور : « أما ما ذكـرت مـن ولادة هاشم عليا مرتين ، وولادة عبد المطلب الحسن مرتين ، فخير الأوَّلـين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ، ولـه السبق إلى كل خير . ولقد علمت أنه بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمومـته أربعة : فآمن به اثنان أحدهما أبى ، وكفر به اثنان أحدهما أبوك . وأما ما ذكـرت أنه لم تُعْرِق فيك الإماء ، فقد فخرت على بنى هاشم طرا ، أولهم إبراهيم ابـن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم علىّ بن الحسين الذى لم يولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مولود مثله » . وهذه رسالة للمنصور طريفة مستحسنة جدا .

وأنشدنى الرّياشىّ :

إنّ أولادَ السَّـــرارِى كثُروا يارب فينـــــا
رَبِّ أدْخِــلْنى بلادا لا أرى فيها هَجِينـــــا

والهجـــين عـــند العرب الذى أبوه شريف وأمه وضيعة ، والأصل فى ذلك أن تكـــون أمَـــة ، وإنما قيل هجين من أجل البياض . وإذا كانت الأم كريمة والأب خسيسا قيل : المُذَرَّع ، وإنما سمى مذرعا للرَّقْمَتَين فى ذِراع البغل ، وإنما صارتا فيه من ناحية الحمار .

مصعب وابنـــه

يروى عن رجل من بنى أسد بن عبد العزّى أنه زوج ابنته عمرو بن عثمان بن عفـــان . فـــلما نُصَّت عليه طلقها على المِنَصَّة . فجاء أبوها إلى عبد الله بن الزبير فقال : «إن عمرو بن عثمان طلق ابنتى على المنصة ، وقد ظنَّ الناس أن ذلك لعاهة وأنـــت عمهـــا فقم فادخل إليها» . فقال عبد الله : «أو خيرا من ذلك ، جيئونى بالمصعب » . فخطب عبد الله فزوجها من المصعب ، وأقسم عليه لَيَدْخُلنّ بها فى ليلته . فلا تعرف امرأة نُصّت على رجلين فى ليلتين ولاء غيرها . فأولدها المصعب عيســى وعُـــكّاشة . فلما كان يوم مَسْـــكَن ، وهرب أكثر الناس عن المصعب ، دخـــل إلى سُـــكَينة ابنة الحسين بن على ، وكانت له شديدة المحبة ، وكانت تخفى ذلك . فلبس غلالة ، وتوشح عليها ، وانتضى السيف . فلما رأت ذلك علمت أنه عزم ألا يرجع . فصاحت من ورائه : «واحَرَبَاه» . فالتفت إليها فقال : «أوَهذا لى فى قلـــبك ؟» . فقالت : «أى والله وأكثر من هذا » . فقال : «أما لو علمت

لـكان لى ولك شأن » . ثم خرج فقال لابنه عيسى : «يا بنى انجُ إلى نجائك فإن القـوم لا حاجـة بهم إلى غيرى ، وستفلت بحيلة أو بقيا» . فقال : «يا أبتاه ، لا أحـدِّث والله عنك أبدا» . فقال : «أما والله لئن قلت لَمَا زلت أتعرف الكرم فى أسرارك وأنت تُقلَّب فى مهدك » . فقُتل بين يدى أبيه .

الكرم

قـال عبد الله بن العباس : «ما رأيت أحدا أسعفتُه فى حاجة إلا أضاء ما بينى وبينه ، ولا رأيت رجلا رددته عن حاجة إلا أظلم ما بينى وبينه» .

وقال عبد الله بن هَمام السَّـلُولى :

فأخْلفْ وَأتْلفْ إنّما المـال عارَةٌ … فـكُلْه معَ الدهر الذى هو آكلُهْ
فأهْون مفقودٍ وَ أ يْسرُ هـالكٍ … عَلَى الحىِّ من لا يبلغ الحىَّ نائلُهْ

وقـد قيـل لعلى بن الحسين ، وَكان بَيِّن الفضل رحمه الله : « ما بالك إذا سافرت كتمت نسبك أهلَ الرفقة ؟ » .فقال : أكره أن آخذ برسول الله صلى الله عـليه وسلم مالا أُعطى مثله . وإنما يَعْتَرى هذا الباب من الظلم وَقلة الإنصـاف والـبعد من الرّقة عليهم الجَهلَة من أهل هذا النسب ، والله جلّ ذكره يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فإذا كان هو صلى الله عليه وسلم يخاف من المعصية فكيف يأمنها غيره به .

وكان يقال : من عرف حق أخيه دام له إخاؤه ، وَمن تكبر على الناس، ورجا أن يكون له صديق فقد غرّ نفسه .

وقيل : ليس لِلَجُوج تدبير ، وَلا لسيىء الخلق عيش ، ولا لمتكبر صديق .

وقيل : من بسط بالخير لسانه انبسطت فى القلوب محبته ، والمِنّة تفسد الصنيعة .

ويروى أن شاعرا أتى أبا البَخْتَرِىّ وَهب بن وهب ، وكان من أجود الناس ، وَكان إذا سمع مدح المادح ضحك وَسرَى السرور فى جوانحه وأعطى وزاد ، فأتاه هذا الشاعر فأنشده :

لكلٍّ أخى فضل نصيبٌ من العلا	ورَأسُ العُلا طُراً عَقيدُ النَّدَى وَهْب
ومَاضَرَّ وَهبا قولُ من غَمَط العلا	كما لا يَضُرّ البدرَ ينبحهُ الكلب

فثنى له الوسادة وَهَش إليه وَرَفَده وَحمله وَأضافه . فلما أن أراد الرجل الرحلة لم يخدمه أحد من غلمان أبى البخترى وَلا عَقَد له وَلا حَلَّ معه . فأنكر ذلك مع جميل ما فُعِل به ، وأنه قد تجاوز به أمله . فعاتب بعضهم فقال له الغلام : « إنما نعين النازل عَلَى الإقامة ولا نعين الراحل عَلَى الفراق » . فبلغ هذا الكلام جليلا من القرشيّين فقال : « وَالله لَفِعْلُ هؤلاء العبيد عَلَى هذا القصد أحسن من رِفْد سيدهم » .

مجلس عبد الملك بن مروان

قـال عبد الملك بن مروَان يوما لجلسائه ، وكان يجتنب غير الأدباء : « أى المناديل أفضل ؟ » فقال قائل منهم : « مناديل مصر كأنها غِرْقِىء البيض » ، وَقال آخر : « مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع » . فقال عبد الملك : « ما صنعتما شيئا، أفضل المناديل ما قال أخو تميم » يعنى عَبْدة بن الطبيب :

لما نزلْنـا نصبْنا ظـِـلَّ أخْبِيةٍ	وفار للقوم باللحم المَراجِـيـلُ
وَرْدٌ وأشْقَرُ ما يُؤْنيه طابخُـه	ما غَيَّرَ الغَلْىُ منه فهو مأكـول
ثُمَّتَ قُمْنا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمـةٍ	أعْرافُهنّ لأيدينـا منـاديـل

قوله : غرقئ البيض ، يعنى القشرة الرقيقة التى تركب البيضة دون قشرها الأعـلى ، وقشرها الأعلى يقال لـه القَيض . وقوله : وَرد وَأشقر ما يؤنيه طابخه يقـول : ما تغير من اللحم قبل نضجه . وقوله : ما يؤنيه طابخه ، يقول : ما يؤخره لأنه لو أناه لأنضجه ، لأن معنى أناه بلغ به إناه أى إدراكه ، قال الله عـز وجل : ﴿ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾. وَقوله : مسومة ، تـكون على ضربين : أحدهما أن تكون مُعْلَمة ، والثانى أن تكون قد أُسِيمت فى المَرْعَى ، وهى ههنا معلمة .

كثير عزة

حُدثت أن عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة أتى المدينة فأقام بها . ففى ذلك يقول :

يا خَليلىَّ قـد مللتُ ثَوائى	بالمُصَلّى وقـد شَنِئتُ البقيعـا

فـــلما أراد الشـــخوص شَخَص معه الأحوص بن محمد ، فلما نزلا وَدّان صار إليهمـــا نُصَيب . فمضى الأحوص لبعض حاجته فرجع إلى صاحبيه ، فقال : «إنى رأيـــت كُـــثَيِّرا بموضع كذا» . فقال عمر : «فابعثوا إليه ليصـــير إلينا» . فقـــال الأحـــوص : «أهـــو يصير إليكم ؟ هو والله أعظم كِبْرا من ذلك» . قال : «فإذا نصـــير إليه» . فصاروا إليه وهو جالس على جلد كبش ، فوالله ما رفع منهم أحدا ولا القرشـــىّ . ثم أقـــبل عـــلى القرشى فقال : «يا أخا قريش ، والله لقد قلت فأحسنت فى كثير من شعرك ، ولـــكن خبرنى عن قولك :

قالتْ لهـــا أختُهـــا تعاتبُهـــا ... لا تُفْسِدنَّ الطـــوافَ فى عُمَرِ
قُومى تَصَـــدّىْ لـــه لِيُبْصِرَنـــا ... ثم اغْمزِيه يا أختُ فى خَفَـــر
قالتْ لهـــا قـــــد غمزتُه فأَبى ... ثم اسْبَطَرَّتْ تشتدّ فى أثَـــرى

والله لو قلت هذا فى هِرّة ما عدا ، أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك أهكذا يقـــال لـــلمرأة ؟ إنما توصف بالخَفَر وأنها مطلوبة ممتنعة . هَلاّ قلت كما قال هذا وضرب بيده على كتف الأَحْوَص :

أدورُ ولـــــولا أن أرَى أمّ جعفر ... بأبياتكم مـــا درتُ حيث أدُورُ
وما كنت زَوّارا ولكنّ الهـــوى ... إذا لم يُزَرْ لا بـــدّ أنْ ســـيزور
لقد منعتْ معروفَهـــا أمُّ جعفر ... وإنى إلى معروفهـــا لفقـــير

فامتلأ الأحوص سرورا . ثم أقبل عليه فقال : يا أحوص ،خبرنى عن قولك :
فإنْ تَصِلى أصِلْكِ وإنْ تعودى ... لهَجْر بعد وَصلِك لا أبالى

أمـــا والله لو كنت من فحول الشعراء لباليت ، هلا قلت مثل ما قال هذا . وضرب بيده على جنْب نصيب :

بزينب أَلْمِمْ قبلَ أن يَظْعَنَ الرَّكْبُ وقُلْ إنْ تَمَلِّينا فما مَلَّكِ القلبُ

فانتفخ نصيب . ثم أقبل عليه فقال : « ولكن أخبرني عن قولك يا أسود :

أهيمُ بدَعْدٍ ما حَيِيتُ وإنْ أَمُتْ فواحَزَنا من ذا يهيم بها بعدى ؟

كـــأنك اغتممت أن لا يُفعل بها بعدك » . فقال بعضهم لبعض : « قوموا فقد استوت القرِفْة » . وهى لعبة على خطوط فاستواؤها انقضاؤهـــا .

وحُدِّثْــت أن كُـــثَيرا دخـــل على عبد الملك بن مروان ، وعنده الأخطـــل ، فأنشده . فالتفت عبد الملك إلى الأخطل فقال : « كيف تـــــــــرى ؟ » فقال : « حجـــازى مُجــوَّع مقرور ، دعنى أَضْغَمهُ يا أمير المؤمنين » . فقال كثير : « من هـــذا يـــا أمير المؤمنين ؟ » . فقال له : « هذا الأخطل » . فقال له كثير : « مهلا ! فهـــلا ضغمتَ الذى يقول :

لا تَطْلُبنّ خُـــؤولةً فى تغلبٍ فالزَّنْجُ أكرمُ منهـــــــمُ أخوالا
والتَّغْلَبِيّ إذا تَنَحْنَـــح للقِرَى حَكَّ استَه وتَمثّل الأمثـــــــالا

فسكت الأخطل فما أجابه بحرف » .

نصيب

خُـبِّرت أن نُصَـيبًا نـزل بامرأة تُكـنَى أم حبيب من أهـل مَلَل ، وكانت تُضـيف فى ذلـك الموضـع وتَقرى ، ولا يزال الشريف قد نزل بها فأفضل عليها الفضـل الكـثير ، ولا يـزال الشريف ممن لم يَحْلُل بها يتناولها بالبر ليعينها على مُرُوءتها. فنزل بها نصيب ومعه رجلان من قريش . فلما أرادوا الرحلة عنها وَصَلها القرشيّان ، وكان نُصيب لا مال معه فى ذلك الوقت ، فقال لها : «إن شئت فلك أن أُوجِّـه إليك بمثل ما أعطاك أحدهما ، وإن شئت قلتُ فيك شعرا» . فغَزِلت أمّ حبيب فقالت : «بل الشعر» . فقال :

ألاَ حَيِّ قبـلَ البَيْن أمّ حبيبِ ... وإن لم تـكن منـا غدا بقريبِ
وإنْ لم يكن أنى أحبك صادقـا ... فما أحدٌ عنـدى إذا بحبيب
تَهـامٍ أصابتْ قلبَه مَلليَّـةٌ ... غريبُ الهوى وَاهـا لكل غريب

وحُدثت أن نصيبا أتى عبد الملك فأنشده . فاستحسن عبد الملك شعره وسُرّبه فوصـله . ثم دعا بالغداء فطَعِم معه . فقال له عبد الملك : «يا نصيب ، هل لك فيما يُتنادَم عليه ؟» فقال : «يا أمير المؤمنين ، تأمّلنى» قال : «قد أراك». فقال : «يـا أمـير المؤمـنين ، جلدى أسود ، وخَلْقى مشوّه ، ووجهى قبيح ، ولست فى منصـب ، وإنمـا بلغ بى مجالستك ومؤاكلتك عقلى . وأنا أكره يا أمير المؤمنين أن أدخل عليه ما ينقصه» . فأعجبه كلامه ، فأعفاه .

وقـال الوليد بن عبد الملك للحجاج فى وَفْدة وَفدها عليه ، وقد أكلا : «هل لـك فى الشـراب ؟» فقال : «يا أمير المؤمنين ، ليس بحرام ما أحللتَه ، ولكنى

أمنع أهل عملى منه وأكره أن أخالف قولَ العبد الصالح : وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » . فأعفاه .

وقال مَسْلمة بن عبد الملك يوما لنصيب : « أمدحتَ فلانا ؟ » لرجل من أهله. فقال : « قد فعلت » . قال : « أوَ حرمك ؟ » قال : « قد فعل » . قال : « فهَلاّ هجوته » . قال : « لم أفعل » . قال : « ولم ؟ » قال : « لأنى كنتُ أحق بالهجاء منه ، إذ رأيته موضعا لمدحى » . فأعْجِب به مسلمة . فقال : « اسألنى » قال : « لا أفعل » قال : « ولم ؟ » فقال : « لأن كفك بالعطية أجود من لسانى بالمسألة » فوهب له ألف دينار .

وحُدثت أن الكميت بن زيد أنشد نصيبا فاستمع له . فكان فيما أنشده :

وقد رأينا بها حُورا مُنعَّمة   بيضا تكاملَ فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ[1]

فثنى نصيب خنصره . فقال له الكميت : « ما تصنع ؟ » فقال : « أحصى خطأك » . تباعدتَ فى قولك : تكامل فيها الدل والشنب ، هلا قلتَ كما قال ذو الرمّة :

لمياء فى شفتيها حُوّةٌ لَعَسٌ   وفى اللثاتِ وفى أنيابها شَنَبُ[2]

ثم أنشده فى أخرى :

كأنّ الغَطامِط من جَرْيِها   أراجيزُ أَسَلْمَ تهجو غِفارا[3]

---

(1) الدل : الدلال . والشنب : عذوبة الأسنان ورقتها .

(2) لمياء : سوداء الشفة . والحوة واللعس : حمرة تضرب إلى سواد قليلا .

(3) الغطامط : جمع غطمطة ، وهى اضطراب أمواج البحر .

فقال له نصيب : «ما هجت أسلم غفارا قط » . فاستحيا الكميت فسكت.

والذى عابه نصيب من قوله تكامل فيها الدل والشنب قبيح جدا ، وذلك أن الكلام لم يجر على نظم ، ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها . وأول ما يُحتاج إليه القول أن يُنْظَم على نسق وأن يوضع على رسم المشاكلة .

وخُبّرت أن عمر بن لَجَأ قال لابن عم له : «أنا أشعر منك» . قال له: «وكيف ؟» قال : «لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه» .

وأنشد عمرو بن بحر :

وشِعْر كبعرِ الكبشِ فَرّق بينه ... لسانُ دَعِيٍّ فى القَريضِ دخيل

وبعر الكبش يقع متفرقا . فمن ذلك قول ابنة الحطيئة له لما نزل فى بنى كليب بن يربوع : «تركت الثروة والعدد ونزلت فى بنى كليب : بعر الكبش» .

أقوال سيارة

يروى أن عائشة رحمها الله نظرت إلى رجل مُتماوِت ، فقالت : «ما هذا ؟» . فقالوا : «أحد القراء » . فقالت : «قد كان عمر بن الخطاب قارئا ، فكان إذا قال أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع » .

ويروى أن عمر بن الخطاب رحمه الله نظر إلى رجل مُظهر للنسك متماوت، فخفَقَه بالدرّة وقال : «لا تُمت علينا ديننا أماتك الله » .

وحُدِّثــت أن الحســـن نظر إلى رجل يجود بنفسه فقال : « إن أمرا هذا آخره لَجَدير بأن يُزْهد فى أوله ، وإنّ أمرا هذا أوله لجدير أن يُخاف آخره » .

وقيل لرجل من أشراف العجم فى علته التى مات فيها : « ما بك ؟ » قـــال : « فكـــر عجيب ، وحسرة طويلة » . فقيل : « مم ذاك ؟ » فقال : « ما ظنكم بمن يقطع سفرا قفرا بلا زاد ، ويسكن قبرا موحشا بلا مؤنس ، ويقدم على حكم عادل بلا حجة » .

الإخـــوان

قيل لخالد بن صَفْوان : « أى إخوانك أحب إليك ؟ » فقال : « الذى يَسُد خَلَلى ، ويَغفر زَلَلى ، ويقبل عِللى ».

وافتقد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب صديقا له من مجلسه ثم جاءه فقال له : « أيـــن كـــانت غيبـــتك ؟ » فقال : « خرجت إلى عُرْض من أعراض المدينـــة مع صـــديق لى » . فقال له : « إن لم تجد من صحبة الرجال بُدّا ، فعليك بصحبة من إنْ صـــحبتَه زانك ، وَ إن خففت له صانك ، وَ إن احتجت إليه مانك[1] ، وَ إن رأى منك خَلّة سَدّها أو حسنة عدّها ، وإن وَعدك لم يُجْرِضك[2] ، وَ إن كَثُرت عليه لم يرفضك ، وَ إن سألته أعطاك ، وَ إن أمسكت عنه ابتداك » .

---

(1) ما نك : احتمل مئونتك .

(2) يجرضك : يجهدك بكثرة الوعـــود .

الجـــود

امتدح نصيب عبد الله بن جعفر فأمر له بخَيْل وإبل و أثاث وَ دنانير ودَراهم . فقال له رجل : «أمثل هذا الأسود يعُطى مثل هذا المال ؟ !» . فقال له عبد الله ابـــن جعفر : «إن كان أسود فإن شعره لأبيض ، وَ إن ثناءه لعربي ، وَ لقد استحق بما قال أكثر مما نال . و هل أعطيناه إلا ثيابا تبلى ، ومالا يفنى ، ومطايا تُنْضَى [1]، وَ أعطانا مدحا يُرْوَى ، وَثناء يبقى» .

وقيل لعبد الله بن جعفر : «إنك لتبذل الكثير إذا سُئلت ، وَ تضيّق فى القليل إذا تُوجِرت» . فقال : «إنى أبذل مالى وأضنّ بعقلى» .

وقيل ليزيد بن معاوية : «ماالجور ؟» فقال : «إعطاءُ المال من لا تعرف فإنه لا يصير إليه حتى يتخطّى من تعرف» .

وقيـــل لخُرَيم المُرىّ ، وهو المُنبَّز بخُرَيم الناعم : «ما النعمة ؟» فقال : «الأمن فإنـــه ليس لخائفٍ عيش ، والغنى فإنه ليس لفقير عيش ، والصحة فإنه ليس لسقيم عيش» ، قيل : «ثم ماذا ؟» قال : «لا مزيد بعد هذا» .

وقـــال سَلْم بن قُتَيبة : «الشباب الصحة ، والسلطان الغنى ، والمروءة الصبر على الرجال» .

---

[1] تنضى : تهزل من كثرة ركوبهـــــا .

وقـــال المهلّب بن أبي صفرة : « العجب لمن يشترى المماليك بماله ولا يشترى الأحرار بمعروفه » .

وقـــال خـــالد بن عبد الله القسرى : « محض الجود ما لم تسبقه مسألة ، وما لم يتبعه مَنّ ، وَلم يُزْر به قِصَر ، ووافق موضع الحاجة » .

وقال بعض المُحْدَثين ، وهو الطائى :

أسائلَ نَصْر لا تَسَلْهُ فإنه أَحَنُّ إلى الإرفادِ منك إلى الرِّفْدِ

ودخـــل النَّخار العُذْرِىّ على معاوية فى عَباءة فاحتقره . فرأى ذلك النخار فى وجهه ، فقال له: « يا أمير المؤمنين ، ليست العباءة تكلمك ، إنما يكلمك من فيها » ثم تكـــلم فملأ سَمْعَه ثم نهض ولم يسأله ، فقال معاوية : « ما رأيت رجلا أَحْقَر أوّلا ولا أجلّ آخرا منـــــه » .

ودخل محمد بن كعب القُرَظى على سليمان بن عبد الملك فى ثياب رَثّة . فقال لـــه سليمان : « ما يحملك على لبس مثل هذه الثياب ؟ » فقال : « أكره أن أقول الزهد فأطرى نفسى ، أوقول الفقر فأشكو ربى » .

ونظـــر أعـــرابى إلى رجل جيد الكُدْنة [1] فقال : « يا هذا ، إنى لأرى عليك قَطِيفةً محـــكمة من نَسْج أضراســـك » .

---

[1] ضخامة الجســـــم .

الجود والبخل

قال رجل من المتقدمين ، وهو قيس بن عاصم المِنْقَرىّ :

أيَــا ابْنةَ عبدِ الله وابْنــةَ مالك ... ويابنةَ ذى البُرْدَيْنِ والفَرَس الوَرْدِ
إذا ما أصبتِ الـــزادَ فالتمسى له ... أكيلا فإنّى لستُ آكــله وحدى
قَصيا كريمـــا أو قريبـــا فإننى ... أخافُ مَذمّاتِ الأحاديث من بعدى
وإنى لَعَبْدُ الضيفِ ما دام ثاويـــا ... وما من خلالى غيرَها شيمةُ العبد

الصـــدق

يروى أن الحجاج جلس لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقام رجل منهم فقال: «أصلح الله الأمير ، إنّ لى عليك حقـــا».قال: «وما حَقُّك ؟» . قال : «سَبَّك عبد الرحمن يوما فرددت عليه» . قال : «من يعلم ذاك ؟» . قال : «أنْشدُ الله رجلا سمع ذاك إلا شهد به» . فقام رجل من الأُسراء فقال : «قد كان ذاك أيهـــا الأمير » . قال : «خَلوا عنه» . ثم قال للشاهد : «فما منعك أن تنكر كما أنكر» . قال : «لقديم بغضى إياك» . . قال : «ويُخَلّى عنه لصدقه» .

البغض

قال عمر بن الخطاب لرجل ، وهو أبو مريم السَّلُولىّ : «والله لا أحبك حتى تحبّ الأرض الدم» . قال : «أفَتمنعنى حقا ؟» قال : «لا» . قال : «فلا بأس ، إنما يأسف على الحب النساء» .

وقال الحجاج لرجل من الخوارج : «والله إنى لأبغضكم» . فقال له الخارجى : «أدخلَ الله أشَدَّنا بغضا لصاحبه الجنة» .

جواب

دخل يزيد بن أبى مُسْلِم على سليمان بن عبد الملك ، وكان دميما . فلما رآه قال : «قَبَح الله رجلا أجَرَك رَسَنه وأشركك فى أمانته» . فقال له يزيد : «يا أمير المؤمنين ، رأيتنى والأمرُ لك ، وهو عنى مدبر ، ولو رأيتنى والأمر علىّ مقبل لاستكبرت منى ما استصغرت، واستعظمت منى ما استحقرت» . فقال : «أتُرَى الحجاج استقرّ فى قعر الجحيم بعد ؟» . فقال : «يا أمير المؤمنين ، لا تقل ذاك ، فإن الحجاج وَطّأ لكم المَنابر ، وأذل لكم الجَبابر ، وهو يجىء يوم القيامة عن يمين أبيك وعن يسار أخيك ، فحيث كانا كان » .

كذب الأعراب

حدثنى أبو عمر الجَرْمىّ قال : سألت أبا عبيدة عن قول الراجز :

أهَدَّمُوا بيتَك لا أبالَــكا   وأنا أمشى الدَّألى حَوالَــكا

فقلت : «لمن هذا الشعر ؟» . فقال : «هذا يقوله الضب للحِسْل أيام كانت الأشــياء تتــكلم» . الدألى : مشى كمشى الذئب ، يقال : هو يدأل فى مشيه ، إذا مشى كمشية الذئب .

وحدثنى غير واحد من أصحابنا قال : قيل لرؤبة : «ما قولك :

لو أننى عُمِّرتُ سِنَّ الحِسْل   أو عمرَ نُــوحٍ زمنَ الفِطَحْلِ
والصخر مُبْتَلٌّ كمِثْلِ الوَحْلِ

مــا زمن الفطحل ؟ » قال : «أيام كانت السِّــلام[1] رطابــا» . قوله : سن الحسل مثل تضر به العرب فى طول العمر .

وحدثــنى ســـليمان بن عبد الله عن أبى العميثل مولى العباس بن محمد ، قال : تكــاذب أعرابيان ، فقال أحدهما : «خرجت مرة على فرس لى فإذا بظلمة شديدة فيممـــتها حتى وصلت إليها . فإذا قطعة من الليل لم تنتبه . فما زلت أحمل بفرسى عـــليها حتى أنبهتها فانجابت» . فقال الآخر : «لقد رميت ظبيا مرة بسهم ، فعدل الظبى يمنة فعدل السهم خلفه ، فتياسر الظبى فتياسر السهم خلفه ، ثم علا الظبى ، فعلا السهم خلفه ، فانحدر عليه حتى أخذه » .

---

[1] الســلام : جمع سلمة ، وهى الحجارة الصلبة .

وتزعم الرواة أن عروة بن عتبة قال لابنى الجون الكنديين يـــــــوم جبلة : «إن لى عــليــكما حقا لرحلتى ووفادتى، فدعونى أنذر قومى من موضعى هذا». فقالوا : «شأنك» . فصرخ بقومه ، فأسمعهم على مسيرة ليلة .

ويـــروى عن حماد الراوية قال : قالت ليلى بنت عروة بن زيد الخيل لأبيها : أرأيت قول أبيك :

بنى عامرٍ هل تعرفـــــون إذا غدا	أبو مِكْنفٍ قد شدَّ عقْدَ الدوائـــر
بجيش تَضلُّ البُلْقُ فى حَجراتــــه	ترى الأَكْمَ منه سُجَّدا للحوافر
وجمعٍ كمثل الليل مُر تجس الوغى	كثير تَواليه سريع البـــــوادر
أبتْ عادةٌ للورْدِ أن يكره الوغى	وحاجةُ رُمْحى فى نُمير بن عامـــر

فقلت لأبى : «أحضرتَ هذه الوقعة ؟» فقال : «نعم ؟» قلت: «فكم كانت خيــلكم ؟» . قــال : «ثلاثة أفراس أحدها فرسه» . فذكرت هذا لابن أبى بكر الهـــذلى ، فحدثـــنى عن أبيه ، قال : «حضرت يوم جبلة» .وكان قد بلغ مئة سنة وكان قد أدرك أيام الحجاج ، قال : «فكانت الخيل فى الفريقين مع ما كان مع ابنى الجـــون ثلاثـــين فرســـــا» . فحدثـــت بهذا الحديث الخثعمى ، وكان راوية أهل الـــكوفـــة ، فحدثنى أن خثعم قتلت رجلا من بنى سليم بن منصور ، فقالت أخته ترثيــــــه :

لَعَمْرِى ومـــا عمرى علىّ بهيّنٍ	لَنِعْمَ الفتى غــــادرتمُ آل خثعما
وكان إذا ما أورد الخيلَ بيشةً	إلى جنب أشراجٍ أنـــاخ فألْجَما
فأرْسَلَها رَهْوا رعــالا كأنّها	جرادٌ زَهَتْه ريـــحُ نجدٍ فأتْهما

فقيـــل لهـــا : «كم كانت خيل أخيك ؟» فقالت : «اللهم إنى لا أعرف إلا فرســـــه» .

قولـــه : قد شد عقد الدوائر ، يريد عقد دوائر الدرع ، فإن الفارس إذا حمى فعل ذلك . وقولـــــه: تضل البلق فى حجراته ، يقول : لكثرته لا يرى فيه الأبلق والأبـــلق مشهور المنظر لاختلاف لونيه . وحجراته : نواحيه . وقوله : ترى الأكم مـــنه سجدا للحوافر ، يقول : لكثرة الجيش يطحن الأكم حتى يلصقها بالأرض . وقولـــه : كمثل الليل ، يقول : كثرة فيكاد يسد سواده الأفق . والمرتجس : الذى يســـمع صوته ولا يبين كلامه . وقوله : فأرسلها رهوا ، يقول : ساكنة . ورعال : جمع رعيل ، وهو ما تقدم من الخيل . وقوله : زهته ريح نجد فأتهما ، يقول : رفعته واستخفته ، ومعنى أتهم أتى تهامة .

وحدثـــنى الـــتوزى قـــال : سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب. فقال لى : إن العجم تكذب فتقول : كان رجل ثلثه من نحاس ، وثلثه من رصاص ، وثلثه ثلج ، فتعارضها العرب بهذا وما أشبهه . ومن ذلك قول مُهَلْهِل بن رَبيعة :

فلولا الريحُ أَسْمَعَ من بحَجْر   صَليل البَيْضِ تُقْرَع بالذُكورِ

وحدثنى عمرو بن بحر قال : أتيت أبا الربيع الغَنَوى ، وكان من أفصح الناس وأبـــلغهم ، ومعى رجل من بنى هاشم : فقلت : «أبو الربيع ههنا ؟» . فخرج إلىّ وهـــو يقـــول : «خرج إليك رجل كريم» . فلما رأى الهاشمى استحيا من فخره ، فقـــال : «أكرمُ الناسِ رَديفا ، وأشرفهم حَليفا» . فتحدثنا مليّا ، ثم نهض الهاشمى . فقـــلت لأبى الربيع : «يا أبا الربيع ، مَنْ خير الخلق ؟» فقال : «الناس والله» .

فقـــلت : «من خير الناس ؟» قال : «العرب والله» قلت : «فمن خير العرب ؟» قال: «مضر والله» قلت : «فمن خير مضر ؟» قال : «قيس والله» قلت : «فمن خير قيس ؟» قال : «يَعْصُر والله» قلت : «فمن خير يعصر؟» قال: «غَنِىّ والله» قــلت : «فمـــن خير غنى ؟» قال : «المخاطب لك والله» قلت : «أفأنت خير الـــناس ؟ ». قـــال : «نعم إى والله» قلت : «أيســـرك أن تحتك بنت يزيد بن المهلب ؟» قال : «لا والله» قلت : «ولك ألف دينار ؟» قال: «لا والله» قلت : «فألفا دينار ؟» قال : «لا والله» قلت : «ولك الجنة» فأطرق ثم قال : «على أنْ لا تلد منى» .

قولـــه : أكرم الناس رديفا ، فإن أبا مَرْثد الغنوّى كان رديف رسول الله صلى الله عـــليه وسلم . وقوله : وأشرفهم حليفا ، كـــــــان أبو مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب .

ومـــن ذلك ما يَحْـــكُون فى خبر لُقْمان بن عـــــاد . فإنهم يصفون أن جارية له سُئلت عما بقى من بصره لدخوله فى السن ، فقالت : «والله لقد ضعف بصره، وَلقـــد بقيـــت منه بقية : إنه ليفصل بين أثر الأنثى والذكر مِنَ الذّر إذا دبّ على الصفا» . فى أشياء تشاكل هذا من الـــكذب .

وَحُدّثت أن امرأة عِمران بن حَطّان الســـّدوسى قالت : «أمـــا حلفت أنك لا تـــــكذب فى شـــعر ؟» فقال لها : «أوَ كان ذلك ؟» قالت «نعم ، قلتَ :

فــكذاك مَجْزَأَةُ بن ثـــــورٍ كـــان أشـــجعَ من أسامَـــه

أيكون رجل أشجع من أســـد ؟» . فقال لها : «ما رأيتُ أسدا فتح مدينة قطّ ، ومجزأة بن ثور قد فتح مدينة» .

قال الأصمعي : قلت لأعرابي كنت أعرفه بالكذب : « أصدقت قط ؟ » قال : « لو لا أني أخاف أن أصدق في هذا لقلت لك » .

وتحدثوا من غير وجه أن عمرو بن مَعدى كَرب كان معروفا بالكذب ، وقيل لخَلَف الأحمر ، وكان شديد التعصب لليمن : « أكان عمرو بن مَعْدى كرب يكذب ؟ » فقال : « كان يكذب فى المقال ، ويَصْدُق فى الفعال » .

وذكروا من غير وجه أن أهل الكوفة من الأشراف كانوا يظهرون بالكناسة، فيتحدثون على دوابهم إلى أن يطردهم حرّ الشمس . فوقف عمرو بن معدى كرب . وخالد بن الصقْعَب النهدى . فأقبل عمرو يحدثه ، فقال : « أغَرْنا مرة على بنى نَهْد فخرجوا مُستَرْعفين بخالد بن الصقعب . فحملتُ عليه فطعنته فأرديتهُ . ثم ملْتُ عليه بالصمْصامة فأخذت رأسه» . فقال له خالد : « حِلا أبا ثور ، إن قتيلك هو المحدِّث » . فقال : « يا هذا ، إذا حُدِّثت فاستمع ، فإنما نتحدث بمثل ما تسمع لتُرهَب به هذه المعَدّيّة » .

قوله : مسترعفين ، يقول : مُقدِّمين .

وخُبّرت أن قاصا كان يكثر الحديث عن هَرِم بن حيان . فاتفق هرم معه فى مسجد ، وهو يقول : « حدّثنا هرم بن حيّان » . مرة بعد مرة ، بأشياء لا يعرفها هرم . فقال له : « يا هذا ، أتعرفنى ؟ أنا هرم بن حيان ، ما حدثتك من هذا بشىء قط » . فقال له القاصّ : « وهذا أيضا من عجائبك ، إنه ليصلى معنا فى مسجدنا خمسة عشر رجلا ، اسم كل رجل منهم هرم بن حيان ، كيف توهمتَ أنه ليس فى الدنيا هرم بن حيان غيرك ؟ » .

وكان بالرَّقّة قاص يكنى أبا عقيل يكثر التحدث عن بنى إسرائيل ، فيُظَن به الكـــذب ، فقال له يوما الحجاج بن حَنْتَمة : « ما كان اسم بقرة بنى إسرائيل ؟ » قال : « حَنْتَمة» . فقال لـــه رجل من ولد أبي موسى الأشعرى : « فى أى الكتب وجدت هذا ؟ » قال : « فى كتاب عمرو بن العاص » .

ويُـــروى أن رجـــلا وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فكَذَبه . فقـــال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أأسألك فَتَكذِ بُنى ؟ لولا سخاء فيك وَ مِقَك الله عليه ، لشرَّدْتُ بك مِنْ وافدِ قوم » . معنى ومقك أحبّك .

ويـــروى أن رجـــلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « يا رسول الله، إنمـــا أُوخَـــذ مـــن الذنوب بما ظهر . وأنا أستسر بخلال أربع : الزنا والسَّرَق وشرب الخمر والـــكذب ، فأيّهن أحببتَ تركت لك سرا » . فقـــال رسول الله : « دع الـــــكذب » . فلما ولى من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم همّ بالزنا فقـــال : يسألنى رسول الله فإن جحدتُ نقضتُ ما جعلت له ، وإن أقررت حُددتُ فلم يزن . ثم همّ بالسرق ثم هم بشرب الخمر ففكر فى مثل ذلك فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ، قد تركتهُنّ جُمَع ».

اللســـان

قـــال ابن المُقَفـــع : « إذا كثُر تقليب اللسان رَقّتْ جوانبه ولانتْ عَذَبَته » .
وقال العتّابىّ: « إذا حبُس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه مخـــارج الحروف» .

وحدثنى من لا أحصى من أصحابنا . قال معاوية يوما : «من أفصح الناس ؟» فقام رجل من السِّماط فقال : «قوم تَباعدوا عن فُراتيّة العراق ، وتَيَامَنُوا عن كشكشة تميم ، وتياسَرُوا عن كَسْكسة بكر ، ليس فيهم غَمْغَمة قُضاعة ، ولا طُمْطُمانيّة حِمْير » . فقال له معاوية : «من أولئك ؟» فقال : «قومى يا أمير المؤمنين» . فقال له معاوية : «من أنت ؟» قال : «أنا رجل من جَرْم» . قال الأصمعى : وجَرْم من فصحاء الناس . قوله : تيامنوا عن كشكشة تميم ، فإن بنى عمرو بن تميم إذا ذكرت كاف المؤنث فوقفت عليها أبدلت منها شينا لقرب الشين من الكاف فى المخرج ، وأنها مهموسة مثلها ، فأرادوا البيان فى الوقف لأن فى الشين تفشيا فيقولون للمرأة : جعل الله لك البركة فى دارِش ، ويحك مالِشْ ، والتى يُدْرِجونها يَدَعونها كافا ، والتى يقفون عليها يُبدلونها شينا . وأما بكر فتختلف فى الكسكسة ، فقوم منهم يبدلون من الكاف سينا كما يفعل التميميون فى الشين ، وهم أقلهم ، وقوم يبينون حركة كاف المؤنث فى الوقف بالسين فيزيدونها بعدها فيقولون : أعطيتُكِسْ .

غزل ولهو وغناء

قال محمد بن عبد الله بن نُمَير الثّقَفِىّ :

لم تَرَ عينى مثلَ سربٍ رأيتُه ... خَرَجْنَ من التنعيم مُعْتَجِرات [1]
مَرَرْنَ بفَخّ ثم رُحْنَ عَشيّةً ... يُلَبِّيَن للرحمن مُؤْتَجِرات
تَضوّع مِسْكا بطنُ نَعمْانَ أنْ مَشَتْ ... به زينبٌ فى نسوة عَطِرات

[1] معتجرات : قد لوين على رؤوسهن أثوابا من غير إدارة تحت الحنك .

وقامتْ تَرَاءَى يــومَ جَمْعٍ فأفتنَتْ — برؤيتها مَنْ راح من عَرفـــات

ولما رأتْ رَكْبَ النُّمَيْرِىّ أعرضت — وكنّ مـــن أنْ يَلْقَيْنَه حَذِرات

دعتْ نسْوةً شُمَّ العَرانين بُدّنـــا — نَواعمَ لا شُعْثا ولا غَـــبِرات

فأدْنَيْن لما قمن يَحْجُبْنَ دونهـــا — حجابا مـــن القَسّىِّ والحِبَرات

أحلَّ الذى فوقَ السموات عرشُه — أوانسَ بالبطحـــاء مُعْتمـــرات

يُخَبِّئْنَ أطرافَ البنَان مـــن التُّقَى — ويَخْرُجْنَ جُنْحَ الليلِ مُخْتَمِرات

قوله : مثل سرب رأيته ، هو القطعة من النساء أو من الظباء أو من البقـــر أو مـــن الطـــير ، فهذا يعنى نساء . والبدّن : واحدها بادن ، وهو العظيم البدن . والأشعث والشعثاء : الخاليان من الدهن .

وقـــال عمر بن أبى ربيعة ، ونظر إلى أم عمر بنت مروان بن الحكم ، وكانت صارت إليه متنكرة ، فرأته وقضت من محادثته وطرا ، ثم انصرفت . فلما رجعت مـــن منًى عرفها ، فعلمت ذلك فبعثت إليه : « لا ترفع بى صوتا » وأهدت له ألف دينار فاشترى بها عطرا وبَزًّا وأهداه لها ، فأبت أن تقبله . فقال : « إذا والله أُنهبه فيكون أذْيَعَ له » . فقبلته وفى ذلك يقول :

وكم من قتيلٍ لا يُبـــــاءُ به دمٌ — ومن غَلِقٍ رَهْنا إذا ضمّـــه منَى

وكم مالىء عينيـــه من شىءِ غيرِه — إذاراح نحوالجَمْرة البيضُ كالدُّمى

يجُرون أذيـــالَ المُروطِ بأسْـــوق — خدالٍ إذا وَلَّيْنَ أعجـــازُها روَى

أوانسُ يَسْلُبْنَ الحليم فـــــؤادَه — فياطُولَ ما حزن ويا حُسْنَ مُجْتَلى

فلم أر كالتَّجْمير منظرَ ناظـــــر — ولا كليالى الحجّ أفْتَنَّ ذا هَـــوَى

وفيها أيضـــا يقول :

أيها الرائـــحُ المُجدُّ ابتـــكارا قد قَضَى من تهامة الأوْطـــارا
ليت ذا الحجَّ كان حتما علينـــا كلَّ شهريـــن حَجّةً واعتمارا

قوله : وكم من قتيل لا يباء به دم ، يقول : لا يُقاد به قاتله .

وكـــان ابـــن أبي عَتيق من نُسّاك قريش وظرفائهم ، بل قد بَذّهم ظرفا ، وله أخبار كثيرة . فمن طريف أخباره أنه سمع وهو بالمدينة قول ابن أبي ربيعة :

فما نلتُ منها مَحْرَمـــا غيرَ أننـــا كلانا من الثوب المُطَرَّف لابـــسُ

فقـــال : « أبنا يلعب ابن أبي ربيعة ؟ فأىّ مُحَرَّم بقى ؟ » فركب بغلته متوجها إلى مكة . فلما دخل أنصاب الحرم قيل لـــه : « أحْرِمْ » . قال : « إن ذا الحاجة لا يحرم » . فلقى ابن أبي ربيعة ، فقـــال : « أما زعمتَ أنك لم تركب حراما قط ؟ » . قال : « بلى » . قال : « فمـــا قولك : كلانا من الثوب المطرف لابس ؟ » فقال لـــه : « إذا أخـــبرك . خـــرجتْ بعـــلّة المسجد فصرنا إلى بعض الشّعاب فأخذتنا السمـــاء . فأمـــرتُ بمُطـــرَّفى فسترنا الغلمان به لئلا يروا هابَلّة ، فيقولوا : هلا اســـتترت بسَقائف المسجد ؟ » . فقال له ابن أبي عتيق : « يا عاهِر ، هـــذا البيت يحتاج إلى حاضنة » .

وهو الذى سمع قول عمر بن أبي ربيعة :

مَنْ رسولى إلى الثريا بأنى ضقتُ ذَرْعـــا بهَجْرها والكتاب

فلبس ثيابه وركب بغلته وأتى باب الثريا . فاستأذن عليها ، فقالت : «والله ما كــنت لنا زوّارا » . فقال : «أجل ولــكنى جئت برسالة ، يقول لك ابن عمك عمــر بن أبي ربيعة : ضقت ذرعا بهجرك والكتاب » . فلامه عمر فقال له ابن أبي عتيق : «إنما رأيتك متلددا تلتمس رسولا فخففت فى حاجتك ، فإنما كان ثوابى أن أُشْــكَر » .

ومــن طــريف أخــباره أن عائشة بنت طلحة عتبت على مصعب بن الزبير فهجــرته . فقــال مصعب : «هذه عشرة آلاف درهم لمن احتال لى أن تكلمنى» فقــال له ابــن أبي عــتيق : «عَدّل المــال » ثم صار إلى عائشة فجعل يستعتبها لمصعب . فقالت : «والله ما عَزْمى أنْ أكلمه أبدا » . فلمــا رأى جِدَّها قال لها : «أيــا بنت عم إنه قد ضمن لى إنْ كلمته عشرة آلاف درهم ، فكلميه حتى آخذها ثم عودى إلى ما عَوَدَّك الله من سوء الخلق » .

ومــن أخباره أن مروان بن الحكم قال يوما : «إنى لمشغوف ببغلة الحسن ابن عــلى رحمهمــا الله » . فقال له ابن أبي عتيق : «إن دفعتُها إليك أتقضى لى ثلاثين حاجــة ؟» قال : « نعم » . قال : «إذا اجتمع الناس عنك العشية فإنى آخذ فى مآثــر قريش ثم أمسك عن الحسن ، فلمْنى على ذلك» . فلما أخذ الناس مجالسهم أخــذ فى مآثــر قريش . فقال له مروان : «ألا تذكر أولية أبي محمد وله فى هذا ما ليس لأحد » . فقال : «إنما كنا فى ذكر الأشراف ولو كنا فى ذكر الأنبياء لقدمنا مــا لأبي محمــد » . فلما خرج الحسن ليركب تبعه ابن أبي عتيق فقال له الحسن وتبسم : «ألك حاجة ؟» فقال : «ذكرت البغلة» فنزل الحسن ودفعها إليه .

ومـــن طـــريف أخباره أن عثمان بن حَيَّان المُرِّى لما دخل المدينة واليا عليها ، اجـــتمع الأشـــراف عـــليه من قريش والأنصار . فقالوا له : « إنك لا تعمل عملا أجْـــدَى ولا أوْلَـــى من تحريم الغناء والرثاء » . ففعل وأجَّلهم ثلاثا . فقدم ابن أبى عـــتيق فى الليلة الثالثة ، فحط رَحْله بباب سلامة الزرقاء . وقال لها : « بدأتُ بك قـــبل أن أصـــير إلى منزلى » . فقالت : « أو ماتدرى ما حدث ؟ » وأخبرته الخبر . فقـــال : « أقيمى إلى السَّحَر حتى ألقاه ». فقالت : « إنا نخاف أن لا تغنى شـــيئا ونـــنكظ [1] » فقـــال : « إنه لا بأس عليك » ، ثم مضى إلى عثمان فاستأذن عليه . فأخبره أن أحذّ [2] ما أقدمه عليه حبّ التسليم عليه . وقال له : « إنّ من أفضل ما عملتَ به تحريم الغناء والرثاء » . قال : « إنّ أهلك أشاروا علىّ بذلك » ، قـــال : « فـــإنك قد وُفقت ، ولـــكنى رسول امرأة إليك ، تقول : قد كانت هذه صناعتى فتـــبت إلى الله منها ، وأنا أسألك أيها الأمير أن لا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبى صلى الله عليه وسلم » . فقال عثمان : « إذن أدعها لك » . قال : « إذن لايدعها الـــناس ولكن تدعو بها فننظر إليها ، فإن كانت ممن يُتْرَك تركتها » . قال : « فادْعُ بهـــا » . فأمـــرها ابـــن أبى عتيق فتقَشفت وأخذت سُبْحة فى يدها وصارت إليه . وحدثـــته عن مآثر آبائه ، فَفكـــه لها ، فقال لها ابن أبى عتيق : « اقْرَئى للأمير » . ففعـــلت فأعجب بذاك . فقال لها : « فاحْدِى للأمير » . فحركه حداؤها . ثم قال لهـــا : « غَنِّى للأمير » . فجعل يعجب بذلك عثمان . فقال لـــــه ابن أبى عتيق « فكيف لو سمعتَها فى صناعتها ؟ » فقال : « قل لها فَلْتَقل » فأمرها فتغنت :

سَدَدْنَ خَصاصَ الخَيْم لمـــا دَخَلْنه ... بـــكل لَبانٍ واضـــح وجبيـــــن

---

[1] ننكظ : تنالنـــا شـــدة .
[2] أحـــذ : أســـــــــرع .

فنزل عثمان بن حيّان عن سريره حتى جلس بين يديها . ثم قال : « لا والله ما مثلك يخرج عن المدينة » فقال له ابن أبي عتيق : « إذا يقول الناس : أذِن لسلامة فى المقام ومنع غيرها » . فقال له عثمان : « قد أذنت لهم جميعا » .

وقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة :

قال لى صـــاحبى لِيَعْلَمَ مـــا بى	أتُحِبُّ القَتُـولَ أختَ الرَّباب ؟
قلتُ : وَجْدى بها كوجدك بالمـاءِ	إذا مـا مُنِعْت بَرْدَ الشـراب
مَنْ رسولى إلى الثريّـا بـــأنى	ضقت ذرعـا بهجرها والكتاب
سلبتْنى مُجاجَةُ المِسْك عقـــلى	فسَـلُوها بما تُحِلُّ اغتصـــابى
أزهقتْ أمُّ نوفـــل إذْ دَعَتْهـــا	مُهجتى ، مـا لقاتلى من متَـاب
حينَ قالت لها : أجيبى ، فقـالت :	مَنْ دعانى ؟ قالت : أبو الخَطـاب
فاستجابت عند الدعاء كما لَبّـــ	ـى رجالٌ يَرْجُونَ حسن الثّواب
أبْرَزُوها مثـلَ المهَـاة تَهَـادى	بين خمسٍ كـواعبٍ أتْراب
وهى مِـكْنونةٌ تَحـيَّر منهـــا	فى أديم الخَدَّين ماء الشـــباب
ثم قالوا : تُحِبُّها ؟ قلتُ : بَهْــرا	عَدَدَ النجم والحصَى والتراب
دميةٌ عند راهب ذى اجتهـــــاد	صوّروها فى جـــانب المِحْراب

قوله : قلت وجدى بها كوجدك بالماء ، معنى صحيح . وقد اعتوره الشعراء وكلُّهم أجاد فيه . وقوله : إذا ما منعت برد الشراب ، يريد عند الحاجة ، وبذلك صح المعنى . ويروى عن على بن أبي طالب رحمه الله أن سائلا سأله فقال : « كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » فقال : « كان والله أحبّ إلينا من

أموالـنا وأولادنـا وآبائـنا وأمهاتنا ، ومن الماء البارد على الظمأ » وقال آخر ، وأحسبه قيس بن ذَرِيح :

حلفتُ لها بالمَشْعَرَيْنِ وزمـــزم … وذو العرشِ فوق المقْسمينَ رقيبُ
لَئِنْ كان بَرْدُ الماءِ حَرَّانَ صادِيـا … إِلَيَّ حَبِيبا إنهـــا لحبيب

والمكـــورة : المكتنزة . وقوله : قلت بهرا ، يكون على وجهين : أحدهما حُبَّا يَــبْهَرَنِي بَهْــرا ، أى يملؤنى ؛ والوجــه الآخر أن يكون أراد بَهْرا لــكم ، أى تَبّا لــكم حيث تلومونى على هذا .

وحُدِّثت أن عمر الوادى قال : أقبلتُ من مكة أريد المدينة ، فجعلت أسير فى صَــرْد [1] مــن الأرض . فســمعت غناء من القَرار لم أسمع مثله . فقلت : « والله لأتوصّلنّ إليه ولو بذهاب نفسى » فانحدرت إليه فإذا عبد أسود . فقلت له : « أَعِدْ علىّ ما سمعت » . فقال لى : « والله لو كان عندى قِرًى أقريك ما فعلت ولــكنى أجعلــه قــراك ، فإنى ربما غنّيت هذا الصوت وأنا جائع فأشبع ، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط، وربما غنيته وأنا عطشان فأَروَى » . ثم انبرى يغنينى .

وكنتُ إذا مازرتُ سُعْدَى بأرضِها … أرىالأرض تُطْوَى لى ويدنوبعيدُها
من الخَفِرات البيض وَدَّ جَليسُــها … إذا ما قضت أحُدوثةً لو تُعيدهــا

فحفظته عنه ثم تغنيت به على الحالات التى وصف ، فإذا هو كما ذكر .

---

[1] الصرد : المكان المرتفع .

وروى أصحابنا أن يزيد بن عبد الملك ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية وإليها كان يُنْسَب ، قال يوما : «يقال : إن الدنيا لم تَصْفُ لأحد قطّ يوما ، فإذا خلوتُ يومى هذا فاطووا عنى الأخبار، ودعونى ولذّتى ، وما خلوت له» . ثم دعا بَحَبابة فقال : «اسقينى وغنينى» فخَلَوَا فى أطيب عيش . فتناولت حبابة حبة رمّان فوضعتْها فى فيها فغَصَّت بها فماتت . فجزع يزيد جزعا أذهله ، وَمَنَع من دفنها حتى قال له مشايخ بنى أميّة : «إن هذا عيب لا يستقال ، وإنما هذه جيفة» فأذن فى دفنها وتبع جنازتها . فلما واروها ، قال : «أمسيت والله فيك كما قال كثير :

فإنْ تَسْلُ عنك النفسُ أوتَدَع الهوى فباليأس تسلو عنك لا بالتجلُّد
وكلُّ خليل راءنى فهو قائلٌ منَ اجلك هذا هامةُ اليوم أو غَد

فعُدَّ بينهما خمسة عشر يوما . وقوله : راءنى ، يريد رآنى ، ولكنه قلب فأخر الهمزة . وقوله . هذا هامة اليوم أو غد ، يقول : ميّت فى يومه أو فى غده .

وحدثنى عبد الصمد بن المُعَذّل قال: سمعت إسحاق بن إبراهيم الموصليّ قال : حججتُ مع أمير المؤمنين الرشيد ، فلما قَفَلْنا فنزلنا المدينة آخيتُ بها رجلا كان له سنّ ومعرفة وأدب فكان يمتعنى . فإنّى ذات ليلة فى منزلى إذا أنا بصوته يستأذن علىّ . فظننت أمرا قد فَدَحه ففزع فيه إلىّ . فأسرعت نحو الباب ، فقلت : «ما جاء لك ؟» فقال: «إذن أخبرك . دعانى صديق لى إلى طعام عتيد [1] وشراب قد التقى طرفاه ، وشواء رَشْراش [2] ، وحديث ممتع ، وغذاء مطرب ، فأجبته .

[1] عتيد : معد حاضر .
[2] رشراش : يقطر دسمه .

واقمـــت معه إلى هذا الوقت .فأخذت منى حُمَيّا الـــكأس مأخذها ثم غُنِّيت بقول نصيب :

بزينب أَلْمِمْ قبلَ أن يرحل الركب وقُلْ إنْ تَملّينا فما ملَّك القلب

فكدت أطير طربا ، ثم وجدت فى الطرب نقصا إذا لم يكن معى من يفهم هذا كما فهمـــتُه . ففزعت إليك أصف لك هذه الحال ، ثم أرجع إلى صاحبى » . وضرب نعـــليه موَليا عنى فقلت : «قف أكلمك» . فقال : «ما بى إلى الوقوف إليك من حاجة» .

وحُدِّثت أن معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه . فلما أصبح قال ليزيد : «من كان ملهيك البارحة ؟» فقال له يزيد : «ذاك سائب خاثر» . قال : «إذا فاخثر [1] له من العطاء» .

وحُـــدِّثت أن معاوية قال لعمرو : «امض بنا إلى هذا الذى قد تشاغل باللهو وسعى فى هدم مروءته حتى ننعى عليه – أى نعيب عليه – فعله» ، يريد عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب . فدخلا إليه ، وعنده سائب خاثر ، وهو يلقى على جَوارٍ لعبد الله فأمر عبد الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية . وثبت سائر مكانه ، وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية . فرفع معاوية عَمْرا فأجلسه إلى جانبه ثم قال لعبد الله : «أعِـــدْ ما كنت فيه». فأمر بالـــكراسىّ فأُلقيت وأُخرج الجوارى . فتغنى سائب بقول قَيْس بن الخَطيم :

ديارُ التى كادتْ ونحن على مِنًى تَحُلُّ بنا لولا نَجاءُ الرَّكائب [2]
ومثلكِ قد أصْبَيْتُ ليست بكَنَّةٍ ولا جارةٍ ولا حليلةِ صاحب [3]

---

[1] أى أجزل له العطـــــاء .
[2] تحل بنا : تجعلنـــــا نحـــل .
[3] الكنة : امرأة الابن أو الأخ .

وردّده الجــوارى عليه . فحرك معاوية يديه وتحرك فى مجلسه . ثم مدّ رجليه فجعــل يضـــرب بهما وجه السرير . فقال له عمرو : « اتّئدْ يا أمير المؤمنين ، فإن الــذى جئت لِتَلْحَاه أحسن منك حالا وأقل حركة » . فقال معاوية : « اسكت لا أبالك ، فإن كل كريم طروب ».

وحدثت من غير وجه أن سفيان بن عُيَيْنة قال لجلسائه يوما : « إنى أرى جارنا هذا السَّهْمِى قد أثرى ، وانفسحت له نعمة ، وصار ذا جاه عند الأمراء ، ووافدا إلى الخلفاء ، فمم ذاك ؟ » يعنى يحيى بن جامع ، فقال له جلساؤه : « إنه يصير على الخليفة فيتغنى له » . فقال سفيان : « فيقول ماذا ؟ » فقال أحد جلسائه : يقول :

أطوفُ نهــــارى مع الطائفين ... وأرفعُ من مِئْزَرِى المُسْبَلِ

فقال سفيان : « ما أحسن ما قال ! » فقال الرجل : ويقول :

وأسهر ليلى مــع العاكِفين ... وأتلو من المُحْــكم المُنْزَل

قال: « حسن والله جميل » .قال: « إنّ بعد هذا شيئا » .قال سفيان: « وما هو ؟ » قــــال :

عسى فارجُ الــكَرب عن يوسف ... يُسخِّر لى رَبَّــةَ المِحْمَلِ

فزوى سفيان وجهه ، وأومأ بيده أنْ كُفَّ ، وقال : « حلالا حلالا » .

وحُدثــت أن الفــرزدق قدم المدينة فنزل على الأحوص بن محمد فقــال له الأحــوص : « ألاَ أُسمِعــك غــناء مــن غناء القُرى ؟ » فأتاه بمُغَنٍّ فجعل يغنيه ، فــكان مما غَنـــاه :

أتنسَى إذ تُودِّعنـــــا سليمى | بفَرْعِ بَشامة سُقِيَ البَشـــام [1]
ولو وجد الحمام كما وجـــدنا | بَسَلمانَيْن لا كْتأبَ الحمـــام

فقال الفرزدق : « لمن هذا ؟ » فقالوا : « لجرير » ثم غناه :

أسْرَى لخالدةَ الخيالُ ولا أرى | شيئا ألَذّ من الخيال الطـــارقِ
إنّ البليـــةَ مَنْ تَمَلُّ حديثَـــه | فانْقَعْ فؤادك من حديث الوامقِ

فقال : « لمن هذا ؟ » فقيل : « لجرير » ثم غناه :

إنّ الذين غَدَوْا بلُبِّـــك غادَرُوا | وَشَلا بعَيْنك ما يزال مَعينـــا [2]
غَيَّضْنَ من عَبَرَاتِهِنّ وقلـــن لى | ماذا لقيتَ من الهـــوى ولقَينا

فقـــال : « لمـــن هذا ؟ » فقالوا : « لجرير » فقال الفرزدق : « ما أحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى ، وأحْوَجَنى مع فسوقى إلى رقّة شعره » .

وحُدِّثـــت أن مدنيـــا كان يصلى منذ طلعتْ الشمس إلى أن قارب النهار أن ينتصف ، ومن ورائه رجل يتغنّى ، وهما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا رجل من الشُّرَط قد قبض على المغنى فقال : « أترفع عَقِيرتك بالغناء فى مسجد رســـول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » . فأخذه فانْفَتَل المدنىّ من صلاته ، فلم يزل يطـــلب إليه فيه حتى استنْقَذه ، ثم أقبل عليه فقال : « أتدرى لم شفعتُ فيك ؟ » . قال : « لا ، ولـــكنى أخالك رحمتنى » . قال « إذا فلا رحمنى الله » . قـــــــال: « فأحســـبك عرفتَ قرابة بيننا » . قال : « إذا فقطعها الله » قال : « فَلِيَد تقدمتْ منى إليـــك » . قال : « لا والله ولا عرفتُك قبلها » ، قال : « فخَبِّرنى » . قال : « لأنى سمعـــتك غنّيت آنفـــــا فأقمتَ واوات مَعْبد ، أما والله لو أسأت التأدية لـــكنتُ أحد الأعوان عليك » .

---

(1) البشـــــام : شجر طيب الريح يستاك به .
(2) الوشل : المـــاء الكثير . والمعين : الماء الذى لا ينقطع .

الجد والهزل

نذكر فى هذا الباب من كل شيء شيئا لتكون فيه استراحة للقارئ ، وانتقال ينفى الملل ، لحسن موقع الاستطراف ؛ ونخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل ، ليستريح إليه القلب وتسكن إليه النفس .

قال أبو الدَّرْداء رحمه الله : « إنى لأستجم نفسى بالشيء من الباطل ليكون أقوى لها على الحق ». وقال على بن أبى طالب رحمه الله: « القلب إذا أُكره عمى » وقال ابن مسعود رحمه الله : « القلوب تَمَل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة » . وقال أردشير بن بابك : « إن للآذان مجة ، وللقلوب مللا ، ففرقوا بين الحكمتين ، يكن ذلك استجماما » . وكان أنو شروان يقول : « القلوب تحتاج إلى أقواتها من الحكمة احتياج الأبدان إلى أقواتها من الغذاء » . وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه يوما : « يا أبتِ ، إنك تنام نوم القائلة وذو الحاجة على بابك غير نائم » . فقال له : « يا بنى ، إن نفسى مطيتى فإن حملت عليها فى التعب حَسَرْتها » . تأويل قوله حسرتها : بلغت بها أقصى غاية الإعياء .

ضروب الكلام والكتابة

الكلام يجرى على ضروب : فمنه ما يكون فى الأصل لنفسه ، ومنه ما يُكنى عنه بغيره ، وما يقع مثلا فيكون أبلغ فى الوصف . والكناية تقع على ثلاثة أضرب : أحدها التعمية والتغطية كقول النابغة الجعدى :

أكنى بغير اسمها وقد علم الـ ـــ له خفيات كل مكتتم

وقال ذو الرمة استراحة إلى التصريح من الكناية :

أحب المكان القفر من أجل أننى ـــ به أتغنى باسمها غير معجم [1]

ويكون من الكناية ، وذاك أحسنها ، الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره . قال الله ، وله المثل الأعلى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ ، وقال : ﴿ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ ﴾ والملامسة فى قول أهل المدينة ، مالك وأصحابه ، غير كناية ، إنما هو اللمس بعينه ، يقولون فى الرجل تقع يده على امرأته أو على جاريته بشهوة : إن وضوءه قد انتقض . وقال الله جل وعز فى المسيح ابن مريم وأمه صلى الله عليهما : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة . وقال : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ وإنما هى كناية عن الفروج . وهذا كثير .

والضرب الثالث من الكناية التفخيم والتعظيم ، ومنه اشتقت الكنية ، وهو أن يعظَّم الرجل أن يدعى باسمه . ووقعت فى الكلام على ضربين : وقعت فى الصبى على جهة التفاؤل بأن يكون له ولد ويدعى بولده كناية عن اسمه ، وفى الكبير أن ينادى باسم ولده صيانة لاسمه .

---

(1) المعجم : المبهم .

حب وغزل

قال مروان بن أبي حفصة :

إن الغوانى طـالمـا قتّلننـا	بعيونهن ولا يَديـنَ قتيـلا
من كل آنسـة كأن حجالَهـا	ضُمِّنّ أحْوَرَ فى الكناس كَحيـلاَ
أرْدين عروةَ والمرقّش قبلـه	كلٌّ أصيب وما أطاق ذهـولا
ولقد تركن أباذؤيب هائمـا	ولقد تَبلْن كثيِّرا وجميـلا
وتركن لابن أبي ربيعة مَنْطقـا	فيهن أصبح سـائرا محمولا
إلاّ أكـن ممن قَتـلن فإننى	ممن تركـن فؤاده مخبـولا

يقـال : ضمن القبرُ زيدا ، وضمن القبرَ زيد ، كل صحيح فمن قال : ضمن القـبر زيدا ، فإنما أراد جعل القبر ضمين زيد ، ومن قال : ضمن زيدٌ القبر ، فإنما أراد جعل زيد فى ضمن القبر . وقوله : أحور يعنى ظبيا ، وأهل الغريب يذهبون إلى أن الحور فى العين شدة سواد سوادها وشدة بياض بياضها ، والذى عليه العرب إنما هـو نقـاء البياض ، فعند ذلك يتضح السواد . والـكناس : حيث تكنس البقرة والظبية ، وهو أن تتخذ فى الشجرة العادية كالبيت تأوى إليه وتبعر فيه ، فيقال إن رائحـته أطيـب رائحة لطيب ما ترتعى . فيقول : ضمن ظبيا أحور العين أكحل ، وجعـل الحجال كالـكناس . وقال ابن عباس فى قول الله عز وجل : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُـنَّسِ * الْجَوَارِي الْكُنَّسِ ﴾ . قال : أقسم ببقر الوحش لأنها خنس الأنوف ، والكنس التى تلزم الـكناس : وقال غيره : أقسم بالنجوم التى تجرى بالليل وتخنس بالـنهار وهو الأكثر . وقوله : أردين : يقول أهلـكن ، والردى : الهـلاك .

وقولـــــه : ولقد تبلن كثيرا وجميلا أصل التبل التِّرة [1] يقال : تبلى عند فلان . قال حسان بن ثابت :

تبلت فؤادك فى المنـــــام خريدة　　　تشفى الضجيع ببارد بســـام

وذكـــر الليثى أن رجلا أحب جارية ، ولم يكن يحسن مما يتوصَّل به إلى النساء شيئا إلا أنه كان يحفظ القرآن ، فـــكان يتوصل إليها بالآية بعد الآية . فـــكان إن وعدتـــه فأخلفـــته تحيَّن وقت مرورها فقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَـــلُونَ ﴾ . وإن خرجت خرجة ولم يعلم بها فينتظر ، تحيَّنها فى أخرى فتـــــلا : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ ﴾.وإن وشى به واش ، كتب إليها : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ .

وذكروا أن أبا القماقم بن بحر السقاء عشق جارية مدينية ، بعث إليـــــــها : « إن إخوانـــا لى زارونى فابعـــثى إلىّ برؤوس حتى نأكلها ونصطبح على ذكرك » . ففعلت . فلما كان اليوم الثانى بعث إليها : « إن القوم مقيمون لم نفترق فابعثى إلى بقَلية جَزورية وَبقرية قَدِية حتى نتغذاها ونصطبح على ذكرك » . فلما كان فى اليوم الـــثالث بعث إليها : « إنا لم نفترق ، فابعثى إلى بسَنْبوسَك حتى نصطبح اليوم على ذكـــرك » . فقـــالت لرسوله : « إنى رأيت الحب يحل فى القلب ويفيض إلى الكبد والأحشاء وإن حب صاحبنا هذا ليس يجاوز المعدة » .

ودعـــتْ أبـــا الحـــارث جُمَّيْزَ واحدة كان يحبها ، فجعلت تحادثه ولا تذكر الطعـــام. فلما طال ذلك به ، قال : « جعلنى الله فداك ، لا أسمع للغداء ذكرا » . فقالت : « أما تستحى ، أما فى وجهى ما يشغلك عن ذا ؟ » قال لها : « جعلنى الله فـــداك ، ولو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان شيئا لبزق كل واحد منهما فى وجه صاحبه وافترقا » .

---

[1] الترة : الثـــــأر .

صيانة السر

قال عمرو بن العاص : « إذا أنا أفشيت سري إلى صديقي فأذاعه فهو في حل » . فقيل له : « وكيف ذاك ؟ » قال : « أنا كنت أحق بصيانته » . وقال امرؤ القيس :

إذا المرءُ لم يخزُن عليه لسانه ... فليس على شيء سواه بخزان

وأحسن ما سُمع في هذا ما يُعزَى [2] إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقائل يقول : هو له ، ويقول آخرون : قاله متمثلا ، ولم يُختلف في أنه كان يكثر إنشاده :

فلا تُفْشِ سرَّك إلا إليك ... فإن لكل نصيح نصيحا
وإني رأيت غُواةَ الرجال ... لا يتركون أديما صحيحا

وذكر العُتْبي أن معاوية أسرَّ إلى عثمان بن عَنْبَسة بن أبي سفيان حديثا . قال عثمان : فجئت إلى أبي ، فقلت : « إن أمير المؤمنين أسرّ إلي حديثا ، أفأحدثك به ؟ » قال : « لا ، إنه من كتم حديثه كان الخيار إليه ، ومن أظهره كان الخيار عليه . فلا تجعل نفسك مملوكا بعد أن كنت مالكا » . فقلت له : « أو يدخل هذا بين الرجل وأبيه ؟ » فقال : « لا ، ولكني أكره أن تذلل لسانك بإفشاء السر » . قال : فرجعت إلى معاوية فذكرت ذلك له ، فقال معاوية : « أعتقك أخي من رق الخطأ » .

---

[2] يعزى : ينسب .

وقـــال معاوية : «أعنت على عليّ رحمه الله بأربع : كنت رجلا أكتم سرى وكـــان رجـــلا ظُهَــرة ؛ وكنت فى أطوع جند وأصلحه ، وكان فى أخبث جند وأعصـــاه؛ وتركته وأصحاب الجمل ، وقلت : إن ظفروا به كانوا أهون علىّ منه ، فيالك من جامع إلىّ ومُفرّق عنه ، وعون لى وعون عليـــــه » .

وقال جميـــــل :

ولا يَسْمَعَنْ سرى وسرّك ثالثٌ	ألا كلُّ سرٍ جاوز اثنين شائع

وكـــان يقـــال : «أصبر الناس من صبر على كتمان سره ، ولم يُبْدِه لصديقه فيوشك أن يصير عدوا فيذيعه» . وقال آخر :

ولى صاحبٌ سِرّى المـكتّم عنـــده	مَخاريقُ نيرانٍ بلَيْـــــــل تُحرّقُ
عطفت على أسراره فـكسوتهـــا	ثيابـــا من الـكتمان لا تتخرق
فمن تكن الأســـرار تطفو بصدره	فأسرار صدرى بالأحاديث تُغْرَق
فلا تودعنّ الدهـــرَ سرَّك أحمقـــا	فإنك إنْ أودعتـــهَ منـــــه أحمق
وحَسْبُك فى ستر الأحاديث واعظا	من القول ما قال الأريب الموفق
إذا ضاق صدرُ المرء عن سر نفسه	فصدر الذى يُستَوْدَعُ السرَّ أضيق

وقيل : «النمائم سهم قاتل» . ويقال للنمام القَتّات . وفى الحديث : «لايرَاح القـــتات رائحـــة الجنة». وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : «لعن الله المثلّث » . فقيل : «يا رسول الله ، ومن المثلث ؟» فقال : «الذى يسعى بصاحبه إلى سلطانه فيهلك نفسه وصاحبه وسلطانه» .

وقال معـــاوية للأحنف بن قيس فى شىء بلغه عنـــه فأنـــكر ذلك الأحنف. فقال له معاوية : « بلّغنى عنك الثقة » . فقال له الأحنف « يا أمير المؤمنين إن الثقة لا يبلـــّغ » .

وقـــال المُهَـــلّب بن أبى صُفْرة : « أدنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أُسِرّ إليه » .

باب مختلط

وهـــذا الباب اشترطنا أن نخرج فيه من حَزْن إلى سهل [1]، ومن جد إلى هزل ليستريح إليه القارئ ، ويدفع عن مستمعه الملال . قال بكر بن النطاح فى كلمة له يمدح فيها مالك بن على الخزاعى :

عَرَضْتُ عليها ما أرادتْ من المُنى ... لترضَى، فقالت قم فجئنا بكوكبِ
فقلت لها هذا التعنت كـــــله ... كمن يتشهى لحم عَنْقــــاء مُغْرِب
فلو أننى أصبحت فى جود مالكٍ ... وعزته ما نـــال ذلك مطــــلبى
فتى شقيت أمواله بسماحــــه ... كما شقيت قيسٌ بأرمـــاح تَغْلِب

سعيد بن مسلم

قال عبد الصّمد بن المُعَذّل يرثى سعيد بن سلْم :

كم صغيرٍ جَـــبَرْته بعد يُـــــتْم ... وفقير نَعَشْتـــه بعد عُـــــــدْمِ
كلما عضت الحوادثُ نـــــادَى ... رَضِى اللهُ عن سعيد بن ســــلم

[1] الحزن : المرتفع . والسهل : المنخفض .

وقال سعيد بن سلم : عرض لى أعرابى فمدحنى فبلغ ، فقال :

ألاقُلْ لسارِى الليل لا تَخْش ضلةً | سعيدُ بن سلم ضوءُ كل بـــلادِ
لنـا سيد أربَى على كـل سيد | جوادٌ حثا فى وجه كلّ جـــواد

قال : فتأخرت عن بره قليلا فهجانى فبلغ ، فقال :

لـكلّ أخى مدحٍ ثوابٌ يُعــدُّه | وليس لمدح الباهـــلى ثواب
مدحت ابن سلم والمديـح مَهَزَّة | فـكان كصفْوانٍ عليــه تـراب

وكـان سـعيد بن سلم إذا استقبل السنة التى يستأنف فيها عدد سنيه أعتق نسـمة ، وتصدق بعشرة آلاف درهم . فقيل لمدينى : «إن سعيد بن سلم يشترى نفسه من ربه بعشرة آلاف درهم» . فقال : «إذن لا يبيعه» .

البدل والالتفات

لـلحارث بن وَعْلة يقول الأعشى ، وكان قَصده فلم يَحْمده وعَرّج عنه إلى هَـوْذَة بن على ذى التاج ، وهوذة من بنى حنيفة بن لجيم ، والحارث بن وعلة من بنى رقاش ، وهى امرأة ، وأبوهم مالك بن شيبان بن بكر بن وائل . فقال الأعشى يذكر الحارث بن وعلة وهوذة بن على :

أتيتُ حُرَيْثـا زائرا عن جَنـــابة | فـكان حريثٌ عن عطائىَ جامدا
إذا ما رأى ذا حاجـة فـكأنما | يرى أسـدا فى بيتـه وأساوِدا

لعَمْرُك ما أشبهتَ وعلة فى النــدى شمــــائلَهُ ولا أباه مجُـــــالدا
وإن امرءا قد زرتُه قبلَ هــــــذه بجــوٍ لَخَيْرٌ منك نفســا ووالدا
تضيَّفْتُه يومــا فقــــرب مجلسى وأصْفَدنى على الزَّمــانة قائــدا
وأمْتَعَنى على العشــــا بوَليــدة فأبْتُ بخير منك يا هوذَ حــامدا
فتى لو يُبارى الشمس ألقتْ قناعَها أو القمرَ السّارى لألقى المقــالدا
يرى جمعَ ما دون الثلاثين قُصْــرة ويَعْدو على جمع الثلاثين واحــدا

قوله : أتيت حريثا ، يريد الحارث ، وَتصغيره على لفظة حُوَيرث ، وهذا التصغير الآخر يقال له تصغير الترخيم ، وهو أن تحذف الزوائد من الاسم ثم تصغر حــروفه الأصـــلية فتقول فى تصغير أحمد : حُمَيد ، لأنه من الحمد ، وفى الحارث : حُــرَيث ، لأنه من الحرث ، وفى غضبان : غُضيب ، لأنه من الغضب ، لأن الألف والـــنون زائدتـــان . وكذلـــك ذوات الأربعة ، تقول فى تصغير قنديل على لفظه قنَيديل، فإن صغرته مرخما حذفت الياء فقلت : قُنَيْدل . فعلى هذا مَجْرَى الباب . وقوله : عن جنابة : يقول عن غربة وبُعد ، يقال رجل جُنُب ، ورجل جانب ، أى غـــريب . قـــال الله عز وجل : ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ . وقوله : يرى أسدا فى بيته وأساودا : يريد جمع أسود سالخ . وأسود ههنا نعت ، ولكنه غالب . فلذلك جرى ههنا مجرى الأسماء ، لأنه يدل على الحية . وأفعَل إذا كان نعتـــا بنفسه فجمعه فُعْل نحـــو أحمر وحُمْر وأسود وســـود ، وإذا كان نعتـــا فأُجرِى مجرى الأسماء فجمعه أفـــاعل نحـــو أساوِد وأجادل وأداهِم إذا أردت القيد لأنه نعت غالب يجرى مجرى الأسماء، وإن أردت أدهم الذى هو نعت محض قلت دُهم. قال الأشْهَب بن رُميلة:

أسود شرًى لاقتْ أسود خَفِيــّة تَساقَوْا على حَرْدٍ دماءَ الأساود

فأجراه مجرى الأسماء نحو الأصاغر والأكابر والأحامد .

وقولـــه لعمرك ما أشبهت وعلة فى الندى شمائله ، فإنه جعل شمائله بدلا من وعلة ، والتقدير ما أشبهت شمائل وعلة . والبدل على أربعة أضرب : فواحد منها أن يُـــبْدَل أحد الاسمين من الآخر إذا رجعا إلى واحد ، ولا تبالى أمعرفتين كانا أم معرفة ونـــكرة ، وتقول مررت بأخيك زيد ، لأن زيدا هو الأخ ، وكذلك مررت برجل عبد الله . فهذا واحد . وآخر أن يُبدل بعض الشيء منه ، نحو ضربت زيدا رأسه ، لما قلت ضربت زيدا أردت أن تبين موضع الضرب . فمثل الأول قول الله تبارك وتعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ ﴾ . ومثل البدل الثانى قوله ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ . من فى موضع خفـــض لأنهـــا بدل من «الناس» . والبدل الثالث مثل ما ذكرنا فى البيت، أبدل شمائله منه وهى غيره ، لاشتمال المعنى عليها . ونظير ذلك من القرآن ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَـــنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ لأن المسألة إنما كانت عن القتال هل يـــكون فى الشـــهر الحرام . وبدل رابع لا يكون مثله فى القرآن ولا فى الشعر ، وهو أن يغلط المتـــكـــلم فيـــدرك غلطه أو ينسى فيذكر ، فيرجع إلى حقيقة ما يقصد له وذلك قولـــك مررت بالمسجد دار زيد ، أراد أن يقول مررت بدار زيد ، فإما نسى وإما غلط، فاستدرك فوضع الذى قصد له فى موضع الذى غلط فيـــه .

وقوله : بجو : فهى قصبة [1] اليمامة . وقوله : تضيفته يوما : إنما هو تفعلته مـــن الضيافة ، يقال : ضِفْتُ الرجل أى نزلت به ، وأضافنى أى أنزلنى . وقوله : أصـــفدنى ، يقـــول : أعطانى وهو الإصفاد ، والصَّفَد الاسم ، والإصفاد المصدر ، ويقال صَفَدت الرجل فهو مصفود من القيد ، ولا يقال فى القيد أصفدت ولـــكن

(1) القصبة : العاصمة .

صـــفدته صـــفدا ، واسم القيد الصَّفَد . وقوله : فتى لو يبارى الشمس ، يقول : يعارض ، يقال : انبرى لى فلان أى اعترض لى .

وأما قوله :

وأمتعني على العشـــا بوليـــــدة فأبت بخير منك يا هـــوذ حامد

فإنه كان يتحدث عنه ، ثم أقبل عليه يخاطبه ، وترك تلك المخاطبة ، والعرب تـــترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب . قال الله جـــل وعـــز : ﴿ حَـــتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ،كانت المخاطبة للأمة ثم انصرفت إلى النبى صلى الله عليه وسلم إخبارا عنهم. وقال عنترة:

شَطَّت مزارُ العاشقين فأصبحتْ عَسِرا عليَّ طِلابُك ابنةَ مَخْرَم

فكان يتحدث عنها ثم خاطبها . ومثل ذلك قول جرير :

وترى العواذل يبتدرن ملامتى فإن أردن سوى هواك عُصينـــا

وهذا كثير جدا .

وقوله : يرى جمع ما دون الثلاثين قصرة ، أى قليلا ، من الاقتصار. ويروى يغدو ، ويعدو جميعا .

وكـــان هـــوذة بن على ذا قدر عال ، وكانت له خرزات تنظم فتجعل على رأســـه تشبها بالملوك . وحدثنى التَّوَزى عن أبى عبيدة قال : «ما تتوج مَعَدى قط إنما كانت التيجان لليمن». قال : فسألته عن قول الأعشى :

من يَرَ هوذة يسجدْ غير مُتَّئب إذا تَعَمّم فوق التاج أو وَضَعـــا

قـــال : «إنمـــا كانت خرزات تنظم له» . وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هوذة كما كتب إلى الملوك ، وكانت بنو حنيفة بن لجيم أصحاب اليمامة. ويقول بعض النسابين إن عبيد بن حنيفة كان أتى اليمامة ، وهى صحراء ، فاختطها فجعـــل يـــركض حواليها ويخط برمحه فى الأرض على ما أصاب من النخل ، وأنهم

أكــلوا ما أصابوا تحته من التمر . فلما طلع لهم التمر بعدُ لم يهتدوا لصعود النخل فأقبلوا يجدونه حتى فــكروا فأعدوا له السلالم . فلما عمرت اليمامة جعلت العرب تنتجعهم لموضع التمر فيجــاورون العزيز منهم . وكان يقال لمن دخلها من هؤلاء «السَّــواقط» ممــن كانوا . ويقال إن اليمامة والبحرين والقَرْيتين ومواضع هناك كانت لطسْم وجَديس ، والخبر فى ذلك مشهور بزرقاء اليمامة .

التشبيهات المختارة

هــذا باب طريف نصل به هذا الباب الجامع الذى ذكرناه ، وهو بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب والمحدَثين بعدهم . فأحسن ذلك ما جاء بإجماع الرواة ما مــر لامــرئ القيس فى كلام مختصر ، أى بيت واحد ، من تشبيه شىء فى حالتين مختلفين بشيئين مختلفين ، وهو قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابســـا لدى وَكْرِها العُنابُ والحَشَفُ البالى[1]

فهــذا مفهوم المعنى . فإن اعترض معترض فقال : فهلا فَصَل فقال كأنه رطبا العــناب وكأنه يابسا الحشف ؟ قيل له : العربى الفصيح الفطن اللَّقن يرمى بالقول مفهومــا ، ويــرى ما بعد ذلك من التــكرير عيا . قال الله جل وعز ، وله المثل الأعــلى ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه ﴾ علما بأن المخاطبين يعرفون وقت الســكون ووقت الاكتساب . ومن تمثيل امرئ القيس العجيب قوله :

[1] العناب : ثمر أحمر حلو شبيه بالزيتون . والحشف : الردىء من التمر .

كأن عيون الوحش حولَ خبائنـــا وأَرْحُلنا الجَزْعُ الذى لم يُثقَّب [1]

ومن ذلك قوله :

إذا ما الثُّريا فى السماء تعرَّضت تعرُّضَ أثناء الوشـــاح المُفصـَّـل

وقد أكثر الناس فى الثريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى ولا بما يقارب سهولة هذه الألفاظ . ومن أعجب التشبيه قول النابغة :

فإنك شمس والملــــوكُ كواكب إذا طلعت لم يَبْدُ منهـــن كوكب

ومن عجيب التشبيه قول ذى الرمَّة :

وردت اعتســـافا والثريـــا كأنــه على قمة الرأس ابن مـــاءِ مُحلّق

وقال ذو الرمة فى وصف الماء فقرن بتغييره بُعْدَ مطلبه :

فأدلى غلامى دلوه يبتغى بهـــــا شفاء الصدى والليل أدهـــم أبلق
فجاءت بنسج العنـــكبوت كأنـــه على عَصَوَيْها ســـــابرىٌّ مُشَبرَق

---

[1] الجزع : خرز فيـــه ســـواد وبيـــاض .

يريد أن الفجر قد نجَم فيه ، فجاءت يعني الدلو بنسج العنكبوت كأنه على عصويها سابرى مشبرق . والسابرى : الرقيق من الثياب والدروع. والمشبرق : الممزق .

ومن التشبيه المصيب قوله فى صفة روضة :

قَرحاءُ حواء أشْراطية وكَفَت ... فيها الذِّهاب وحَفَّتها البراعيم

قرحاء : يريد الأنوار . وقوله : حواء يقول تضرب إلى السواد لشدة ريها وخضرتها ، وكذلك المفسرون يقولون فى قول الله جل وعز :﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ تضربان إلى الدهمة لشدة خضرتهما وريهما . وقوله : أشراطية : ليس مما قصدنا له ولكنه مما يجرى فيفسر ، ومعناه أنها مطرت بنوء الشرطين . وأما قوله : الذهاب: فهى الأمطار اللينة الدائمة ، ويقال إنها أنجع المطر فى النبت ، وكذلك العهاد .

ومن ذلك قول الآخر ، أحسبه تَوْبة بن الحُمَير :

كأن القلب ليلةَ قيل يُغْدَى ... بليلى العامرية أو يُراحُ
قَطاةٌ عزَّها شَرَكٌ فباتتْ ... تعالجُه وقد عَلِق الجَناح

ويروى : تجاذبه . فهذا غاية الاضطراب . وقد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا المقدار .

ومن التشبيه المحمود قول الشاعر :

طليقُ الله لم يَمْنُنْ عليه ... أبو داودَ وابنُ أبى كَثير
ولا الحَجّاج عَيْنَىْ بنتِ ماءٍ ... تُقلِّب طَرْفها حَذَرَ الصُّقور

وهذا غاية فى صفة الجبان . ولذى الرمة من التشبيه المصيب قوله :

بيضاءُ فى دَعَج ، صفــراء فى نَعَج   كأنها فضّةٌ قد مســـها ذهبُ

وأحسن ما قيل فى صفة الضلوع واشتباكها قول الراعى :

وكأنما انتطحتْ على أثباجهــــا   فُدُرٌ بشابةَ قد تممنَ وُعــــولا [1]

الفــادر : المُسِنّ من الوعول . وذو الرمة أخذ ذلك المعنى من قول المُثقّب العَبْدى :

إذا مــــا قمتُ أرْحَلُها بليـــلٍ   تَـأوَّهُ آهــةَ الرجل الحزيــــن

ومن التشبيه المستحسن قول علقمة بن عَبَدة :

كأنّ إبريقهم ظبىٌ على شَـــرف   مُفدمٌ بسبا الــكتان ملثــوم [2]

وقال عُرْوَة بن حزام العذْرىّ :

كأن قَطاةً عُلقت بجناحهــــــا   على كبدى من شــدة الخفقــان

ومن التشبيه الحسن قول جرير فى صفة الخيل :

يَشتفن للنظر البعيـــــد كأنما   إرنانُهـــا ببوائن الأشــطان [3]

---

[1] شابة : موضع . والأثباج : جمع ثبج ، وهو وسط كل شيء ومعظمه .

[2] الشرف : الأرض المرتفعة . ومفدم : وضع على فمه لثـام . وسبا الـكتان : يريد سبائب ، وهى الشقة من الثياب الرقيقة.

[3] الأشطان : جمع شطن ، وهو حبل البئر .

الأشطان : أراد شدة صهيلها ، يقول كأنما يصهلن فى آبار واسعة تبين أشطانها عن نواحيها . ونظير ذلك قول النابغة الجعدى :

ويصهل فى مثل جوف الطَّوِىِّ صهيـــــلا يبيِّن للْمُعْرِب

المعرب : العالم بالخيل العِراب . ومن حسن التشبيه قول عنترة :

غادرْنَ نَضلة فى مَعْرَك يجر الأسـنة كالمحتطبْ

يقــول : طعــن وغــودرت الرماح فيه فظل يجرها كأنه حامل حطب . ومن التشبيه المتجاوز المفرط قول الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهُداةُ بـــه كأنه عَـــلَم فى رأســه نــــار

فجعلت المهتدى يأتم به [1] وجعلته كنار فى رأس علم . والعلم : الجبل .

ومــن هـــذا الضرب من التشبيه قول العجاج : تَقَضِّىَ البازى إذا البازى كسرْ . والنقضى : الانقضاض ، وإنما أراد سرعتها . والعرب تبدل كثيرا الياء من أحــد التضــعيفين ، فيقولون : تظنيت ، والأصل تظننت ، لأنه تفعّلت من الظن . وكذلــك تقضــيت من الانقضاض أى تقضضت ، وكذلك تَسرّيت . ومثل هذا كثير. ومن تشبيه المحدثين المستطرف قول بشار :

كأن فؤاده كــرة تنَزّى حذارَ البين إنْ نفع الحـــذارُ [2]

---

[1] يــأتم : يهتــدى .

[2] تــزى : تثب .

وقال الحسن بن هانئ فى صفة الخمر :

فإذا ما لمستهـــا فَهبــــاءٌ	تمنـــع المسَ مـــا تُبيح العيونـــا
دَرَس الدهرُ ما تجســـم منهـــا	وتبقّى لُبــابُهــا المــــكنونـــا
فى كؤوس كأنهن نجـــــوم	جارياتٌ بُروجهـــا أيدينـــا
طالعـــــاتٌ مع السُّقاة علينـــا	فإذا ما غَرَبْنَ يَغربنَ فينــــا

فهـــذه قطعـــة من التشبيه غاية على سخف كلام المحدثين . وقال الحنفى ، وهو إسحاق بن خلف فى صفة السيف :

ألـــقَى بجـــانب خَصـــرِه	أمضى من الأجلِ المتـــــاحِ
فــكأنمــا ذَرَّ الهَبــــــا	ءَ عليـــه أنفاسُ الريــــاح

وقال دِعبل بن على فى صفة مصلوب :

لم أر صَفًا مثـــــلَ صف الزُّطّ	تسعين منهم صُلبـــوا فى خَـــطّ
من كل عالٍ جذْعـــه بالشّط	كأنه فى جــــــذعه المشتطّ
أخو نعــــاس جَدَّ فى التَّمَطِّى	قـــد خامر النومَ ولم يغَــــطّ

ومن إفراط التشبيه قول أبى خراش الهذلى يصف سرعة ابنه فى العدْو :

كأنهم يسعَون فى إثرِ طــــائر	خفيف المُشاش عَظْمه غير ذى نُحض[1]
يُبادر جُنحَ الليل فهــو مُهابـــذ	يحثُّ الجناحَ بالتبســط والقبض[2]

---

[1] المشاش : جمع مشاشة ، وهى رأس العظم اللين . والنحض : اللحم المكتنز .

[2] المهابـــذ : المســـرع فى جريـــه .

واعلم أن للتشبيه حدا . فالأشياء تَشابهُ من وجوه وتَباينُ من وجوه . فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع . فإذا شبه الوجه بالشمس فإنما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العظم والإحراق . قال الله عز وجل : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ . والعرب تشبه النساء ببيض النعام تريد نقاءه ونعمة لونه قال الراعى :

كأنّ بيض نعام فى مَلاحِفِها ... إذا اجتلاهن قيظٌ ليلةٌ وَمِد

وقيل للأوْسية ، وهى امرأة حكيمة من العرب ، بحضرة عمر بن الخطاب رحمه الله : «أى منظر أحسن ؟» فقالت : «قصور بيض فى حدائق خضر» . وأنشد عمر بن الخطاب لعَدِىّ بن زيد :

كدُمَى العاجِ فى المحاريب أو كالـ ... بَيْضِ فى الروضِ زَهْرُهُ مستنيرُ

وقال جرير :

ما استوصفَ الناسُ عن شىء يروقُهمُ ... إلا رأوا أمَّ نوح فوق ما وَصَفوا

كأنها مُزْنةٌ غَراء رائحة ... أو دُرَّةٌ لا يوارِى لونَها الصَّدف

المزنة : السحابة البيضاء خاصة ، وجمعها مُزْن ، فالمرأة تشبه بالسحابة لتهاديها وسهولة مَرّها . قال الأعشى :

كأنْ مِشيَتَها من بيتِ جارتها ... مَرُّ السحابة لاَ رَيْثٌ ولا عَجَلُ

الريث : الإبطاء . فهذا ما تلحقه العين منها . فأما الخفة فهى كأسرع مارّ وإن خفى ذلك على البصر . والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والغزال

والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة والبيضة . وإنما تقصد من كل شيء إلى شيء . قال ذو الرمـــة :

وَمَيـةُ أحسنُ الثَّقَلَين جِيـدا ... وسالفةً وأحسنُهم قَـذالا
فلم أر مثلها نظرا وعينـا ... ولا أمَّ الغزالِ ولا الغـزالا
تُريك بياضَ غُرَّتها ووجهـا ... كقَرنِ الشمس أفْتَـق ثم زالا
أصاب خَصاصةً فبدا كَليـلا ... كلا وانغَـلَّ سائرهُ انغـلالا [1]

الجيد : العنق . والسالفة : ناحية العنق . والقذالان : ناحيتا القفا من الرأس . وَقولـه : أفتق ثم زالا : يقال أفتق السحاب ، إذا انكشف انكشافة فـكانت فيه فـرجة يسيرة بين السحابتين ، تقول العرب : دام علينا الغيم ثم أفتقنا ، وإذا نُظر إلى الشـمس والقمـر من فَتْق السحاب فهو أحسن ما يكون وأشـده استنارة . وقولـه : كـلا ، يريـد فى سـرعة ما بـدا ثم غـاب . وقال عز وجل : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ . وقال تبارك وتعالى:﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾.

وقال ذو الرمـة :

فيا ظبيةَ الوَعْساء بين جُلاجلٍ ... وبين النقا أأنتِ أم أم سالمِ [2]

وقال ابن أبي ربيعـة :

أبصرتُها ليلةً ونسوتَها ... يَمْشين بين المَقـام والحجر
يَرْفُلْنَ فى الرَّيْطِ والمرُوط كما ... تمشى الهوَيْنا سواكنُ البقر [3]

---

[1] الثقلان : الإنس والجن . والخصاصة : كل خلل أو فرج . وانغل : دخل وخفى .

[2] الوعسـاء : الرمل الذى يصعب المشى فيه وتغيب فيه الأقـدام .

[3] يرفلن : يتبخترن ويجرون أذيالهن . والريط : الملاء إذا كانت قطعة واحدة . والمرط : الثوب غير المخيط .

فهذه تشبيهات غريبات مفهومة . وقال أبو عبد الرحمن العَطَوى :

قد رأينا الغزال والغصن والنجـــ ـــمين شمس الضحى وبدر الظلام
فَوَحقِّ البيـــان يَعْضُـــده البر هان فى مَأقط ألدّ الخصـــام
ما رأينا سوى المليحـــة شيئـا جمع الحُسْنَ كلـــه فى نظـام
فهى تجرى مَجْرَى الأصالة فى الرأ ى ومجرى الأرواح فى الأجسام

المــأقط : موضـــع الحـــرب ، فضربه مثلا لموضع المناظرة والمحاجة . والألد : الشديد الخصومة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ .

الريــــاح

الـــرياح أربع ، وما بين كل ريحين نَـــكْباء ، فهى ثمان فى المعنى. فما بين مَطْلِع سهيل إلى مطلع الفجر جنوب . وإنما تأتى الجنوب من قِبل اليمن . قال جرير :

وَحبّذا نفَحاتٌ من يمانيــــــــــةٍ تأتيك من قِبَلِ الرَّيان أحيانـــا

وإذا هـــبت مـــن تـــلقاء الفجر فهى الصبا ، تقابل القبلة ، فالعرب تسميها القَبول قال الشاعر :

إذا قلتُ هذا حين أســـلو يَهيجُنى نسيم الصبا من حيث يطّلعُ الفجر

وإذا أتت من قبل الشام فهى شَمال قال الفرزدق :

مُسْتقبِلين شمـــالَ الشامِ تضربنـــا بحاصِبٍ كنَديفِ القطن منثـــور

وإذا جاءت من دُبُر البيت الحرام فهى الدَّبور ، وهى تهب بشدة ، والعرب تسميها مَحْوَة ، عن أبي زيد ، لأنها تمحو السحاب .

فأما الأصمعى فزعم أن محوة من أسماء الشمال . وأنشدا جميعا :

قد بَكَرَتْ محوةُ بالعَجَاج فدمَّرتْ بقية الرَّجَاج [1]

الرجاج : حاشية الإبل وضعافها .

ولهذه الرياح أسماء كثيرة ، وأحكام كثيرة ، وأحكام فى العربية ، لأن بعضهم يجعلها نعوتا وبعضهم يجعلها أسماء ، وكذلك مصادرها تحتاج إلى الشرح والتفسير . يقال جَنت الريحُ جنوبا ، وشَملت شُمولا ، ودبَرت دُبورا ، وصَبت صُبوا ، وسَمَّت سُموما ، وحَرت حُرورا ، مضمومات الأوائل . فإذا أردت الأسماء فتحت أوائلها ، فقلت : جَنوب ، وشَمول ، وسَموم ، ودَبور ، وحَرور . ولم يأت من المصادر شيء مفتوح الأول إلا أشياء يسيرة ، قالوا توضأت وَضوءا حسنا ، وتطهرت طهورا . ويقال الشمال على لغات ست ، يقال : شَمال ، وشأمل ، وشَمْأل، وشَمَل وشَمْل وشامَل غير مهموز . ويقال للشمال الجِرْبياء .

ويقال للجنوب الأزْيَب ، ويقال للصبا القَبول ، وبعضهم يجعله للجنوب ، وهو فى الصَّبا أشهر بل هو القول الصحيح ، والهِير والأَيِّر والهَيِّرُ . وقال الشاعر :

* مَطاعيم أيسار إذا الهيرُ هَبَّتِ *

---

[1] العجاج : الغبار .

فهـــذا يدل على أنه الصبا ، وذاك أنهم يتمدحون بالإطعام فى المَشتاة وشدة الزمان كما قال طَرفة :

نحن فى المَشتاةِ ندعـــــو الجَفَلى لا تــــرى الآدب فينا يَنتَـــقِرْ

الجفـــلى : العامـــة . والنَّقَرى : الخاصة . والآدب : صاحب المأدبة ، يقال مأدَبة ومأدُبه للدعوة .

يقـــول أكثر العرب : هذه ريح مجنوب ، وريح شمال ، وريح دبور . فتجعل جنوبا وشمالا ودبورا وسائر الرياح نعوتـــا . قال الأعشـــى :

لهـــا زَجَلٌ كحَفيف الحصـــــا دِ صادف بالليل ريحا دبـــورا [1]

وقال جرير : * ريح خَريق شمال أو يمانية * فهذا يكون على النعت أجود لأنه أوضحه بيمانية ولا تـــكون اليمانية إلا نعتـــا لأنها منسوبة . فأما الخريق فهى الشديدة من كل ريح .

والبليل : الباردة من كل الرياح ، وأصل ذلك الشمال . قال جرير يعير بنى مجاشع بخذلانهم الزبير بن العوام فى كلمة يقول فيها :

إنى تُذكّرنى الزبيرَ حمـــــامـــةٌ تدعو بأعلى الأيْكَتين هَديـــلا
يالهفَ نفسى إذ يَغُرُّك حَبْلُهـــم هلا اتخذتَ على القُيون كَفيـــلا
قالت قريش ما أذلَّ مجاشـــــعا جارا وأكرمَ ذا القتيـــل قتيـــلا

[1] الزجـــل : الصوت .

أفبعدَ مَتْركـــكم خليـــلَ محمد ترجو القيونُ مع الرســول سبيلا ؟
أفتى الندى وفتى الطّـعان غررتم وأخــا الشمال إذا تهب بليــلا ؟

وكـــان لبيد بن ربيعة شريفا فى الجاهلية والإسلام ، وكان قد نذر أن لا تهب الصـــبا إلا نحـــر وأطعم حتى تنقضى . فهبت بالإسلام وهو بالـــكوفة مقتر مملق . فعـــلم بذلك الوليد بن عقبة . فخطب الناس ، وقال : « إنـــكم قد عرفتم نذر أبى عقيل وما وكد على نفسه ، فأعينوا أخاكم » . ثم نزل فبعث إليه بمئة ناقة ، وبعث الناس ، فقضى نذره . ففى ذلك تقول ابنة لبيـــد :

إذا هبت رياح أبى عقيـــــل دعونـــا عند هَبَّتهـــا الوليـــدا

وتقـــول فى أكثر الـــكلام : هبت جنوبا ، وهبت شمالا ، فتستغنى عن ذكر الريح . وهذا مما يؤكد أنها نعوت ، لأن الحال إنما بابها أن تقع فيما يكون نعتـــا . قال جرير :

هبت شمالا فذكرى ماذكرتـــكمُ عند الصَّفاة إلى شرقىِّ حَوْرانـــا

وقـــال أوس بـــن حجر فى شدة البرد وغلبة الشمال يرثى فَضالة بن كَلَدة الأســـــدى :

والحافظ الناسَ فى تَحـــــوطَ لم يُرسلوا تحت عائذ رُبَعـــــا
وعَزَّتِ الشَّمْألُ الرياحَ وقـــــد أمسى كَميعُ الفتـــاة مُلتفعـــا [1]
وكانت الـــكاعب المنعَّمة الـــــ حسناء فى زاد أهلهـــا سَبُعـــا

---

[1] عزت : غلبت . والـــكميع : الضجيع .

تحوط وقحوط وكَحْل وحَجْرة أسماء للسنة المجدبة . والعائذ : الحديثة النتاج فتنحر أولادها فى السنة المجدبة إبقاء على ألبانها وشحومها . والربع : الذى ينتج فى الربيع . والهبع : الذى ينتج فى الصيف . يقال : ماله هبع ولا ربع ، وإنما سمى هبعا لأن الــربع أســن منه فيمشى مع أمهاتها ولا يلحقهن الهبع إلا باجتهاد ، فيستعين بعنقه فى المشى يقال إذا فعل ذلك هبَع يهبَع . ويقال للريح الشمال : نشع ومسْع قال الهذلى :

قد حال دون دريسَيْه مُؤَوِّبــــةٌ ... نِسْعٌ لهــا بعضاهِ الأرض تَهْزيــز

الدريســان : ثوبان خَلَقان . ومؤوِّبة : مُفَعِّلة من التأويب ، وهو سير النهار لا تعريج فيه. قال أبو عبيدة: هو سير النهار . والإسآد : سير الليل لا تعَرْيس فيه . وإنما يعنى ريحا . وقوله نسع : أى شمال . والعضاه : شجرة ضخمة ، فبعض العرب يقول للواحدة : عضَة ، فيقول فى الجمع : عضَوات وعِضَهات .

ويقال للريح الجنوب النُّعامَى . قال أبو ذُؤيب :

مَرَتْه النُّعــــامَى فلــــم يعترفْ ... خلافَ النعامى من الشام ريحــا

ومعـــنى مـــرته : استدرَّته [1] . وفى الحديث : «ماهبت الريح الجنوب إلا أسال الله بها واديا» . وقال رجل يمدح رجلا :

فتى خُلقتْ أخلاقُــــــه مطمئنةً ... له نفحــــــاتٌ ريحُهُنَّ جنوب

[1] أى حلبتــــــه .

يـــريد أن الجنوب تأتى بالمطر والندى . والعرب تـــكره الدبور . وفى الحديث أن رســــــول الله صلى الله عليه وسلم قال : «نُصرت بالصَّـــبا ، وأهلـــكت عـــاد بـــالدَّبور » . وقلما يكون بالدبور المطر لأنها تجفل السحاب . ويكون فيها الرَّهَج والغَبَرة ، ولا تهب إلا أقلَّ ذاك إلا بشدة فتـــكاد تَقْلع البيوت وتأتى على الزرع . وقال رجل يهجو رجـــلا :

لو كنتَ ريحا كانت الدَّبـــــور ا   أو كنت غيما لم تـــــكن مطيرا
أو كنت ماء لم تـــــــكن طَهورا   أو كنت مُـــخـــا كنت مخاريرا
أو كنت بردا كنت زمهريرا

الرير : المخ الرقيق ، يقال مخ رير ورار ، فى معنى واحـــــــد .

فأمـــا مـــا جـــاء فى الحديث من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الهـــبوب: «الـــلهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحـــا» فإن العرب تقول : لا تَلْقَح الســـحاب إلا من رياح . وتصديق ذلك قول الله عز وجل : ﴿الذى يُرسل الرياح فتُـــثير سحابا﴾ . وقول النبى صلى الله عليه وسلم : «إذا هبَّت بحْريَّة ثم تذاءَبَت» . قـــال الشـــاعر : * تَسُحّ إذا تذاءبت الرياح * يقول إذا تقابلت ، يقال تذاءبت الـــرياح وتناوحت أى تقابلت . فإذا خَلَصت الريح عندهم دبورا فهى من جنس الـــبوار ، وإذا خلصت شمالا شتوية فهى من آيات الجدب ، ومن ثم تقول العرب : فلان يطعم فى الشمال ، كما تقول يطعم فى المَحْل .

أقبح العيوب

كان زياد يقول ، وهو الغاية فى السياسة : « أوصيكم بثلاثة : بالعلم والشريف ، والشيخ . فوالله لا أوتى بوضيع سب شريفا أو شاب وثب بشيخ أو جاهل امتهن عالما ، إلا عاقبت وبالغت » . وقال عمارة لبنى أسد بن خُزَيمة :

يا أيها السائلى عمدا لأخبره ... بذات نفسى وأيدى الله فوق يدى

إن تستقم أسدٌ تَرْشُد وإن شَغَبت ... فلا يَلُم لائم إلا بنى أسد

إنى رأيتكمُ يُعْصَى كبيركم ... وتَكْنعون إلى ذى الفجْرة النكد

فباعد الله كلَّ البعد داركمُ ... ولا شفاكم من الأضغان والحسد

فرأى عصيانهم الكبير من أقبح العيب وأدله على ضغن بعضهم لبعض وحسد بعضهم بعضا . والوضيع ينقلب إلى الشريف لأنه يرى مقاولته فخرا ، والاجتراء عليه ربحا ، كما أن مقاولة الشريف للئيم ذل وضعه . وقال الشاعر :

إذا أنتَ قاولت اللئيم فإنما ... يكون عليك العَتْبُ حين تُقاوله

ولست كمن يرضى بما غيرُه الرِّضا ... ويمسح رأس الذئب والذئبُ آكله

وقد امتنع قوم من الجواب تنبلا ومواضعهم تنبىء عن ذلك . وامتنع قوم عيا بلا اعتلال . وامتنع قوم عجزوا واعتلوا بكراهة السفه ، وبعضهم معتل برفعة نفسه عن خصمه ، وبعضهم كان يسبه الرجل الركيك من العشيرة فيعرض ويسب سيد قومه . وكانت الجاهلية ربما فعلته فى الذحول [1] . قال الراجز :

---

[1] الذحول : جمع ذحل ، وهو الثأر .

إنّ بَجيلا كلما هجـــاني   مِلْتُ على الأغْطش أو أبـــان
أو طلحة الخيرِ فتى الفتيـــان   أولاك قـــوم شأنهم كشـــاني
ما نلت من أعراضهم كفـــاني   وإن سكتُّ عرفوا إحســـاني

وقال أحد المحدَثين :

أما الهجاء فدَقَّ عرضُك دونـــه   والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت عَتيق عرضك إنــه   عرض عَزَزْتَ به وأنت ذليـــل

وقال آخر :

نُبِّئتُ كلبا هـــاب رميى له   ينبحنى من موضـــع نائى
لو كنتَ من شيء هجونـاك أو   لو نلت للشـــائع والرائى
فَعَجّ عن شتمى فإنى امـــرؤ   حَلّمنى قـــلة أكفـــائى

ووقف رجل عليه مقطَّعات [١] على الأحنف بن قيس يسبه ، وكان عمرو بن الأهـــتم جعل له ألف درهم على أن يسفِّه الأحنف فجعل لا يألو [٢] أن يسبه سبا يُغضِـــب ، والأحنف مطرق صامت . فلما رآه لا يكلمه أقبل الرجل يَعَضّ إبهاميه ويقول : «يا سو أتاه ، والله ما يمنعه من جوابى إلا هوانى عليه» .

وفعـــل ذلـــك آخر فأمسك عنه الأحنف ، فأكثر الرجل إلى أن أراد الأحنف القيام للغداء . فأقبل على الرجل فقال له «يا هذا ، إن غداءنا قد حضر ، فانهض بـــنا إليه إن شئت ، فإنك منذ اليوم تحدو بجمل ثقال» والثقال من الإبل : البطيء الثقيل الذى لا يكاد ينبعث .

---

(١) المقطعات : كل ما قطع وخيط من الثيـــــاب .
(٢) يألـــو : يقصـــر .

وعُدّت على الأحنف سقطة فى هذا الباب ، وهو أن عمرو بن الأهتم دس إليه رجـــلا ليسفهه ، فقال لـــه : « أبا بحر ، ما كان أبوك فى قومه ؟ » قال : « كان من أوســـطهم ولم يتخلف عنهم » . فرجع إليه ثانية . ففطن الأحنف أنه من قبل عمرو فقـــال : « ما كان مال أبيك ؟» فقال : « كانت له صِرْمة يمنح منها وَيقْرِى ، ولم يك أهتم سلاحـــا » .

فأمـــا قول الشعبى للرجل ما قال فمن غير هذا الباب ، وإنما مخرجه الديانة . وذاك أن رجـــلا سب الشعبى بأمور قبيحة نسبه إليها . فقال الشعبى : « إن كنت كاذبا فغفر الله لك ، وإن كنت صادقا فغفر الله لى » .

وقال رجل لأبى بكر الصـــديق رحمه الله : « لأسُبَّنك سبا يدخل معك قبرك ». فقال : « معك والله يدخل لا معى » .

ويتصـــل بهذا البـــاب ذكر من رغب برجل عن إرْثِ رجل لا يشاكله وولاية رجل لا يشابهه . قال الشاعر :

بكتْ دارُ بِشْرٍ شَجْوَها أنْ تبدلّتْ ... هلالَ بن قَعْقاعٍ ببشر بـــن غالب
وما هى إلا كالعروسِ تنقّـــــلت ... على رغمها من هاشم فى محارب

التشبيهات المستحسنة

ثم نرجع إلى التشبيه المصيب . قال امرؤ القيس فى طول الليل :

كأنّ الثريا عُلقت فى مَصامِهـــــــا ... بأمراسِ كتان إلى صُمِّ جَنْـــــدَلِ

فهـــذا فى ثبات الليـــل وإقامته . والمصام : المقام ، وقيل للممسك عن الطعام صائم لثباته على ذلك . والأمراس : جمع مَرَس وهو الحبل .

وقال فى ثبات الليل :

فيـــالك من ليـــــل كأنّ نجومَـــه بكل مُغارِ الفَتْلِ شُـــدّتْ بيذْبُلِ

المغـــار : الشديد الفتل ، يقال أغَرْت الحبل إذا شددت فتله . ويذبل : حبل بعينه . وقال أيضـــــا :

كأن أبانا فى أفـــــــانين وَدْقِه كبيرُ أناس فى بجـــاد مُزمَّـــــل

أبان : جبل ، وهما أبانان : أبان الأســـود ، وأبان الأبيض . وقوله : فى أفانين ودقـــه : يـــريد ضروبا من ودقه . والودق : المطر . وقوله : كبير أناس فى بجـــاد مزمل: يريد مزملا بثيابه. قال تبارك وتعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ*قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وهو المُتزمل ، والتاء مدغمة فى الزاى . وإنما وصف امرؤ القيس الغيث، فقال قوم: أراد أن المطر قد خنق الجبل فصار له كاللباس على الشيخ المتزمل ، وقال آخرون: إنما أراد ما كساه المطر من خضرة النبت ، وكلاهما حسن . وذكر الودق لأن تلك الخضرة من عمله .

وقال زهير :

كأن فُتات العِهْنِ فى كـــــل منزل نزلن به حَب الفَنـــا لم يُحطـــــم

الفـــــــا : شـــجر يثمر ثمرا أحمر ثم يتفرق فى هيئة النبق الصغار . فهذا من أحســـن التشبيه . وإنما وصف مايسقط من أنماطهن إذا نزلن . والعهن : الصوف

الملون فى قول أكثر أهل اللغة ، وأما الأصمعى فقال : كل صوف عهن . وكذلك قال أهل اللغة : الَحَنْتم : الخزف الأخضر ، وقال الأصمعى : كل خزف حنتم .

والتشبيه جار كثير فى كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم ، لم يـــبعد . قال الله عز وجل وله المثـــل الأعلى : ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ وقال : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ . وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين فى هـــذه الآية ، فقال : «إنما يمثَّل الغائب بالحاضر ، ورؤوس الشياطين لم نرها ، فـــكيف يقع التمثيل بها ؟» وهؤلاء فى هذا القول كما قال الله عـــــز وجل : ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ وهذه الآية قد جاء تفسيرها فى ضـــربين : أحدهما أن شجرا يقال لـــه الأسْتَن منـــكر الصورة يقال لثمره رؤوس الشـــياطين ، وهو الذى ذكره النابغة فى قوله : * تَحيد من أَسْتَنٍ سود أسافلهُ * وزعـــم الأصمعى أن هذا الشجر يسمى الصوم . والقول الآخر ، وهو الذى يسبق إلى القلوب ، أن الله جل ذكره شَنع صورة الشياطيـــن فى قلوب العبـــاد ، وكان ذلك أبلغ من المعاينة . ثم مَثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس .

وحُدثت فى إسناد متصل أن أبـــا النجم العِجْلى أنشد هشام بن عبد الملك * والشمس قد صارت كعين الأحول * لـــما ذهب به الرَّوِىُّ عن الفـــكر فى عين هشام . فأغضبه فأمر بطرده . فأمل أبو النجم رجعته وكان يأوى المساجد . فأرق هشام ليلة فقال لحاجبه : «أبغنى رجلا فصيحا يحادثنى وينشدنى» . فطلب له مـــا طـــلب فوقف على أبى النجم فأتى به . فلما دخل به إليه قال : «أين تـــكون منذ أقصيناك ؟» قال : «بحيث ألفتنى رسلك» . قال : «فمن كان أبا مثواك ؟» قال : «رجلين كلبيا وتغلبيا ، أتغدى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر» . فقال لـــــه :

«مـــالك مـــن الولد ؟» قال : «ابنتان» . قال : «أزوجتهما ؟» قال : «زوجت إحداهما» . قال : «فبم أوصيتها» قال : «قلت لها ليلة أهديتُها :

سبِّى الحمــــــاةَ وابْهتى عليهـــــا وإنْ أَبتْ فازْدلفى إليهــــــــا
ثم اقْرعِى بالوَدِ مِرْفقَيْهـــــــــا وجَددى الحلْف به عليهـــــــــا
لا تخبرى الدهرَ بذاك ابنيهـــــــا

قال : «أفأوصيتها بغير هذا ؟» قال : «نعم قلت :

أوصيتُ من بَرَّةَ قلبـــا حــــــرا بالــكلب خيرا والحماة شـــرا
لا تسأمى نَهْكا لها وضَــــرا والحىَّ عُمِّيهم بشَرٍّ طـــــرا
وإنْ كَسَـــوك ذهبـــا ودُرا حتى يَرَوْا حلو الحيـــاة مـــرا

فقـــال هشـــام : «ما هكذا أوصى يعقوب ولده» قال أبو النجم : «ولا أنا كيعقـــوب ولابنتى كولده» . قال : «فما حال الأخرى ؟» قال : «قد درجت بـــين بيوت الحى ، ونفعتنا فى الرسالة والحاجة» قال : «فما قلت فيها ؟» قال : قلت :

كأن ظَلامةَ أخت شــــــيبان يتيمةٌ ووالداها حَيـــــان
الرأسُ قملٌ كـــله وصِئْبان وليس فى الرجلين إلا خيطـــان
فهى التى يُذعَر منها الشيطان

فقال هشام لحاجبه : «ما فعلت الدنانير المختومة التى أمرتك بقبضها ؟» قال: «هـــاهى عندى ووزنها خمسمئة» . قال : «فادفعها إلى أبى النجم ليجعلها فى رجل ظلامـــة مـــكـــان الخيطين» . أفلا تراه قال : * فهى التى يذعر منها الشيطان * وإن لم يره ، لما قُرر فى القلوب من نـــكارته وشناعته . وقال آخر :

وفى البقل إن لم يدفع الله شــــره   شياطين يعدو بعضهن على بعض

وزعم أهل اللغة أن كل متمرد من جن أو إنس يقال له شيطان ، وأن قولهم : تشــيطن ، إنمــا معــناه تخبَّث وتنــكر . وقد قال الله جل وعز: ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ . قال الراجز :

أبصرها تلتهـــــــــم الثعبانـــا   شيطانةً تزوجت شــــــيطانـــا

وقال امرؤ القيس :

أيقتلنى والمَشْرفىُّ مُضـــــاجِعى   ومَسنونة زرق كأنياب أغـــوال

والغول لم يخبر صادق قط أنه رآهــــا .

ومن التشبيه المطرد على ألسنة العرب ما ذكروا فى سير الناقة وحركة قوائمها قال الراجـــز :

كأنهـــــا ليــــلةَ غِب الأزْرَقِ   وقــد مَدَدْنــا باعَهــــا للْسّوق
خرقاءُ بين السُّلمين ترتقى

قولــــه : ليلة غب الأزرق ، إنما يعنى موضعا ، وأحسبه ماء لأنهم يقولون نطفة زرقاء ، وهى الصافية . وقوله : وقد مددنا باعها للسوق ، يقول استفرغنا ما عندها من السير . يقال : تبوَّعت وانباعت ، إذا مدت باعها . وقوله : خرقاء بين السلمين ترتقى ، يقول لــكثرة حركــة الخرقاء وقلة حذقها بالصعود .

وقال الشماخ :

كأن ذراعيها ذراعـــــا مُدلةٍ بُعيدَ السِّباب حـــاولتْ أن تَعَذَّرا

من البيض أعطـــــافا إذا اتصلت دَعَتْ فراسَ بن غَنْـــــم أو لقيط بن يَعْمرا

بها شَرَق من زعفـــــران وعنبر أطارت من الحسن الرداءَ المحبَّرا

تقول وقد بلّ الدمـــوع خِمارَهـــا أبي عِفق ومَنْصـــبى أن أُعَيرا

كأن بذفراهـــا مناديل فـــــارقتْ أكُفَّ رجال يَعْصِرون الصَّنَوْبـــرا

كأن ابن آوى مُوثَـــق تحت غَرْضِهـــــا إذا هـــــو لم يَـــكْلِم بنابيـــه ظَفَّـــرا

شبه يديها بيدى مدلة بجمال ومنصب قد سابَّت وأقبلت تعتذر وتشير بيديها ، فوصـــف جمالهـــا الـــذى به تُدل ومنصبها المتصل بمن ذكرته . وقوله : أطارت من الحســـن الرداء المحبرا ، يقول هى مدلة بجمالها فلا تختمر فتستر شيئا عن الناظر لأنها تبتهج بكل ما فى وجهها ورأسها . وقوله :

كأن بذفراهـــا مناديل فـــــارقت أكف رجال يعصرون الصنوبـــرا

يقول : لسواد الذفرى وهذا من كرمها . وأما قوله :

كأن ابن آوى موثق تحت غرضهـــا إذا هو لم يكلم بنابيـــــه ظفرا

يقول : ليست تستقر فـــكأن ابن آوى يَكْلمها بنابيه أو يخلبها بظفره فهى لا تستقر . والغرض والغُرضة : واحد ، وهو حزام الرَّحْل . وقال آخر :

كأن ذراعيها ذراعـــا بَذيَّـــــــة   مفجَّعة لاقتْ خلائل عــــن عُفْر
سمعن لها واستفرغت فى حديثهـــا   فلا شىء يَفْرى باليدين كما تفرى

ولـــو قيـــل : إن هذا من أبلغ ما قيل فى هذا الوصف ، ما كان ذلك بعيدا . وصفها بأنها بذية ، وقد فُجعت بما أُسمعت ونيل منها ، ولقيت خلائلها بعد زمان ، وتلك الشكوى كامنة فيها ، وأصغين إليها يتسمعن . والفرى : الشق .

وقال امرى القيس :

كأن الحصى من خلفها وأمامهـــــا   إذا نَجلَتْه رجلُهـــا خَذْفُ أعسَرا
كأن صليل المرْو حين تُشـــــــذُّه   صليل زُيوف يُنتقَدن بَعبْقَـــرا [1]

قوله : خذف أعسرا : يريد أنه يذهب على غير قصد . وقوله : صليل زيوف يقال إن الزيف شديد الصوت صافيه .

وقد أكثروا فى هذا . فمن الإفراط فى السرعة قول ذى الرمـــة :

كأنه كوكب فى إثر عِفْرِيــــــــة   مُسوَّم فى سواد الليل مُنقضِب [2]

يقال : عفريت وعفرية فى معنى واحـــــد .

ومن الإفراط قول له :

بأرض ترى فَرْخَ الُحبارى كأنــه   بها راكبٌ موفٍ على ظهر قردد [3]

---

[1] نجلته : رمته . والمرو : حجر الصوان . وتشذه : تنحيه وتقصيه . وعبقر : موضع .

[2] مسوم : معلم . منقضب : متنقل من مكان إلى آخر .

[3] القردد : ما ارتفع وغلظ من الأرض .

ومن ذلك قوله :

وكادت على الأطواء أطواء ضارجٍ ... تُساقِطنى والرَّحْلُ من صوتِ هدهد [1]

وقال آخـــــر :

مَروحٌ برجليهــا إذا هى هجَّرت ... ويمنعها من أن تطير زمامهــا [2]

وكذلــك الأعرابى الذى يقول * لو ترسل الريح لجئنا قبلها * وأملح ما قيل فى هذا المعنى وأجوده قول امرئ القيس :

وقد أغتدِى والطيرُ فى وُكُناتِهــا ... بمُنجرِد قَيْدِ الأوابدِ هيـــكل [3]

فجعله للوحش كالقيد . ومن حلو التشبيه وقريبه وصريح الــكلام قول ذى الرمة :

ورمل كأَوراك العذارى قطعتُــه ... وقد جَلَّلته المظلماتُ الحنــادِس

الحِنْدِس : اشتداد الظلمة وهو توكيد لها . وقال الشماح فى صفة الفرس :

مُفجُّ الحَّوامِى عن نسور كأنهــا ... نَوَى القَسْبِ تَرتْ عن جَرِيم مُلَجْلَج [4]

---

[1] الأطواء : جمع طوى ، وهى البئر المطوية . وضارج : موضع .

[2] هجرت : سارت فى الهاجرة ، وهى حر منتصف النهــار .

[3] الوكنات : جمع وكنة ، وهى عش الطائر . والمنجرد : القصير الشعر من الخيل . والهيكل : العظيم .

[4] القسب : التمر اليابس . والجريم : المحصود المقطوع .

قولـــه: مفج الحوامى ، يريد مفرق الحوامى . فالحوامى : نواحى الحافر . والنســور واحدهــا نسر ، وهى نكتة فى داخل الحافر ، ويحمد الفرس إذا صلب ذلــك مــنه ، ولذلك شبه بنوى القسب . وترت : سقطت . والجريم : المصروم . والملجــلج : الــذى قد لجلج مضغا فى الفم ثم قذف لصلابته . وقوله مفج ، ليس يــريد الــذى هــو شديد التفرقة ولــكن الانفصال عن النسر ، فإنه إن اتسع واستوى أسفله فذلك الرَّحَح وهو مذموم فى الخيل ، وكذلك إن ضاق وصغر قيل لــه مُصْطَرّ ، وكان عيبا قبيحا. وإنما يحمد الحافر المقعَّب ، وهو الذى هيئته كهيئة القعــب . وإن كان كذلك قيل حافر وَأْب . وفى كل حافر حاميتان ، وهما حرفاه عن يمين وشمال . ومقدمه السُّنْبُك ومُؤخَّره الدابرة .

ومن التشبيه الحسن قول الشاعر :

كأن المتن والشَّرْخين منـــــــه ... خلافَ النَّصْلِ سِيــطَ به مَشيج

يــريد سهما رُمِى به فأنفذ الرمية ، وقد اتصل به دمها . والمتن : متن السهم . وشــرخ كل شىء : حدُّه ، فأراد شرخى الفُوق ، وهما حرفاه . والمشيج : اختلاط الدم بالنطفة .

وأنشد بشار بن برد الأعمى قول كثير :

ألاَ إنما ليلى عصــــا خيزرانــة ... إذا غمزوها بالأكـــــف تلين

فقال : «لله أبو صخر جعلها عصا ثم يعتذر لها ، والله لو جعلها عصا من مخ أو زبد لــــكان قد هجنها بالعصــا» . ألا قال كما قلت :

وَبيضاءِ المحاجــــــرِ من مَعَد | كأنّ حديثها قِطَع الجنـــــــان
إذا قـــــامت لسُبْحَتها تثنت | كأن عظامهـــــا من خيزران

والخيزران : كل غصن لين يتثنى .

وقد عاب بعض الناس قول كثير :

فما روضةٌ بالحزْن طيبـــــة الثرَى | يمج الندَى جَثْجاثها وعَرارُهـــا
بمنخَرِق من بطن واد كأنمـــــا | تلاقتْ بــه عَطارة وتجارهـــا
بأطيبَ من أردان عَزَّةَ مَوْهنـــا | وقد أُوقدتْ بالمندل الرَّطب نارها

وحكـــى الـــزبيريون أن امرأة مدينية عرضت لكثير ، فقالت : « أأنت القائل هذين البيتين ؟ » قال : « نعم » . قالت : « فض الله فاك ! أرأيت لو أن زنجية بخرت أردانها بمندل رطب أما كانت تطيب ؟ ألا قلت كما قال امرؤ القيس :

ألم تر أنى كلما جئتُ طارقـــا | وجدتُ بها طِيبـــا وإن لم تَطيبِ

الجثجاث : ريحانة طيبة الريح برية من أحرار البقل . والعرار : البهار البرى ، وهـــو حسن الصفرة طيب الريح . وقوله : موهنا : يريد بعد هدء ، يقال أتانا بعد هـــدء من الليل ، وبعد وهن ، أى بعد دخولنا فى الليل . والمندل : العود ، يقال له المندل والمندلىّ .

قال الراجـــز :

كأنها حين تناهَى البـــــــاسُ | جنيــــــةٌ فى رأسهــا أمْراسُ
بها ســـــكون وبها شِـــــماس | يخرج منها الحجر الـــكُباس [1]
يمرّ لا يحبســـــه حَبّـــــاس | لا نافـــــذ الطعنِ ولا تَرّاس

---

[1] الشماس : الامتناع والإبــــــاء .

يصــف المنجنيق . والأمراس : الحبال ، الواحدة مَرَسة . والكباس : الضخم. والحــباس : الذى من شأنه أن يحبس ، يقال : رجل ضارب للذى يضرب ، كثيرا كــان منه ذلك أو قليلا . فإذا قلت : ضَرّاب وقتال ، فإنما يكثر الفعل ولا يكون للقليل .

والعــرب تشبه على أربعة أضرب : فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه ، وهو أخشن الــكلام . فمـــن التشـــبيه المفـــرط المتجاوز قولهم للسخى : هو كالبحر ، وللشجاع : هو كالأســـد، وللشريف : سما حتى بلغ النجم ، ثم زادوا فوق ذلك . فمن ذلك قول بعضهم :

له هِمَمٌ لا منتهَى لــــكبارهـــا	وهمّتُه الصغرى أجلُّ من الدهــر
له راحةٌ لو أن معشار جُودهــــا	على البر صار أندى من البــحر
ولو أن خَلق الله مَسْك فـــارس	وبارَزَه كان الخليَّ من العمــر [1]

وقـــد قيل إن امرأة عمران بن حطان قالت له : «أما زعمت أنك لم تــكذب فى شعر قط ؟» قال : «أو فعلت» قالت: أنت القائل :

فهنــــــاك مَجزَأةُ بن ثــــــو	ر كان أشجعَ من أسامــــــــه

أفيكـــون رجل أشجع من الأسد ؟» ، فقال : «أنا رأيت مجزأة فتح مدينة ، والأسد لا يفتح مدينة» .

(1) المســــك : الجلد .

ومـن عجيـب التشبيه فى إفراط غير أنه خرج فى كلام جيد ، وعنى به رجل جـليل فخـرج مـن باب الاحتمال إلى باب الاستحسان ، ثم جُعل لجودة ألفاظه وحسـن رصفه واستواء نظمه فى غاية ما يستحسن ، قول النابغة يعنى حِصْن ابن حذيفة :

يقولون حصن ثم تـأبى نفوسُهم	وكيف بحصن والجبال جُنـوحُ
ولم تلفظ الموتى القبورُ ولم تـزل	نجومُ السماء والأديم صحيـح
فعَمّا قليلٍ ثم جـاء نَعيـُّـهُ	فظل نَدىُّ الحىّ وهو ينـوح

ومن تشبيههم المتجاوز الجيد النظم قول أبى الطّمَحان :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههـم	دجَى الليل حتى نظّم الجَزْعَ ثاقبُه

ويروى عن الأصمعى أنه رأى رجلا يختال فى أزَيِّر فى يوم قُرٍّ فى مشيته ، فقال لـه : « ممن أنت يا مقرور ؟ » فقال : « أنا ابن الوحيد ، أمشى الَخَيْزَلَى ويُدفئنى حسبى [1] » .

وقيل لآخر فى هذا الحال : « أما يوجعك البرد ؟ » فقال : « بلى والله ، ولكنى أذكر حسبى فأدفأ » . وأصوب منهما قول العريان الذى سئل فى يوم قر عما يجد . فقـال : « ما علىَّ منه كبير مؤنة » . وقيل : « وكيف ؟ » فقال : « دام بى العرى فاعتاد بدنى ما تعتاده وجوهكم » .

---

(1) أزير : تصغير إزار ، وهى الملحفة . والقر : البرد . والخيزلى : مشية فيها تفـكك وتثاقل .

ومن التشبيه القاصد الصحيح قول النابغـــة :

وَعيدُ أبى قابُوسَ فى غير كُنْهِـــه	أتانى ودونى راكسٌ فالضَّـــواجعُ
فبتُّ كأنى ساوَرتْنى ضئيـــلةٌ	من الرُّقْش فى أنيابِها السم ناقــع
يُسهَّد من نوم العشـــاء سليمُهـــا	لَحَلْىِ النساءِ فى يديه قعاقـــع
تناذرها الراقون من ســـوء سمها	تُطلِّقه طورا وطورا تراجـــع [1]

فهذه صفة الخائف المهموم . ومثل ذلك قول الآخر :

تَبيت الهموم الطارقـــات يَعُدْنَنى	كما تعترى الأوصاب رأس المطلق

والمطلق : هو الذى ذكره النابغة فى قوله * تطلقه طورا وطورا تراجع * وذاك أن المنهوش إذا ألح الوجع به تارة وأمسك عنه تارة ، فقد قارب أن يوأس من برئه. وإنمـــا ذكـــر خوفـــه من النعمان وما يعتريه من لوعة فى إثر لوعة والفترة بينهما . والخائف لا ينام إلا غرارا ، فلذلك شبهه بالملدوغ المسهد . وقوله : لحلى النساء فى يديه قعاقع ، لأنهم كانوا يعلقون حلى النساء على الملدوغ ، ويزعمون أن ذلك من أســـباب البرء ، لأنه يسمع تقعقعها فيمنعه النوم ، فلا ينام فيدب فيه السم ويسهد لذلك .

وقال الآخـــــر :

كأنَّ فِجاجَ الأرضِ وهى عريضـــةٌ	على الخائف المطلوب كُفَّةُ حابل
يُؤَدِّى إليه أن كل ثنيـــــــــة	تَيمَّمها ترمى إليـــه بقاتـــــــل .

---

[1] راكس والضواجع : موضعان . والرقش : جمع رقشاء ، وهى الحية المنقطة بسواد وبياض .

يقال لـــكل مستطيل كُفة ، ويقال لـــكل شيء مستدير كِفة . وكُفة الحابل : يعنى صاحب الحبالة التى ينصبها للصيد .

وأما التشبيه البعيد الذى لا يقوم بنفسه فـــكقوله :

بل لو رأتنى أختُ جيراننـــــــا إذ أنا فى الدار كـــــأنى حمار

فإنمـــا أراد الصحة . فهذا بعيد لأن السامع إنما يستدل عليه بغيره . وقال الله جـــل وعز ، وهذا البين الواضح : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ . والسِّفْر : الكتاب . وقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ ﴾ فى أنهـــم قـــد تعامَوْا عنها وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها، حتى صاروا كالحمار الذى يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها .

والتشـــبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس . وقد وقع على ألسُن الناس من التشـــبيه المستحســـن عندهم وعن أصل أخذوه أن شبهوا عين المرأة والرجل بعين الظـــبى أو البقرة الوحشية ، والأنف بحد السيف، والفم بالخاتم ، والشعر بالعناقيد، والعنق بإبريق فضة ، والساق بالجُمَّار [1] . فهذا كلام جارٍ على الألسن . وقد قال سراقة بن مالك : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وساقاه باديتان فى غَرْزه كأنهمـــا جمّارتان ، فأردته فوقعت فى مِقْنَب من خيل الأنصار ، فَقرعونى بالرماح ، وقالوا : «أين تريد ؟» .

---

[1] الجمــــــار : شحم النخلة .

وقال كعب بن مالك الأنصارى : «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُر تبلج وجهه فصار كأنه البدر» . وعين الإنسان مشبَّهة بعين الظبى والبقرة فى كلامهم المنثور وشعرهم المنظوم من جارى ما تكلمت به العرب وكثر فى أشعارها . قال :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولكن عظم الساق منك دقيق

وقال الآخر :

فلم ترعينى مثل سرب رأيته خرجن علينا من زقاق ابن واقف

طلعن بأعناق الظبا وأعين الـ ـجآذر وامتدت بهن الروادف

ويقال للخطيب : كأن لسانه مبرد . فهذا الجارى فى الكلام . كما يقال للطويل : كأنه رمح ، ويقال للمهتز للكرم : كأنه غصن تحت بارح [1]. ومن مليح التشبيه قول القائل :

لعَينيك يومَ البين أسرعُ واكفا من الفَنن الممطور وهو مَروح

وذاك أن الغصن يقع المطر فى ورقة فيصير منها فى مثل المداهن ، فإذا هبت به الريح لم تُلبِّثه أن تقطِّره .

ثم نذكر بعد هذا طوائف من تشبيه المحدَثين ومَلاحاتهم ، ومن أكثرهم تشبيها لا تساعه فى القول ، وكثرة تفننه واتساع مذاهبه الحسن بن هانئ . قال فى مديحه الفضل بن يحيى :

---

[1] البارح : الريح الحارة .

وكنـــــا إذا ما الحائنُ الجَد غَرَّهُ	سَنا برقِ غار أو ضَجيجُ رِعـــادِ
تردَّى له الفضلُ بن يحيى بن خالد	بماضى الظُّبَى أزهاه طولُ نجــاد
أمام خَميس أرجُوان كأنــــــــه	قميصٌ مَحوكٌ من قنـــا وجيــاد
فمـــا هو إلا الدهرُ يأتى بصرفه	على كل من يشقى به ويعـــادى

قوله : الحائن الجد ، يقال حان الرجل ، إذا دنا موته ، والجد : الحظ . والسنا مـــن الضـــياء ، مقصور ، قال الله عز وجل : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ وجمـــع الرعد فقال : رعاد ، ، كقولك كلب وكلاب. وقوله : بماضى الظبى ، ظبة كـــل شـــىء : حده . والنجاد : حمائل السيف . وأزهاه : رفعه وأعلاه ، والرجل يُمدح بالطول ، فلذلك يذكر طول حمائله . والخميس : ههنا الجيش . والأرجوان: الأحمر . ومن تشبيهه الجيد فى هذا الشعر الذى ذكرنا قوله :

ترى الناس أفواجا إلى بـــاب داره	كأنهمُ رِجــــلا دَبا وجَـــراد (1)
فيومٌ لإلحاق الفقير بـــــذى الغنى	ويومُ رقاب بوكِرت لحصَـــــاد

ومن التشبيه الجيد قوله :

فـــكأنى بما أُزَيِّن منهـــــــــــا	قَعَدىٌّ يزين التحــــــكيما (2)

وكـــان ســـبب هذا الشعر أن الخليفة تشدد عليه فى شرب الخمر وحبسه من أجل ذلك حبسا طويلا فقال :

(1) الدبـــا : الجراد قبل أن يطير .

(2) القعدى الذى يستحل القعود عن الحرب من الخوارج . والتحكيم : أحد مبادئ الخوارج ، وهو قولهم لا حكم إلا الله .

أيهـا الرائحان باللوم لُومـا	لا أذوق المُدام إلا شَـميما
نالنى بالمَلام فيهـا إمـامٌ	لا أرى لى خلافـه مستقيما
فاصْرِفاها إلى سـواى فإنى	لستُ إلا على الحديث نـديما
كُبْرُ حظى منهـا إذا هى دارت	أن أراهـا وأن أَشَمَّ النسيما
فـكأنى بمـا أزين منهـا	قعدى يزيـن التحـكيما
لم يطق حَمْلَه السلاح إلى الحـر	ب فأَوْصَى المُطِيقَ ألا يقيـما

فهذا المعنى لم يسبقه إليه أحد .

وحُدثت أن العُمانى الراجز أنشد الرشيد فى صفة فرس :

كأنّ أذنيه إذا تشوّفا   قادمة أو قلما محرّفا [1]

فعلم القوم كلهم أنه قد لحن ولم يهتد منهم أحد لإصلاح البيت إلا الرشيد ، فإنـه قال له : «* تخال أذنيه إذا تشوفا * ». والراجز وإن كان لحن فقد أحسن التشبية .

ويـروى أن جريرا دخل إلى الوليد وابن الرّقاع العاملى عنده ينشده القصيدة التى يقول فيها :

غَلبَ المسَاميحَ الوليـدُ سماحة   وكفى قريشَ المعضلات وسادهـا

---

[1] تشوف : تطلع . والقادمة : الريش الذى فى مقدم الجنـاح .

قـال جريـر : «فحسدته على أبيات منها حتى أنشد فى صفة الظبية * تُزجِى أغَـنَّ كأنّ إبرة رَوْقه [1] * فقلت فى نفسى : وقع والله ، ما يقـدر أن يقول أو يشـبه به ، فقال : قلمٌ أصاب من الدواة مدادها ، فما قدرت حسداله أن أقيم حتى انصرفت » .

ومن تشبيهه الحسن الذى نستطرفه قوله :

تُعاطيـكَها كفٌ كأن بنانهـا	إذا اعترضتهْا العينُ صفُ مَدارِى[2]

ومن التشبيه المليح قوله :

وكأن سُعْدَى إذ تودعنـا	وقد اشرأب الدمع أن يـكفـا
رَشأ تَواصَيْن القيـانُ بـه	حتى عَقَدن بأُذْنـه شُنُفا [3]

وفى هذا الشعر من التشبيه :

خَبِّر فـؤادك أو ستخبره	قَسَما لينتهيَنَّ أو حَلِفـا
الحب ظَهرٌ أنت راكبـه	فإذا صرفتَ عنانه انصرفـا

ومن التشبيه الجيد قوله :

إليك رمتْ بالقوم خوصٌ كأنما	جَماجُها فوق الحِجاج قبـور [4]

وله أيضـا :

سأرحَلُ من قُودِ المَهارِى شِمِلّـةً	مُسَخَّرة ما تُستحَثُ بحـادِى

---

[1] تزجى : تسوق . وأغن : ولد الظبية ذو الغنة . والروق : القرن .

[2] المدارى : الأمشـاط .

[3] يكف : يهطل . والرشأ : ولد الظبية الذى مشى . والشنف : القرط .

[4] الخوص : النوق التى غارت عيونها . والحجاج : العظام التى ينبت عليها الحواجب.

مع الريح مـــــا راحتْ فإن هى أعْصَفَتْ
نَهوزٌ برأسٍ كالعَلاةِ وهـــــادى[1]

العلاة : السِّــندان .

وقال الحسن بن هانئ فى صفة السفينة :

بُنيت على قَدَر ولاءم بينهـــا طَبقانِ من قيرة ومن ألـــواح
فــكأنها والماءُ ينطح صدرهــا والخيزرانةُ فى يـــد المَلاح
جَوْنٌ من العِقبان يَبْتَــدر الدُّجى يَهْوِى بصوتٍ واصْطِفاقِ جنــاح

وقال فى شعر آخر يصف الخمر ويذكر صفاءها ورقتها وضياءها وإشراقها :

إذا عَبَّ فيها شاربُ القــومِ خِلْتَه يُقبِّل فى داجٍ من الليل كوكبــا

فأما قوله :

بَنَيْنا على كســرى سَماءَ مُدامــة جوانبُها محفوفةٌ بنجــــوم
فلورُدَّ فى كسرى بن ساسان روحُـــه
إذا لا صطفانى دون كـــــل نديم

(1) القــود : الذليــلة المــنقادة ، والمهارى : جمع مهرية ، وهى إبل لا يعدل بها شىء فى السرعة. والشملة : الناقة السريعة . وأعصفت الريح : اشتدت . والنهوز : التى تمد عنقها ورأسها . والهـــادى : العنق .

فإنمـــا كانت صورة كسرى فى الإناء . وقوله : جوانبها محفوفة بنجوم ، فإنما يريد ما تطوق به من الزبد .

ومن حسن تشبيه المحدثين قول بشار :

وكأنّ تحت لســـــــــانهـــا هاروتَ ينفث فيـــــــه سحرا
وتخال ما جمعت عليـــــــــــــ ـــــه بنانُهـــا ذهبـــا وعطـــــرا

وهذا التشبيه الجامع .

ومن حسن التشبيه من قول المحدثين قول عباس بن الأحنف :

أُحْرَم منكم بما أقول وقـــــــــد نال به العاشقون مـــــــن عَشقوا
صرتُ كأنى ذُبــــــــــالة نُصِبت تضىء للنــــــــاس وهى تحترق

فهذا حسن فى هذا جدا .

ومن حسن ما قالوا فى التشبيه قول إسماعيل بن القاسم أبى العتاهية للرشيد:

أمينَ الله أمْنُك خيرُ أمـــــــــنٍ عليك من التقى فيه لبــــــــاسُ
تُساس من السماء بـــكل فضل وأنت به تسوس كما تســـــــاس
كأنّ الخَلْق رُكب فيـــــه روح له جسد وأنت عليـــــــه رأس

والعرب تختصر فى التشبيه وربما أو مأت به إيماء . قال أحد الرجاز:

بِتْنـــا بِحسّان ومِعْـــــزاه تَئط ما زلتُ أسعى بينهـــــم وألتَبِط
حتى إذا كان الظـــــلام يختلط جاءوا بِمَذْقٍ هل رأيتَ الذئب قط

يقول : فى لون الذئب ، واللبن إذا جهد وخلط بالمـــاء ضرب إلى الغبرة .

ومن أحسن التشبيه ومليحه قول رجل يهجو رجلا برثاثة الحال :

يأتيك فى جُبَّة ممزّقـــــــــةٍ أطولُ أعمار مثلهــــــــــا يومُ
وطيلسان كالآل يلبســــــــــه على قميص كأنـــــــــه غَيْم

والتشـــبيه كثير ، وهو باب كأنه لا آخر له وإنما ذكرنا منه شيئا لئلا يخلو هذا الـــكتاب من شيء من المعانى .

خفة بعد ثقل

كـــان الحجـــاج بن يوسف يستثقل زيادة بن عمرو العتـــكى . فلمـــا أثنت الوفـــود عـــلى الحجاج عند الوليد بن عبد الملك والحجاج حاضر ، قال زيادة بن عمـــرو : « يـــا أمير المؤمنين ، إن الحجاج سيفك الذى لا يَنبو ، وسهمك الذى لا يطيـــش ، وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم » . فلم يـــكن أحد بعد أخف على قلب الحجاج منه .

البخل والجود

قال أسماء بن خارجه الفزارى : « لا أُشاتم رجلا ولا أرد سائلا ، فإنما هو كريم أَسُدّ خَلته ، أو لئيم أشترى عرضى منه » .

وقال آخر يذم :

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهـــــم   واستوثقوا من رِتاج الباب والدار
لا يَقْبِس الجار منهم فَضْلَ نارهـــم   ولا تَـــكفّ يد عن حرمة الجـــار

وقـــال زيـــاد : « كفـــى بالبخيل عارا أن اسمه لم يقع فى حمد قط ، وكفى بالجواد مَجْدا أن اسمه لم يقع فى ذم قط » .

وقال آخـــــــــر :

ألاَ تَرَيْنَ وقـــــد قَطَّعْتنِى عَذَلا	ماذا من الفَضلْ بين البخل والجود
لا يعدم السائلون الخيرَ أفعــــلُه	إمـا نوالا وإمـا حسنَ مردود
إلا يكن ورق يومـا أراحُ بـــه	للخابطين فإنى لـين العـــود

إلاّ يـكن ورقٌ : يريد المال ، وضربه مثلا . ويقال : أتى فلان فلانا يختبط ما عـنده ، والاختباط ضرب الشجر ليسقط الورق ، فجعل الخابط الطالب، والورق المـال .

ويروى أن ضيفا نزل بالحطيئة ، وهو يرعى غنما له وفى يده عصـا . فقـال الضـيف : « يـاراعى الغنم » . فأومأ إليه الحطيئة بعصـاه . وقال : « عَجْراء من سَلَم » فقال الرجل : « إنى ضيف » . فقال الحطيئة : « للضيفان ».

أخبار الخوارج

ذكـــــر أهل العلم من الصُّفْرِية أن الخوارج لما عزموا على البيعة لعبد الله ابـن وهب الراسِبى من الأزد تَكرَّه ذلك . فأبوا مَنْ سواه ولم يريدوا غيره . فلما رأى ذلك منهم ، قال : «يا قوم ، استبيتوا الرأى» . أى دعوه يَغِبّ يقول : دعوا رأيـكم تأت عليه ليلة ثم تعقبوه .

وكـان عـبد الله بـن وهب ذا رأى وفهم ولسان وشجاعة ، وإنما لجئوا إليه وخلعوا مَعْدان الإيادى لقول معدان :

سلامٌ على من بايع الله شـــاريا	وليس على الحزب المقيم سـلام

فبرئت منه الصفرية وقالوا : « خالفتَ لأنك برئت من القَعَد » . والخوارج فى جميع أصنافها تبرأ من الـكاذب ، ومن ذى المعصية الظاهرة .

وحُدِّثت أن واصل بن عطاء أبا حذيفة أقبل فى رفقة فأحسوا الخوارج . فقال واصـل لأهـل الرفقة : « إن هذا ليس من شأنـكم فاعتزلوا ودعونى وإياهم » وكانوا قد أشرفوا على العطب . فقالوا : « شأنك » . فخرج إليهم ، فقـالوا : « مـا أنـت وأصـحابك ؟ » . قال : « مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده » . فقالوا : « قد أجرناكم » . قال : « فعلمونا » . فجعلوا يعلمونه أحكامهم . وجعل يقول : « قد قبلت أنا ومن معى » . قالوا : « فامضوا مصاحَبين فـإنكم إخواننا » . قال : « ليس ذلك لـكم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِـنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ فأبلغونا مأمننا » . فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : « ذاك لـكم » فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن .

وذكـر أهل العلم من غير وجه أن عليا رضى الله تعالى عنه لما وجه إليهم عـبد الله بن عباس رحمة الله عليه ليناظرهم ، قال لهم : « ما الذى نقمتم على أمير المؤمـنين ؟ » قـالوا : « قد كان للمؤمنين أميرا . فلما حكّم فى دين الله خرج من الإيمان . فليتب بعد إقراره بالـكفر نَعُد له » . فقال ابن عباس : « لا ينبغى لمؤمن لم يشـب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر » . قالوا : « إنه قد حكّم » . قال : « إن الله عـز وجل قد أمر بالتحكيم فى قتل صيد فقال عز وجل ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَـدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ فـكيف فى إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟ ». فقالوا : « إنه قد حُكـم عـليه فـلم يرض » فقال : « إن الحـكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجـبت معصيته، وكذلك الحـكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما » . فقال بعضهم

لبعض : «لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ » .

ومن طريف أخبار الخوارج قول قطرى بن الفُجاءة المازنى لأبى خالد القَنانى وكان من قَعَد الخوارج :

أبا خالد يا انفرْ فلستَ بخالد	وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى	وأنت مقيم بين لص وجاحد

فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحياة إلى حبا	بناتى إنهن من الضعاف
أحاذر أنْ يَرَين الفقر بعدى	وأن يشربن رَنقًا بعد صاف
وأن يَعرين إن كُسِى الجوارى	فتنبو العين عن كرم عجاف
ولولا ذاك قد سَوَّمت مُهرى	وفى الرحمن للضعفاء كاف [1]

وهذا خلاف ما قال عِمران بن حِطّان أحد بنى عمرو بن شيبان . وقد كان رأس القَعَد من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم . قال لما قتل أبو بلال ، وهو مرداس بن أدَيَّة :

لقد زاد الحياةَ إلىّ بُغضا	وحُبا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراش	وأرجو الموتَ تحت ذُرا العَوالى
ولو أنى علمتُ بأن حتفى	كحتف أبى بلال لم أبال
فمَن يك هَمُّه الدنيا فإنى	لها والله ربِّ البيت قال

---

[1] الرنق : الماء الكدر . وسومت : علمت .

وكـــان مـــن حديث عمران بن حطان أنه لمـــا أطردَه الحجاج كان ينتقل فى القبائل . فـــكان إذا نزل فى حى انتسب نسبا يقرُب منه . ففى ذلك يقول :

نزلنا فى بنى سعد بن زيـــــــــد	وفى عَك وعامر عَوْبَثــــــــــان
وفى لَخم وفى أُدَد بـــــن عمرو	وفى بـــكر وحىّ بنى العِـــدان

ثم خرج حتى نزل عند رَوح بن زِنْباع الجُذامى ، وكان يقرى الأضياف وكان مســـامرا لعبد الملك بن مروان أثيرا عنده ، فانتمى لـــه من الأزد . وكـــان روح ابـــن زنـــباع لا يسمع شعرا نادرا ولا حديثا غريبا عند عبد الملك ، فيسأل عنه عمران بن حطان إلا عرفه وزاد فيه . فذكر ذلك لعبد الملك فقال : «إن لى جارا من الأزد ما أسمع من أمير المؤمنين خبرا ولا شعرا إلا عرفه وزاد فيه » . فقـــال : « خَبِّرنى ببعض أخباره ». فخبره وأنشده . فقال : «إن اللغة عدنانية وإنى لأحسبه عمران بن حطان» . حتى تذاكروا ليلة قول عمران بن حطان يمدح ابن ملجم لعنه الله :

ياضربةً من تقى ما أراد بهـــــــا	إلا ليَبْلُغَ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره حينـــــــــا فأحِسبُه	أوْفَى البرية عند الله ميزانـــــا

فلم يدر عبد الملك لمن هو فرجع روح إلى عمران بن حطان فسأله عنه . فقال عمـــران : «هذا يقوله عمران بن حطان يمدح به عبد الرحمن بن ملجم قاتل على ابن أبى طـــــــالب » . فرجع روح إلى عبد الملك فأخبره . فقال له عبد الملك : «ضـــيفك عمـــران بن حطان ، اذهب فجئنى به» . فرجع إليه فقال : «إن أمير المؤمنين قد أحب أن يراك» . قال عمران : «قد أردت أن أسألك ذلك فاستحييت

منك ، فامض فإني بالأثر » . فرجع روح إلى عبد الملك فأخبره . فقال عبد الملك : « أما إنك سترجع فلا تجده ». فرجع وقد ارتحل عمران ، وخلف رقعة فيها :

يا روحُ كم من أخى مَثْوًى نزلتُ به قد ظنّ ظنَّك من لخم وغسان
حتى إذا خِفْتُه فارقتُ منزله من بعد ما قيل عمران بن حطان
قد كنت جارَك حَوْلا ما تُروِّعنى فيه روائعُ من إنس ومن جان
حتى أردتَ بيَ العُظْمَى فأدركنى ما أدرك الناسَ من خوف ابن مروان

ثم ارتحل حتى نزل بزُفَر بن الحارث الكلابى أحد بنى عمرو بن كلاب، فانتسب له أوزاعيا . وكان عمران يطيل الصلاة ، وكان غلمان من بنى عامر يضحكون منه . فأتاه رجل يوما ممن رآه عند روح بن زنباع فسلم عليه . فدعاه زفر فقال : « من هذا ؟ » فقال : « رجل من الأزد رأيته ضيفا لروح بن زنباع » فقال له زفر : « يا هذا ، أزد يا مرة وأوزاعيا مرة ؟ إن كنت خائفا آمناك ؛ وإن كنت فقيرا جبرناك » . فلما أمسى هرب وخلف فى منزله رقعة فيها :

إن التى أصبحتْ يعْيى بها زفرٌ أعيتْ عَياءً على روح بن زنباع
ما زال يسألنى حولا لأخبرَه والناس من بين مخدوع وخداع
حتى إذا انقطعت عنى وسائله كفَّ السؤالَ ولم يُولَع بإهلاع
فاكفف كما كف عنى إننى رجل إما صَميمٌ وإما فَقْعة القاع

ثم ارتحل حتى أتى عُمان فوجدهم يعظمون أمر أبى بلال ويُظهرونه ، فأظهر أمره فيهم . فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب إلى أهل عمان . فارتحل عمران هاربا حتى أتى قوما من الأزد فلم يزل فيهم حتى مات . وفى نزوله بهم يقول :

نزلنـــــا بحمد الله فى خير منزل	نسَرُّ بما فيــه من الأُنْس والْخفَرْ
نزلنـــا بقوم يجمع الله شَمْلَهم	وليس لهم عُودٌ سوى المجدِ يُعْتَصَر
من الأزد إنّ الأزد أكرم معشـــرٍ	يمانية طـــابوا إذا نسب البشر
فأصبحت فيهم آمنـــا لا كمعشر	أتونى فقالـــوا من ربيعةَ أو مُضَر

يقـــال : هذا أبو مثواى ، والأنثى هذه أم مثواى ، ومنزل الضيافة وما أشبهها المثوى . وكذلك قال المفسرون فى الله عز وجل : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أى إضافته . ويقـــال مـــن هـــذا : ثَـــوَى يثوِى ثُوِيًا . وقوله : ولم يولع باهلاعى ، أى بإفزاعى وتـــرويعى ، والهلع من الجبن عند ملاقاة الأقران . وقوله : * إما صميم وإما فقعة القاع * الصميم : الخالص من كل شىء . وقوله : وإما فقعة القاع : يقال لمن لا أصل له : هو فقعة بقاع ، وذلك لأن الفقعة لا عروق لهـــا ولا أغصان . والفقعة : الـــكمأة البيضاء .

ويقال فيما يروى من الأخبار إن أول من حَـــكَّم عُرْوَة بن أدَيَّة . وقال قوم : بـــل أول من حـــكم رجل يقال له سعيد من بنى محارب بن خَصَفة . ولم يختلفوا فى إجماعهم على عبد الله بن وهب الرّاسبىّ ، وأنه امتنع عليهم ، وأوْمأ إلى غيره ، فلم يقنعوا إلا به . فـــكان إمام القوم ، وكان يوصف بالرأى . فأما أول سيف سُلّ من ســـيوف الخوارج فسيف عروة بن أدية ؛ وذلك أنه أقبل على الأشعث فقـــــال : «مـــا هـــذه الدنيئة يا أشعث ؟ وما هذا التحكيم ؟ أشَرْطٌ أوثق من شرط الله عز وجـــل؟» . ثم شـــهر عليه السيف والأشعثُ مولّ فضرب به عجز البغلة، فشبت البغـــلة . فنفرت اليمانية ، وكانوا جلَّ أصحاب علىّ صلوات الله عليه . فلما رأى ذلـــك الأحنف قصد هو وجارية بن قدامة ، ومسعود بن فدَكىّ ، وشبث بن ربعى الرياحى إلى الأشعث . فسألوه الصفح ففعل . وكان عروة بن أدية نجـــا من حرب

النهروان . فلم يزل باقيا مدة من خلافة معاوية . ثم أُتي به زياد ومعه مولى . فسأله عن أبي بكر وعمر فقال خيرا . ثم سأله فقال : «ما تقول فى أمير المؤمنين عثمان بن عفــان وأبي تــراب على بن أبي طالب ؟» . فتولى عثمان ست سنين من خلافته ثم شــهد عــليه بالكفــر ، وفعل فى أمر على مثل ذلك إلى أن حكم ، ثم شهد عليه بالكفــر. ثم سأله عن معاوية ، فسبه سبا قبيحا . ثم سأله عن نفسه فقال : «أولك لِز ْنية وآخرك لدعوة ، وأنت بعدُ عاصٍ لربك» . ثم أمر به فضُربت عنقه . ثم دعا مــولاه فقــال : «صف لى أموره» . فقال : «أأطنب أم أختصر ؟» فقال : «بل اختصر» . فقال : «ما أتيته بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط» .

وكــان سبب تسميتهم الحرورية أن عليا لمــا ناظرهم بعد مناظرة ابن عباس رحمــه الله إيــاهم ، فــكان مما قال لهم : «ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لمــا رفعوا المصــاحف قــلت لــــكم : إن هذه مكيدة ووهن ، وأنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لم يأتونى ثم سألونى التحكيم ، أفعلمتم أنه كان منــكم أحد أكره لذلك مــنى ؟» . قالوا : «اللهم نعم» . قال : «فهل علمتم أنــكم استكرهتمونى على ذلــك حــتى أجبتكم إليه ، فاشترطت أن حكمهما نافذ ما حــكما بحكم الله عز وجــل ، فإن خالفاه فأنا وأنتم من ذلك برآء ؟ أو أنتم تعلمون أن حــكم الله لا يعــدونى ؟» . قــالوا : «اللهم نعم» . فقالوا : «حكمت فى دين الله برأينا ونحن مُقــرون بأنــا قد كفرنا ونحن تائبون ، فاقرر بمثل ما أقررنا وتب ننهض معك إلى الشــام» . فقال : «أما تعلمون أن الله عز وجل ثناؤه قد أمر بالتحكيم فى شقاق بــين رجــل وامرأة ، فقــال تبارك وتعالى : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ، وفى صيد أصيب فى الحرم كأرنب يساوى ربع دينار ، فقال عز وجل : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ؟ ﴾ » . فقالوا : «إن عمرا لما أبى عليك أن تقول فى

كتابك : هذا ما كتبه عبد الله على أمير المؤمنين ، محوت اسمك من الخلافة وكتبت علـى بن أبي طالب ؟» . فقال لهم رضى الله عنه : «لى برسول الله صلى الله عليه وسـلم أسوة ، حيث أبى عليه سهيل بن عمرو أن يكتب : هذا كتاب كتبه محمد رسـول الله وسـهيل بن عمرو ، فقال : لو أقررنا بأنك رسول الله ما خالفناك ، ولـكن أقدمك لفضلك . ثم قال اكتب : محمد بن عبد الله ، فقال لى : يا على امح رسول الله ، فقلت : يارسول الله لا تسخو نفسى بمحو اسمك من النبوة . فقال عليه السلام : قفنى عليه . فمحاه بيده صلى الله عليه وسلم . ثم قال : اكتب محمد ابن عبد الله . ثم تبسم إلىّ فقال : يا على ، أما إنك ستسام مثلها فتعطى» . فرجع معـه منهم ألفان من حَروراء ، وقد كانوا تجمعوا بها . فقال لهم على صلوات الله عليه : «ما نسميكم ؟» ثم قال : «أنتم الحرورية لاجتماعكم بحروراء» . وقال الصَّلتان العبدى فى كلمة له :

أرى أمة شَهرتْ سيفَهـا	وقد زِيد فى سوْطهـا الأصبحىّ
بنجـدية وحروريـة	وأزْرق يـدعـو إلى أزرقى
فملتنا أننـا المسـلمون	على ديـن صديقنـا والنبى

قوله : وقد زيد فى سوطها الأصبحى ، فإنه تسمى هذه السياط التى يعاقب بها السـلطان الأصبحية ، وتنسب إلى ذى أصبح الحميرى ، وكان ملـكا من ملوك حمـير ، وهـو أول مـن اتخذهـا ، وهو جد مالك بن أنس الفقيه رضى الله عنه. والـنجدية : تنسـب إلى نجدة بن عويمر ، وهو عامر الحنفى ، وكان رأسا ذا مقالة مـنفردة من مقالات الخوارج . وقد بقى من أهلها قوم كثير . وكان نجدة يصلى بمكـة بحـذاء عبد الله بن الزبير فى جَمْعه فى كل جمعة ، وعبد الله يطلب الخلافة ، فيمسكان عن القتال من أجل الحرم . قال الراعى يخاطب عبد الملك:

إنى حلفتُ عـــــــلى يمين بَرَّةٍ | لا أكـــذبُ اليومَ الخليفةَ قِيــلا
ما إن أتيت أبا خُبيب وافـــــدا | يومـــا أريد ببيعتى تبـــــــديلا
ولا أتيت نجيــــــدة بن عـــويمر | أبغى الهـــــدى فيزيدنى تضليلا
من نعمة الرحمن لا مــــن حيلتى | إنـــى أعـــد له على فضـــولا
أخذوا العريف فقطعوا حيزومــه | بالأصبحية قائمـــا معـــــلولا

قوله : وأزرق يدعو إلى أزرقى : يريد من كان من أصحاب نافع بن الأزرق الحنفى، وكان نافع شجاعا مقدما فى فقه الخوارج ، وله ولعبد الله بن عباس مسائل كـــثيرة . وأصـــحاب نافع بن الأزرق هم ذوو الْحَد والجد ، وهم الذين أحاطوا بالبصـــرة حـــتى ترحّل أكثر أهلها منها . وكان الباقون على الترحل فقلّد المهلب حربهم فهزمهم إلى الفرات ، ثم هزمهم إلى الأهواز ، ثم أخرجهم عنها إلى فارس ثم أخـــرجهم إلى كِـــرْمان . وفى ذلك يقول شاعر منهم فى هذه الحرب التى صاحبها صاحب الزنج بالبصرة يرثى البلد ، ويذكر المنقبة التى كانت لهم :

سَقى الله مصرا خَفّ أهلوه من مصر | وما الذى يبقى على عُقَبِ الدهر
ولو كنتُ فيه إذ أُبيح حَريمـــــــه | لمتُّ كريما أو صدَرت على عـــذر
أُبيح فلم أملك له غـــير عَــــبْرة | تُهيب بها أن حارَدَتْ لوعةُ الصّدر
ونحن رددنا أهلها إذ ترحلــــوا | وقد نُظمت خيـــل الأزارق بالجَسرْ
ومَنْ يَخش أطراف المنـــايا فإننـــا | لبسنا لهن السابغات من الصــبر
فإن كريه الموتِ عـــذبٌ مذاقــه | إذا ما مزجناه بطيبٍ من الذّكر
وما رُزق الإنسان مثـــل منيـــةٍ | أراحت من الدنيا ولم تَخْزِ فى القبر[1]

(1) حاردت : قلت أو انقطعت . والسابغات : الواسعة الطويلة .

وكان مقدار من أصاب عليّ صلوات الله عليه منهم بالنهروان ألفين وثمانى مئة فى أصح الأقاويل . وكان عددهم ستة آلاف . وكان منهم بالكوفة زهاء ألفين ممن يُسِرّ أمره ولم يشهد الحرب . فخرج منهم رجل بعد أن قال على رضوان الله عليه : « ارجعوا وادفعوا إلينا قاتل عبد الله بن خباب » . فقالوا : « كلنا قَتله وشَرِك فى دمه » . ثم حمل منهم رجل على صف على ، وقد قال على : « لا تبدءوهم بقتال » . فقتل من أصحاب على ثلاثة ، وهو يقول :

أقتلهم ولا أرى عليا ولو بدا أوجَرته الخَطيا [1]

فخرج إليه على صلوات الله عليه فقتله . فلما خالطه السيف قال : « حبذا الرَّوْحة إلى الجنة » . فقال عبد الله بن وهب : « ما أدرى إلى الجنة أم إلى النار ؟ » . فقال رجل من سعد : « إنما حضرت اغترارا بهذا ، وأراه قد شك » . فانخزل بجماعة من أصحابه . ومال ألف إلى ناحية أبى أيوب الأنصارى ، وكان رحمه الله على ميمنة على . وجعل الناس يتسللون . ثم خرج إليهم على فى أصحابه وقد قال لهم : « إنه والله ما يقتل منكم عشرة ولا يفلت منهم عشرة » . فقتل من أصحابه تسعة وأفلت منهم ثمانية .

وقيل : أول من حكّم ولفظ بالحكومة ولم يشد بها رجل من بنى سعد بن زيد مناة يقال له الحجَّاج بن عبد الله ويعرَف بالبرك ، وهو الذى ضرب معاوية على أليته ؛ فإنه لما سمع بذكر الحكمين ، قال : « أيحكم فى دين الله ؟ لا حكم إلا الله » . فسمعه سامع فقال : « طَعَن والله فأنفذ » .وأول من حكم بين الصفين

[1] أوجرته : طعنته فى فمه . والخطى : الرمح الجيد المنسوب إلى الخط .

رجل من بنى يَشكر بن بكر ، فإنه كان فى أصحاب على ، فحمل على رجل منهم فقتله غيلة ، ثم مرَق بين الصفين فحـــكّم . وحمل على أصحاب معاوية فَـــكَثَروه فرجع إلى ناحية علىّ صلوات الله عليه . فحمل على رجل منهم . فخرج إليه رجل من هَمدان فقتله .

وجـــاء فى الحديث أن عليـــا رضى الله عنه تُلى بحضرته : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَـــرِينَ أَعْمَالًـــا * الَّذِيـــنَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ . فقال على : « أهل حَروراء منهم » .

وروى عن على صلوات الله عليه أنه خرج فى غداة يوقظ الناس للصـــلاة فى المسجد . فمر بجماعة تتحدث فسلم وسلموا عليه . فقال ، وقبض على لحيتـــه : « ظنـــنت أن فيكـــم أشـــقاها الذى يخضب هذه من هذه » . وأومأ بيده إلى هامته ولحيته.

ومن شعر على بن أبى طالب الذى لا اختلاف فيه أنه قال : وأنه كان يردده ، أنهـــم لما ساموه أن يقر بالكفر ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشـــام ، فقال : « أبعْدَ صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفقه فى الدين أرجع كافرا ؟ .

يا شـــاهدَ الله على فاشهدِ ‏ ‏ ‏ ‏ أنى على ديـــن النبى أحمدِ
مَنْ شـــك فى الله فإنـــى مهتدى »

ويروى * توّليت ولىَّ أحمد *

فـــلما قتل على أهل النهروان ، وكان بالكوفة زهاء ألفين من الخوارج ممن لم يخـــرج مـــع عبد الله بن وهب ، وقوم ممن استأمن إلى أبى أيوب الأنصارى تجمعوا

وأمَّـــروا عليهم رجلا من طيىء . فوجه إليهم على صلوات الله عليه رجلا ، وهم بالنُّخيـــلة . فدعـــاهم وَرفق بهم فأبَوْا . فعاوَدَهم فأبوا . فقُتلوا جميعا . فخرجت طائفـــة مـــنهم نحـــو مكة . فوجه معاوية من يقيم للناس حجَّهم ، فناوشه هؤلاء الخوارج . فبلغ ذلك معاوية فوجه بُسْر بن أرْطاة أحد بنى عامر بن لؤَى . فتواقفوا وتراضوْا بعد الحرب بأن يصلى بالناس رجل من بنى شَيْبة لئلا يفوت الناس الحج .
فلمـــا انقضى ، نظرت الخوارج فى أمرها ، فقالوا : «إن عليـــا ومعاوية قد أفسدا أمر هذه الأمة ، لو قاتلناهم لعاد الأمر إلى حقه» . وقال رجل من أشجع : «والله ما عمرو دونهما ، وإنه لأصل هذا الفساد» . فقـــــال عبد الرحمن بن مُلْجَم : «أنـــا أقـــتل عـــليـــا» . فقـــالوا : «وكيف لك به ؟» . قال : «أغْتاله». فقال الحجـــاج بـــن عبد الله الصَّريمى وهو البُرَك : «وأنا أقتل معاوية» . وقال زاذَوَيْه مولى بنى العنبر بن عمرو بن تميم : «وأنا أقتل عمرا» . فأجمع رأيهم على أن يكون قتلهم فى ليلة واحدة ، فجعلوا تلك الليلة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان . فخـــرج كل واحد منهم إلى ناحية فأتى ابن ملجم الـــكوفة فأخفى نفسه . وتزوج امـــرأة يقـــال لهـــا قَطام بنت علقمة من تَيْم الرَّباب ، وكانت ترى رأى الخوارج. والأحاديث تختلف ، وإنما يُؤْثَر صحيحها . ويروى فى بعض الأحاديث أنها قالت : «لا أقـــنع منك إلا بصداق أسميه لك ، وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وأَمة ، وأن تقـــتل عليـــا» . فقـــال لهـــا : «لك ما سألت ، فـــكيف لى به ؟» قالت : «تـــروم ذلك غيلة ، فإن سلمت أرحت الناس من شر ، وأقمت مع أهلك ، وإن أصبت سرت إلى الجنة ونعيم لا يزول» . فأنعم لهـــا . وفى ذلك يقول :

ثلاثة آلافٍ وعبـــد وَقَينـــــةٌ　　وضَرْب عليّ بالحســـام المصمَّم
فلا مهرَ أغلى من على وإنْ غلا　　ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وقـــد ذكروا أن القاصد إلى معاوية يزيد بن ملجم ، والقاصد إلى عمرو آخر مـــن بنى ملجم ، وأن أباهم نهاهم ، فلما عصوه قال : «استعدوا للموت» ؛ وأن أمهـــم حضتهم على ذلك . والخبر الصحيح ما ذكرت لك أول مرة . فأقـــــــام ابـــن ملجم ، فيقال إن امرأته قطام لامته وقالت : «ألا تمضى لما قصدت ! لشـــدّ مـــا أحببت أهلك ! » قال : «إنى قد وعدت صاحبىّ وقتا بعينه» وكان هنالك رجـــل من أشجع يقال له شبيب فواطأه عبد الرحمن . ويروى أن الأشعث نظر إلى عـــبد الرحمن متقلدا سيفا فى بنى كندة فقال : «يا عبد الرحمن أرنى سيفك» فأراه فرأى سيفا حديدا . فقال «ما تقلدك السيف وليس بأوان حرب ؟» فقـــــال : «إنى أردت أن أنحـــر بهَ جَزور [1] القرية » . فركب الأشعث بغلته وأتى عليـــا صـــلوات الله عـــليه فخَبَّره ، وقال له : «فقد عرفت بسالة ابن ملجم وفتـــكه» فقال على : «ما قتلنى بعد». ويروى أن عليـــا رضوان الله عليه كان يخطب مرة ويذكـــر أصـــحابه ، وابن ملجم تِلْقاء المنبر ، فسُمِع وهو يقول : «والله لأريحنهم مـــنك » فلما انصرف على صلوات الله عليه إلى بيته أُتى به مُلَبَّـــا[2] . فأشرف عـــليهم فقال : «ما تريدون ؟» فخبروه بما سمعوا ، فقال : «ما قتلنى بعد فخلوا عنه » . ويروى أن عليـــا كان يتمثل إذا رآه ببيت عمرو بن مَعْدِى كَرِب فى قيس ابن مكشوح المُـــرادى :

أريـــد حباءه ويريد قتـــــــلى عذيرك من خليلك من مـــراد [3]

(١) الجزور : مايجزر أى يذبح .
(٢) ملبيا : مأخوذ من لببه ، وهو صدر ردائـــه .
(٣) الحباء : العطاء . والعذير : العاذر .

فينتفي من ذلك حتى أكثر عليه . فقال له المرادى : « إن قضى شيء كان » . فقيل لعلى : « كأنك قد عرفته وعرفت ما يريد بك ، أفلا تقتله » . فقال : « كيف أقتل قاتلى ؟ » . فلما كان ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان خرج ابن ملجم وشبيب الأشجعى . فاعتوَرا [1] الباب الذى يدخل منه على رضى الله عنه ، وكان يخرج مغلِّسا ، ويوقظ الناس للصلاة . فخرج كما كان يفعل ، فضربه شبيب فأخطأه وأصاب سيفه الباب ، وضربه ابن ملجم على صلعته فقال على : « فُزت [2] ورب الكعبة ، شأنكم بالرجل ». فيروى عن بعض من كان بالمسجد من الأنصار قال : « سمعت كلمة على ورأيت بريق السيف » فأما ابن ملجم فحمل على الناس بسيفه ، فأفرجوا له . وتلقاه المغيرة أيِّدا [3] ،فقعد على صدره . وأما شبيب فانتزع السيف منه رجل من حضرموت ، وصرعه ، وقعد على صدره. وكثر الناس، فجعلوا يصيحون : « عليكم صاحب السيف ». فخاف الحضرمى أن يُكبّوا عليه ولا يسمعوا عذره ، فرمى بالسيف . وانسل شبيب بين الناس فدُخل بابن ملجم على عليّ رضوان الله عليه فأُومر فيه . فاختلف الناس فى جوابه ، فقال على : « إنْ أعش فالأمر إلى ، وإن أُصَب فالأمر لكم ، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة ، وإن تعفوا أقرب للتقوى » . وقال قوم : بل قال: « وإن أصبت فاضربوه ضربة فى مقتله » . فأقام على يومين . فسمع ابن ملجم الرَّنَّة من الدار. فقال له من حضره: « أى عدو الله ، إنه لا بأس على أمير المؤمنين » فقال : « عَلَى من تبكى أم كلثوم ؟ أَعَلَىّ ؟ أما والله لقد اشتريت سيفى بألف درهم ، وما زلت أعرضه فما يعيبه أحد إلا أصلحت ذلك العيب. ولقد أسقيته

---

(1) اعتورا : تداولا .

(2) فزت : قطع رأسى من منتصفه .

(3) الأيد : القوى .

السم حتى لَفَظه . ولقد ضربته ضربة لو قُسِمت على من بالمشرق لأتتْ عليهم» .
ومـات عـلى صلوات الله ورضوانه عليه ورحمته فى آخر اليوم الثالث . فدعا به الحسـن رضـى الله عنه ، فقال : «إن لك عندى سرا» فقال الحسن رضوان الله عـليه : «أتدرون ما يريد ؟ أن يَقرُب من وجهى فيَعَض أذنى فيقطعها» . فقـال : «أمـا والله لـو أمكننى منها لاقتلعتها من أصلها» . فقال الحسن : «كـلا والله لأضـربنك ضـربة تؤديك إلى النار» . فقال : «لو علمت أن هـذا فى يديك ما اتخذت إلهـا غيرك» . فقال عبد الله بن جعفر : «يا أبا محمد . ادفعه إلى أشْفِ نفسـى منه» . فاختلفوا فى قتله . فقال قوم : أَحْمَى له ميِلْين [1] وكَحَله بهما . فجعل يقول : «إنك يا ابن أخى لَتَـكْحَلُ عمك بمَلْمُولَيْن مَضاضين [2] » . وقال قوم : بل قطع يديه ورجليه . وقال قوم : بل قطع رجليه ، وهو فى ذلك يذكر الله عز وجل . ثم عمد إلى لسانه فشق ذلك عليه ، فقيل له : «لم تجزع من قطع يديك ورجليك ، وتُراك قد جزعت من قطع لسانك» فقال : «أحببت أن لا يزال فمى بذكر الله رطبا» . ثم قتله .

ويروى أن عليـا رضى الله عنه أُتى بابن ملجم ، وقيل له : «إنا قد سمعنا من هذا كلاما فلا نأمن قتله لك» . فقال : «ما أصنع به ؟ » ثم قال على رضوان الله عليه :

اشْدُدْ حَيازِيمَك للمـــوت [3]	فإن الموتَ لاقِيـــكا
ولا تجزع من المـــوت	إذا حلَّ بواديـــكا

---

[1] الميـل : القطعة الطويلة من الحديد .
[2] الململول : المرود الذى يكتحل به .
[3] الحيازيم : جمع حيزوم ، وهو وسط الصدر .

والشعر إنمـــا يصح بأن تحذف « اشدد » فتقول :

حيـــــازيمك للمـــــوت فإن المـــــوت لا قيــــــكا

ولـــــكن الفصحاء من العرب يزيدون ما عليه المعنى ولا يعتدون به فى الوزن ويحذفـــون من الوزن ، علما بأن المخاطب يعلم ما يزيدونه ، فهو إذا قال حيازيمك للموت فقد أضمر « اشدد » فأظهره ولم يعتد به .

وأما الحجاج بن عبد الله الصَّريمى ، وهو البُرَك ، فإنه ضرب معاوية مصليـــا، فأصـــاب مَأْكَمـــته ، وكان معاوية عظيم الأوراك . فقطع منه عرقا يقال له عرق النِّـــكاح . فلم يولد لمعاوية بعد ذلك ولد . فلما أُخذ قال : « الأمان والبشارة ، قُـــتل عـــلى فى هـــذه الصُّبيحة » فاستُوْثِى به حتى جاء الخبر . فقطع معاوية يده ورجلـــه. فأقـــام بالبصـــرة . فبلغ زيادا أنه قد وُلد له . فقال : « أيولد له وأمير المؤمنين لا يولد لـــه ؟ » . فقتله . هذا أحد الخبرين . ويروى أن معاوية قطع يديه ورجـــليه ، وأمـــر باتخاذ المقصورة . فقيل لابن عباس بعد ذلك : « مـــا تأويـــل المقصورة ؟ » . فقال : « يخافون أن يَبْهَظَهم النـــــاس » .

وأما زَاذَوَيه فإنه أَرْصَد لعمرو ، واشتـــكى عمرو بطنه فلم يخرج للصـــلاة . وخـــرج خارجة ، وهو رجل من بنى سهم بن عمرو ، فضربه زاذويه فقتله . فلما دُخلَ به على عمرو فرآهم يخاطبونه بالإمرة ، قال: « أو ما قتلت عمرا ؟ » قيل : « لا إنما قتلت خارجة » . فقال : « أردت عمرا والله أراد خارجة » . وقـــــال أبو زُبَيد الطائى يرثى على بن أبى طالب صلوات الله عليه :

إن الـــكرامَ على ما كان من خُلُقٍ رهطُ امرئ خارَهُ للدين مُخْتـــار

طَبٌّ بصير بأضْغان الرجـــال ولم يُعْدَل بحَبْر رســـول الله أحْبـــار

وقطرةٌ قطَرَتْ إذ حان موعدُهـــا وكلُّ شيء له وقت ومقـــــدار

حتى تَنَصَّلهـــــــا فى مسجد طُهُر على إمام هُدًى إنْ معشرٌ جاروا

حُمَّتْ ليدخل جنَاتِ أبـــو حسنٍ وأوجبَتْ بعـــــده للقاتل النـــار

خاره : إنما اختاره . وبصير بأضغان الرجال : فهى أسرارها ومخبآتها . الحبر : العـــالم . ويروى أن عليـــا رضوان الله عليه مر بيهودى يسأل مسلما عن شىء من أمـــر الدين . فقال له على : «اسألنى ودع الرجل» . فقال له : «يا أمير المؤمنين أنـــت حبر» . أى عالم . قال على : «إنْ تســـأل عالما أجْدَى لك» . وقوله : حتى تنصلها : يريد استخرجها . وحمت : قُدِّرت .

ولمـــا سمـــع على صلوات الله عليه نداءهم «لا حكم إلا الله» قال : «كلمة عادلة يراد بها جَوْر ، إنما يقولون لا إمارة ولا بد من إمارة برة أو فاجرة» .

ويـــروى أن عـــليـــا فى أول خـــروج القوم عليه دعا صَعْصَعه بن صُوحان العَبْدى، وقد كان وجهه إليهم ، وزياد بن النَّضْر الحارثى، مع عبد الله بن العباس . فقـــال لصعصـــعة : «بـــأى القوم رأيتَهم أشد إطافة ؟» فقال : «بيزيد بن قيس الأرْحَـــبِى» فركب على إلى حروراء . فجعل يتخللهم حتى صار إلى مضرب يزيد ابن قيس فصلى فيه ركعتين . ثم خرج فاتكأ على قوسه . وأقبل على الناس ثم قال: «هذا مقام مَنْ فَلَجَ [1] فيه فلج يوم القيامة، أنشدُكم الله أعلمتم أحد ا منكم كان

[1] فلـــج : فـــاز .

أكره للحكومة منى ؟» قالوا : «اللهم نعم» . قال : «أفعلمتم أنكم أكرهتمونى حتى قبلتها ؟» قالوا : «اللهم نعم» قال : «فعَلاَم خالفتمونى ونابذتمونى؟» قالوا : «إنـــا أتيـــنا ذنبا عظيما فتبنا إلى الله . فتب إلى الله منه واستغفره نَعُدْ لك» . فقال عـــلى : «إنى أســـتغفر الله مـــن كل ذنب». فرجعوا معه وهم ستة آلاف . فلما استقروا بالـــكوفة أشاعوا أن عليـــا رجع عن التحكيم ورآه ضلالا . وقالـــوا : «إنمـــا ينتظر أمير المؤمنين ، أن يَسْمَن الـــكُراع [1] ويَجْبى المـــــال ، فينهض إلى الشـــام» فأتى الأشعث بن قيس عليـــا عليه السلام ، فقال : «يا أمير المؤمنين ، إن الـــناس قد تحدثوا أنك رأيت الحـــكومة ضلالا ، والإقامة عليها كفر» فخطب عـــلى الـــناس فقال : «من زعم أنى رجعت عن الحـــكومة فقد كذب، ومن رآها ضلالا فهو أضل» . فخرجت الخوارج من المسجد فحـــكّمت فقيل لعلى : «إنهم خارجون عليك» . فقال : «لا أقاتلهم حتى يقاتلونى ، وسيفعلون» . فوجه إليهم عـــبد الله بـــن العباس فلما صار إليهم رحبوا به وأكرموه . فرأى جباها قَرِحة [2] لطـــول الســـجود ، وأيْديا كثَفِنات [3] الإبل ، عليهم قمُص مُرحَّضة [4] ، وهم مشمرون . فقالوا : «ما جاء بك يا أبا العباس ؟» فقال : «جئتكم من عند صهْر رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم ، وابن عمه وأعْلَمنا بربه وسنة نبيه ، ومن عند المهاجـــرين والأنصار» . قالوا : «إنا أتَيْنا عظيما حين حَكّمنا الرجال فى دين الله ، فإن تاب كما تبنا ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا». فقال ابن عباس : «نشَدْتُـــكم الله إلا مـــا صَدَقتم أنفسكم ، أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال فى أرنب تساوى

---

(1) الـــكراع : الخيـــل والبغــــال والحمير .

(2) قرحـــــة : مجرحـــــة .

(3) الثفنـــة : مايستقر على الأرض من أعضـــاء الناقة حين تبرك .

(4) مرحضـــــة : مغســـولة .

ربـع درهم تُصاد فى الحَرم ، وفى شقاق رجل وامرأته ؟» . فقالوا : «اللهم نعم» فقـال : «فأنْشدكم الله هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحدَيبية ؟» . قالوا : «نعم ، ولـكن عليا محـا نفسه مـن إمارة المسلمين» . قال ابن عباس : «ليس ذلك بمُزيلها عنه ، وقد محا رسول الله صـلى الله عـليه وسـلم اسمه من النبوة . وقد أخذ على على الحكمين أن لا يجـورا. وإن يَجورا فعلىّ أولى من معاوية وغيره » . قالوا : «إن معـاوية يدّعى مثل دعوى على» . قال : «فأيهما رأيتموه أولى فولوه» . قالوا : «صدقت» . قـال ابـن عباس : «ومتى جار الحاكمان فلا طاعة لهما ولا قبول لقولهمـا» . فاتبعه ألفـأن وبقى أربعة آلاف فصلى بهم صلواتهم ابنُ الـكَواء ، وقـال : «مـتى كانت حرب فرئيسكم شبَث بن رِبْعى الرّياحى» . فلم يزالوا على ذلك يومـين حـتى أجمعـوا على البيعة لعبد الله بن وهب الرّاسِبى . ومضى القوم إلى النهروان ، وكانوا أرادوا المضى إلى المدائن .

فمـن طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلما ونصرانيا . فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصرانى فقالوا : «احفظوا ذمة نبيكم» .

ولقيهـم عبد الله بن خَباب ، وفى عنقه مصحف ، ومعه امرأته وهى حامل . فقـالوا : «إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا أن نقتلك» . قال : «ما أحيا القرآنُ فـأحيوُه ، ومـا أماتـه فأَميتوه» . فوثب رجل منهم على رُطَبة فوضعها فى فيه ، فصـاحوا به ، فلفظها تورعا . وعرض لرجل منهم خنزير ، فضر به الرجل فقتله، فقـالوا : «هذا فساد فى الأرض» . فقال عبد الله بن خباب : «ما علىَّ منـكم بأس، إنى لَمُسلم» . قالوا : «حَدِّثنا عن أبيك» . قال : «سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تـكون فتنة يموت فيها الرجل كما يموت

بدنــه : يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، فــكن عبد الله المقتول ولا تــكن القاتل » .
قــالوا : «فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟» . فأثنى خيرا . فقالوا : «فما تقول فى على قبل التحكيم ، وفى عثمان ست سنين ؟» . فأثنى خيرا . قالوا : «فما تقول فى الحــكومة والتحكيم ؟» . قال : «أقول إن عليا أعلم بكتاب الله منــكم ، وأشد توقِّيــا عــلى ديــنه ، وأنفذ بصيرة» . قالوا : «إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الــرجال على أسمائها» . ثم قربوه إلى شاطىء النهر فذبحوه . فامْذَقَرّ دمــه ، أى جرى مستطيلا على دقــة .

وســاموا رجلا نصرانيا بنخلة له ، فقال : «هى لــكم» . فقالوا : «ما كنا لــنأخذها إلا بثمن» . قال : «ما أعجب هذا ! أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون منا جَنى نخلة ؟» .

ومــن طــريف أخبارهم أن غَيْلان بن خَرَشة الضَّبى سَمرَ ليلة عند زياد ومعه جماعــة . فذُكر أمر الخوارج . فأنحى عليهم غيلان ثم انصرف بعد ليل إلى منزله . فلقيه أبو بلال مرداس بن أُدَية ، فقال له : «يا غيلان قد بلغنى ما كان منك الليلة عــند هــذا الفاسق من ذكر هؤلاء القوم الذين شَرَوْا أنفسهم ، وابتاعوا آخرتهم بدنياهم ، ما يُؤَمنكُ أن يلقاك رجل منهم أحرص والله على الموت منك على الحياة، فيُــنْفذ حضْنَيك برُمْحه ؟» . فقال غيلان : «لن يبلغك أنى ذكرتهم بعد الليلة» .
ومــرداس تنــتحله جماعة من أهل الأهواء لقَشفه [1] ، وبصيرته ، وصحة عبادته ، وظهــور ديانته وبيانه ، تنتحله المعتزلة وتزعم أنه خرج منــكِرا لجور السلطان ، داعيا إلى الحق . وتحتج له بقوله لزياد حيث قال على المنبر : «والله لآخُذنّ المحسن

[1] القشف : الزهــــد وخشونة العيش .

منكم بالمسيء ، والحاضر منكم بالغائب ، والصحيح بالسقيم» .فقام إليه مرداس فقال : «قد سمعنا ما قلت أيها الإنسان ، وما هكذا ذكر الله عز وجل عن نبيه إبراهيم عليه السلام ، إذ يقول ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ ، وأنت تزعم أنك تأخذ المطيع بالعاصى » . ثم خرج فى عقب هذا اليوم . والشيع تنتحله . وتزعم أنه كتب إلى الحسين بن على صلوات الله عليه : «إنى لست أرى رأى الخوارج . وما أنا إلا على دين أبيك » .

وهذا رأى قد استهوى جماعة من الأشراف . يروى أن المُنْذر بن الجارُود كان يرى رأى الخوارج . وكان يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج بن يوسف يراه. وكان صالح بن عبد الرحمن صاحب العراق يراه . وكان عدة من الفقهاء يُنسَبون إليه ، منهم عِكرِمة مولى ابن عباس . وكان يقال ذلك فى مالك بن أنس . ويروى الزبيريون أن مالك بن أنس المَديني كان يذكر عثمان وعليا وطلحة والزبير فيقول : «والله ما اقتتلوا إلا على الثّريد الأعفر [1]» . فأما أبو سعيد الحسن البصرى فإنه كان ينكر الحكومة ولا يرى رأيهم . وكان إذا جلس فتمكن فى مجلسه ؛ ذكر عثمان فترحم عليه ثلاثا ولعن قتلته ثلاثا ، ويقول : «لو لم نلعنهم للعُنّا» . ثم يذكر عليا ، فيقول : «لم يزل أمير المؤمنين على رحمه الله يتعرّفه النصر ويساعده الظفر حتى حكم ، فلِمَ تحكّم والحق معك ؟ ألاَ تمضى قدما لا أبالك وأنت على الحق ؟» .

---

[1] الثريد : ما نسميه اليوم الفتة .

وكان فى جملة الخوارج لدد [1] واحتجاج على كـثرة خطبائهم وشعرائهم ، ونفـاذ بصيرتهم ، وتوطيد أنفسهم على الموت. فمنهم الذى طُعن فأنفَذه الرمح ، فجعل يسعى فيه إلى قاتله ، وهو يقول : « وعَجِلْتُ إليك رَبِّ لـتَرْضَى » .

ويروى عن النبى صل الله عليه وسلم أنه لما وصفهم قال : « سيماهم التَّحْليق، يقـرؤون القرآن لايجاوز تراقِيَهم ؛ وعلامتهم رجل مُخْدج اليد [2] ». وفى حديث عبد الله بن عمر : « رجل يقال له عمرو ذو الخُوَيْصِرة أو الحُنَيْصرة » .

وروى عـن الـنبى صلى الله عليه وسلم أنه نظر إلى رجل ساجد إلى أن صلى الـنبى عـليه السـلام ؛ فقال : « ألا رجل يقتله ؟ » . فحَسَر أبو بكر عن ذراعه وانتضى السيف وصَمَد نحوه ثم رجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أأقتل رجلا يقول لا إله إلا الله ؟ » . فقال النبى صلى الله عليه وسلم: « ألا رجل يفعل ؟ » ففعل عمر مثل ذلك . فلما كان فى الثالثة قصد له على بن أبى طالب عليه السلام فلم يره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو قُتل لكان أول فتنة وآخرها ».

ويروى عن أبى مريم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه ذكر المخْدَج عند الـنبى عليه السلام . فقال أبو مريم : والله إن كان معنا لفى المسجد ، وكان يحضر طعـام عـلى إذا وضعه للمسلمين . ولقد كسوته برنسا لى . فلما خرج القوم إلى حروراء ، قلت : والله لأنظرن إلى عسكرهم . فجعلت أتخللهم حتى صرت إلى ابن الـكَواء وشـبث بن ربعى ورسل على تناشدهم ؛ حتى وثب رجل من الخوارج على رسول لعلى ؛ فضرب دابته بالسيف فحمل الرجل سـرجه وهو يقول :

---

[1] اللدد : الخصومة الشديدة .

[2] مخـدج اليـد : يده ناقصة الخلق .

﴿ إِنَّـا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ثم انصرف القوم إلى الـكوفة . فجعلت انظر إلى كـثرتهم كأنما ينصرفون من عيـد . فرأيت المخدج ، وكان منى قريبا . فقلت : « أكـنت مع القوم ؟» فقال: « أخذت سلاحى أريدهم ، فإذا بجماعة من الصبيان قـد عرضوا لى ، فأخذوا سلاحى وجعلوا يتلاعبون بى » . فلما كان يوم النهر قال عـلى : « اطلـبوا المخدج » . فطلبوه فلم يجدوه حتى ساء ذلك عليا ، وحتى قال رجـل : « لا والله يا أمير المؤمنين ما هو فيهم» . فقال على : « والله ما كَذبت ولا كُذبـت » . فجاء رجل فقال : « قد أصبناه يا أمير المؤمنين » . فخر على ساجدا ؛ وكـان إذا أتـاه ما يُسَرُّ به من الفتوح سجد . وقال : « لو أعلم شيئا أفضل منه لفعلـته » . ثم قـال : « سيماه أن يده كالثّدْى عليها شعرات كشارب السنور[1] ايتونى بيده المخدجة » . فأتوه بها فنصبها .

ويـروى عن أبي الجلد أنه نظر إلى نافع بن الأزرق الحنفى ، وإلى نظره وتوغله وتعمقه فقال : « إنى لأجد لجهنم سبعة أبواب ، وإن أشدها حرا للخوارج فاحذر أن تـكون منهم » .

وذكـرت الـرواة أن الحجاج أُتى بامرأة من الخوارج ، وبحضرته يزيد بن أبي مسلم مولاه ، وكان يَستَتِسر برأى الخوارج . فـكلم الحجاج المرأة فأعرضت عنه فقـال لهـا يزيد بن أبي مسلم : « الأمير ويلك يـكلمك » . فقالت : « بل الويل والله لـك يا فاسقُ الرِّدِّىّ » . والردى عند الخوارج هو الذى يعلم الحق من قولهم ويكتمه .

---

[1] السنور : القط .

وذكـــروا أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم . فبحثه فرأى منه ما شاء فهمـــا وعلما . ثم بحثه فرأى ما شاء أَرَبا ودَهْيا . فرغب فيه واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه فرآه مستبصرا محقّقا . فزاده فى الاستدعاء فقال له : « لتُغنك الأولى عن الثانية ، وقد قلتَ فسمعتُ فاسمع أَقُلْ » . قال له : « قل » فجعل يبسط له من قول الخـــوارج ويزيـــن له من مذهبهم بلسان طَلْق ، وألفاظ بيِّنة ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته : « لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خُلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبّت الله علىّ من الحُجة وقرر فى قلبى من الحـــق . فقلت له : لله الآخرة والدنيا . وقد سلّطنى الله فى الدنيا ومكّن لنا فيها ، وأراك لست تجيب بالقول . والله لأقتلنك إن لم تطـــع ، فأنا فى ذلك إذ دُخِل علىّ بابنى مروان أخى يزيد لأمه وكان أبيا عزيز النفس . فدُخِل به فى هذا الوقت على عـــبد المـــلك باكيا لضرب المؤدب إياه» . فشق ذلك على عبد الملك فأقبل عليه الخـــارجى فقال له : « دعه يَبـــْكى فإنه أرْحبُ لشدْقه ، وأصح لدماغه ، وأذهب لصـــوته ، وأحـــرى أن لا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها» . فـــأعجب ذلـــك من قوله عبد الملك . فقال له متعجبا : « أمَا يشغلك ما أنت فيه وبعَرضـــه عن هذا ؟ » فقال : « ما ينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شىء » . فأمـــر عـــبد الملك بحبسه وصفح عن قتله . وقال بعدُ يعتذر إليه : « لولا أن تفسد بألفـــاظك أكثر رعيتى ما حبستك » . ثم قال عبد الملك : « من شكـــكنى ووهمنى حتى مالت بى عصمة الله فغير بعيد أن يستهوى من بعدى » . وكان عبد الملك من الرأى والعلم بموضع .

وكـــان أهل النخَيلة جماعة بعد أهل النهروان ، ممن فارق عبد الله بن وهب ، وممـــن لجـــأ إلى راية أبى أيوب ، وممن أقام بالـــكوفة ، فقال : « لا أقاتل معه » .

فتواصـــوا وتعاضدوا وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم . فقام منهم قائم يقال لـــه المُسْـــتَورِد من بنى سعد بن زيد مَناة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد ثم قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا بالعدل تخفق راياته ، معْلنا مقالته ، مبُلغـــا عن ربه ، ناصحا لأمته ، حتى قبضه الله مخيَّرًا مختارا . ثم قام الصديق فصَدَق عـــن نـــبيه ، وقـــاتل من ارتد عن دين ربه ، وذكر أن الله عز وجل قرن الصلاة بالزكاة، فرأى أن تعطيل إحداهما طَعْن على الأخرى لا بل على جميع منازل الدين ثم قبضه الله إليه مرفورا ثم قام الفاروق ففرق بين الحق والباطل ، مُسوِّيا بين الناس فى إعطائه لا مؤثرا لأقاربه ولا محكّما فى دين ربه . وها أنتم تعلمون ما حدث والله يقول : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ » . فـــكلٌّ أجاب وبايع . فوجه إليهم على بن أبى طالب عبد الله بن العباس داعيا فأَبَوْا . فسار إليهم فقـــال له عفيف بن قيس : « يا أمير المؤمنين ، لا تخرج فى هذه الساعة فإنها ساعة نحس ، لعدوك عليك ». فقال له على : « توكلت على الله وحده ، وعصيت رأى كـــل مـــتـــكهِّن ، أنـــت تزعم أنك تعرف وقت الظفر من وقت الخذلان ؟ ! إنى توكـــلت عـــلى الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها ، إن ربى على صـــراط مســـتقيم » . ثم سار إليهم فطحَنهم جميعا لم يفلت منهم إلا خمسة ، منهم المســـتورد وابـــن جُوَيْن الطائى وفَرْوة بن شَريك الأَشْجَعى ، وهم الذين ذكرهم الحســـن البصـــرى فقـــال : « دعـــاهم إلى دين الله ، فجعلوا أصابعهم فى آذانهم واستَغْشَـــوْا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . فسار إليهم أبو حسن فطحنهم طحنا » . وفيهم يقول عمران بن حطّان :

إنى أدِين بما دان الشُّراةُ بـــــه ... يوم النُّخَيلةِ عند الجوْسَقِ الخرِب [1]

---

[1] الجوسق : القصـــر .

وقال الحِمْيَرىّ يعارض هذا المذهب :

إنى أدين بمـــا دان الوَصىُّ بـــــه ... يوم النُّخيلة من قتل المُحلينـــا
وبالذى دان يوم النهرِ دنْتُ بــــه ... وشـــاركتْ كفُّه كفى بصفينــا
تلك الدماءُ معـــا ياربِّ فى عنقى ... ومثلَها فاسْقِنى آمينَ آمينــــا

وكان أصحاب النخيلة قالوا لابن عباس : «إذ كان علىّ على حق لم يشكك فيه وحكّم مضطرا ، فما باله حيث ظفر لم يسْبِ ؟» . فقال لهم ابن عبـــــاس : «قـــد سمعتم الجواب فى التحكيم ، فأما قولـــكم فى السباء أفَـــكُنْتُم سابِين أمكم عائشـــة ؟» . فوضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وقالوا : «أمسك عنا غَرب لسانك يا ابـــن عـــباس ، فإنه طُلَقٌ ذُلَق غواص على موضع الحجة» . ثم خرج المستورد بعد ذلك بمدة على المغيرة بن شعبة ، وهو والى الـــكوفة . فوجـــه إليه مَعْقِل بن قيس الرياحى فدعاه المستورد إلى المبارزة ، وقال له : «علامَ يُقتل الناس بينى وبينك ؟» فقال لـــه معقل : «النَّصفَ سألت» فأقسم عليه أصحابهُ فقال : «ما كنتُ لآبى عـــليه» فخرج إليه فاختلفا ضربتين فخرّ كل واحد منهما ميتا . وكان المستورد كثير الصلاة شديد الاجتهاد ، وله آداب يوصى بها ، وهى محفوظة عنه .

وخـــرجت الخـــوارج واتصل خروجها ، وإنمـــا نذكر منهم من كان ذا خبر طـــريف ، واتصلت به حِكَم من كلام وأشعار . فأول من خرج بعد قتل على عليه السلام حَوْثَرة الأَسَدى فإنه كان مُتنحِّيا بالبَنْدَ نيجَيْن ، فـــكتب إلى حابس الطائى يسأله أن يتولى أمر الخوارج حتى يسير إليه بجمعه ، فيتعاضدا على مجاهدة معاوية ، فأجابـــه فرجعا إلى موضع أصحاب النُّخيلة ، ومعاوية بالـــكوفة حيث دخلها مع الحســـن بـــن على صلوات الله عليه بعد أن بايعه الحسن والحسين عليهما السلام

وقيس بن عبادة . ثم خرج الحسن يريد المدينة ، فوجه إليه معاوية وقد تجاوز طريقه يسأله أن يكون المتولى لمحاربتهم . فقال الحسن : «والله لقد كففت عنك لَحقْنِ دماء المسلمين ، وما أحسب ذلك يَسَعُنى . أفأقاتل عنك قوما أنت والله أولى بالقتال منهم ؟» .فلما رجع الجواب إليه ، وجه إليهم جيشا أكثرهم من أهل الكوفة . ثم قال لأبيه أبى حوثرة : «اكفنى أمر ابنك» . فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع فأبى . فأداره فصمم . فقال له : «يابنى ، أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه ؟» . فقال : «يا أبت أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشْوَقُ منى إلى ابنى» . فرجع إلى معاوية فأخبره فقال : «يا أبا جوثرة ، عَتَا هذا جدا» . فلما نظر حوثرة إلى أهل الكوفة قال : «يا أعداء الله ، أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدّوا سلطانه ، واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه !» . فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز فقال : «يا أبت لك فى غيرى مندوحة ، ولى فى غيرك عنك مذهب» . ثم حمل على القوم وهو يقول :

اكْرُرْ على هَذِى الجموعِ حوثرهْ فعن قليل ما تنال المغفِرهْ

فحمل عليه رجل من طيىء فقتله ، فرأى أثر السجود قد لَوّح جبهته ، فندم على قتله ثم انهزم القوم جميعا .

ويروى من حديث محمد بن كَعْب القُرَظِى قال : قال عمار بن ياسر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة ذات العُشَيرة فلما قَفلْنا نزلنا منزلا فخرجتُ أنا وعلى بن أبى طالب صلوات الله عليه ننظر إلى قوم يعتملون فنَعَسنا فنمنا فسفتْ علينا الريح التراب فما نبّهَنا إلا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لعلى: «يا أبا تراب» لما عليه من التراب «أتعلم من أشقى الناس ؟»

قال : «خبرنى يا رسول الله» . فقال : «أشقى الناس اثنان : أحمر ثمود الذى عقر الناقة ، وأشقاها الذى يخضب هذه — ووضع يده على لحيته — من هذا — ووضع يده على قرنه» .

وخرج قُرَيب بن مُرّة وزَحّاف الطائى ، وكانا مجتهدين بالبصرة فى أيام زياد ، اختلف الناس فى أمورهما أيهما كان الرئيس . فاعترضا الناس ، فلقيا شيخا ناسكا من بنى ضُبَيعة بن نزار فقتلاه ، وكان يقال له رُؤْبَة الضُّبعى . وتنادى الناس ، فخرج رجل من بنى قُطَيعة من الأزد ، وفى يده السيف . فناداه الناس من ظهور البيوت : «الحرورية ، الحرورية انْجُ بنفسك» فنادَوْه : «لسنا حرورية ، نحن الشُّرط» فوقف فقتلوه . وبلغ أبا بلال خبرهما ، فقال : «قريب لا قَرّبه الله من الخير ، وزحّاف لا عفا الله عنه ، ركباها عَشْواء مظلمة» . يريد اعتراضهما الناس. ثم جعلا لا يمران بقبيلة إلا قتلا من وجدا حتى مرا ببنى على بن سُود من الأزد ، وكانوا رماة ، وكان فيهم مئة يجيدون الرمى . فرموهم رميا شديدا فصاحوا : «يابنى على ، البُقيا لارِماءَ بيننا» . فقال رجل من بنى على :

لا شىء للقوم سِوى السهام مشحوذةً فى غَلَس الظلام

فعَرَّد [1] عنهم الخوارج . وخافوا الطلب فاشتقوا مقبرة بنى يشكر حتى نفذوا إلى مزينة ينتظرون من يلحق بهم من مُضر وغيرها ، فجاءهم ثمانون . وخرجت إليهم بنو طاحِية بن سُود وقبائل مزينة وغيرها . فاستقتَل الخوارج فقُتلوا عن آخرهم. ثم غدا الناس إلى زياد فقال : «ألاَ ينهى كل قوم سفهاءهم

[1] عرد : تنحى .

يا معشر الأزد ، لولا أنكم أطفأتم هذه النار لقلت إنكم أرَّثتمُوها [1] » . فـكانت القـبائل إذا أحسـت بخارجية فيهم شدتهم وأتت بهم زيادا . فـكان هذا أحد ما يذكـر من صحة تدبيره . وله أخرى فى الخوارج : أخرجوا معهم امرأة ، فظفر بها فقتـلها ثم عراها ، فلم تخرج النساء بعد على زياد . وكن إذا دُعِين إلى الخروج ، قلن : « لولا التعرية لسارعنـا » .

وكـانت الخوارج أيام ابن عامر أخرجوا معهم امرأتين يقال لإحداهما كُحَيلة والأخـرى قَطـام . فجعل أصحاب عامر يُعَيِّرونهم ، ويصيحون بهم : يا أصحاب كحيلة وقطام ، يعرضون لهم بالفجور . فتناديهم الخوارج بالدفع والرَّدع ، ويقول قائلهم : « لا تَقْفُ [2] ماليس لك به علم » .

وكـان مـرداس بن حُدَير أبو بلال ، وهو أحد بنى ربيعة بن حنَظْلة ، تُعْظمه الخـوارج ، وكـان مجتهدا كثير الصواب فى لفظه . فلقيه غيلان بن خرَشه الضَّبى فقـال: « يـا أبا بلال ، إنى سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء ، وأحسـبها سـتُؤخَذ » . فمضـى إليها أبو بلال فقال لها : « إن الله قد وسّع على المؤمنين فى التقية فاستترى ، فإن هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك » . فقـالت : « إن يـأخذنى فهو أشْقَى بى، فأما أنا فما أحب أن يعُنَّت إنسان بسببى ». فوجه إليها عبيد الله بن زياد فأتى بها . فقطع يديها ورجليها ، ورمى بها فى السوق فمـر أبـو بلال والناس مجتمعون فقال : « ما هذا ؟ » . فقالوا : « البلجاء » فعرّج إليهـا فنظر ثم عض لحيته ، وقال لنفسه : « لَهذهِ أطيب نفسا عن بقية الدنيا منك

---

[1] أرثتموها : أوقدتموهـا .

[2] تقفـو : تتبع .

يامـــرداس» ثم إن عبيد الله تتبع الخوارج فحبسهم وحبس مرداسا . فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقة ، فقال له : «إنى أرى لك مذهبا حسنا ، وإنى لأحب أن أوليك معروفا، أفرأيت إن تركتك تنصرف قليلا إلى بيتك أتدَّلج إلى ؟». قـــال : «نعـــم» فـــكان يفعل ذلك به . ولج عبيد الله فى حبس الخوارج وقتلهم فكُـــلِّم فى بعـــض الخـــوارج فلج وأبى ، قال : «أقمع النفاق قبل أن يَنجُمْ[1] ، لـــكلامُ هؤلاء أسرع على القلوب من النار إلى اليَراع [2] ». فلما كان ذات يوم قـــتل رجل من الخوارج رجلا من الشرط . فقال ابن زياد : «ما أدرى ما أصنع بهـــؤلاء ؟ كلما أمرت رجلا بقتل رجل منهم فتـــكوا بقاتله . لأقتلـــن من حُبس مـــنهم» . فأخرج السجان مرداسا إلى منزله كما كان يفعل وأتى مرداسا الخبر . فـــلما كـــان السحر تهيأ للرجوع ، فقال له أهله : «اتق الله فى نفسك ، فإنك إنْ رجعـــت قتُلت» . فقال : «إنى ما كنت لألْقَى الله غادرا » . فرجع إلى السجان ، فقال : «إنى قد علمت ما عزم عليه صاحبك» . فقال: «أعلمت ورجعت ؟ !».

ويروى أن مرداسا مر بأعرابى يَهْنَأ [3] بعيرا له فهَرِج البعير . فسقط مرداس مغشيا عليه . فظن الأعرابى أنه قد صُرع فقرأ فى أذنه . فلما أفاق قال له الأعرابى : «قـــرأت فى أذنك» . فقال له مرداس : «ليس بى ما خفته على ، ولـــكنى رأيت بعيرك هرج من القطران فذكرت به قطـــــــران جهنم فأصابنى ما رأيت» فقال: «لا جَرَم والله لا فارقتك أبدا» .

---

[1] ينجـــــم : يظهر .
[2] اليراع : القصب .
[3] يهنأ البعير : يطليه بالقطران .

وكـــان مـــرداس قد شهد صفين مع على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، وأنكـــر التحكـــيم ، وشهد النهر ، ونجا فيمن نجا . فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى جـــده فى طلب الشراة ، عزم على الخروج ، فقال لأصحابه : «إنه والله ما يَسَعُنا المقام بين هؤلاء الظالمين ، تجرى علينا أحكامهم مجانبين للعدل مفارقين للفصل . والله إن الصـــبر عـــلى هـــذا لعظيم ، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم ولـــكنـــنا نَنْتَـــبِذ عـــنهم ولا نجرد سيفا ولا نقاتل إلا من قاتلنا» . فاجتمع إليه أصـــحابه زهاء ثلاثين رجلا ، منهم حُرَيث بن حَجْل وكَهْمَس بن طَلْق الصَّرِيمى . فـــأرادوا أن يولوا أمرهم حريثا فأبى . فولوا أمرهم مرداسا . فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رَباح الأنصارى، وكان له صديقا. فقال له:«أين تريد ؟» قال : «أريد أن أهرب بدينى وأديان أصحابى من أحـــكام هؤلاء الجَوَرة» قـــال : «أعلم بكم أحد ؟» . قال : «لا» . قال : «فارجع» . قال : «أتخاف علىّ مكروها» . قال : «نعم وأن يؤْتَى بك» . قال : «فلا تخف فإنى لا أجرد سيفا ولا أخيف أحدا ولا أقاتل إلا من قاتلنى». ثم مضى حتى نزل آسَك ، وهو ما بين رامهَرمُز وأرَّجان. فمـــر بـــه مال يُحْمَل لابن زياد ، وقد قارب أصحابه الأربعين . فحطَّ ذلك المال، فـــأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه ، ورد الباقى على الرســـل . وقال : «قولوا لصـــاحبكم إنما قبضنا أعطياتنـــا» . فقال بعض أصحابه : «فعلامَ تدع الباقى ؟» فقال : «إنهم يقسمون هذا الفَىْء ، كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم» . ولأبى بلال أشعار فى الخروج اخترت منها قوله :

أَبَعْدَ ابن وَهْب ذى النزاهة والتقى ... ومن خاض فى تلك الحروب المهَالكا

أُحِبُّ بقاءً أو أرَجّى سلامـــــة ... وقد قَتلوا زيد بن حِصْنٍ ومالـــكا

فيـــــارب سَلم نيتى وبَصيرتى ... وهَبْ لى التقى حتى ألاقى أولئـــكا

ويـــروى أن رجـــلا مـــن أصـــحاب ابن زياد قال : خرجنا فى جيش نريد خراســـان، فمررنا بآسك ، فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رجلا . فصاح بنا أبو بلال : « أقاصـــدون لقتالنا أنتم ؟ » . وكنت أنا وأخى قد دخلنا زربا فوقف أخى ببابه . فقال : « السلام عليكم » فقال مرداس : « وعليكم السلام » فقـــــــال لأخى: « أجئـــتم لقتالنا ؟ » فقال له : « لا إنما نريد خراسان » .قال : « فأَبْلغوا من لقيكم أنـــا لم نخرج لنفسد فى الأرض ، ولا لنروِّع أحدا ولـــكن هربا من الظلم ، ولسنا نقـــاتل إلا مـــن يقاتلنا ، ولا نأخذ من الفىء إلا أعطياتنا » . ثم قال : « أَنُدب إلينا أحد » . قلنا : « نعم ، أَسْلَم بن زُرْعة الكلابى ». قال : « فمتى ترونه يصل إلينا ؟ » قال : « يوم كذا وكذا » . فقال أبو بلال : « حَسْبُنا الله ونعم الوكيل » .

وجهّـــز عـــبيد الله أسلم بن زرعة فى أسرع وقت ، ووجهه إليهم فى ألفين ، وقـــد تَتامّ أصحاب مرداس أربعين رجلا . فلما صار إليهم أسلم ، صاح بـــــــه أبو بلال : « اتقِ الله يا أسلم ، فإنا لا نريد قتالا ولا نحتجن [1] فيئـــــا ، فما الذى تريد ؟ » قال: « أريد أن أردكم إلى ابن زياد ». قال مرداس : « إذًا يقتلنا » . قال : « وإنْ قتـــلكم ؟ » قـــال : « تَشْرَكُه فى دمائنا » . قال : « إنى أَدين بأنهُ محقّ وأنكم مبطـــلون » فصـــاح بـــه حرَيث بن حجل : « أهو محق وهو يطيع الفَجَرة ، وهو أحدهـــم ، ويقـــتل بالظِّنة ، ويَخُصُّ بالفىء ، ويَجُور فى الحكم ، أما علمت أنه قتل بابن سعاد أربعة بُرآء وأنا أحد قتلته . ولقد وضعت فى بطنه دراهم كانت معه » . ثم حملوا عليه حملة رجل واحد ، فانهزم هو وأصحابه من غير قتال. وكان مَعْبَد أحد الخوارج قد كـــــاد يأخذه . فلما ورد على ابن زياد غضب عليه غضبا شديدا ، وقال : « وَيْلك ، أتمضى فى ألفين فتنهزم لحملة أربعين ؟ » . وكان أسلم يقـــول :

[1] نحتجن : نختص أنفسنا .

« لأنْ يَذُمَّــنى ابــن زياد حيا أحب إلىّ من أن يمدحنى ميتا » . وكان إذا خرج إلى السوق أومر بصبيان صاحوا بـــه : « أبو بلال وراءك » . وربما صاحوا بـــه : « يـــا معبد ، خذه » . حتى شــكا ذلك إلى ابن زياد ، فأمر ابن زياد الشرط أن يكفوا الناس عنه .

ففى ذلك يقول عيسى بن فاتك من بنى تَيْم اللات بن ثعلبة فى كلمة له :

فلما أصبحوا صَلَّوا وقامـــوا	إلى الجرد العتـــاق مُسوَّمينا [1]
فلما استجمعوا حملوا عليهـــم	فظل ذوو الجعَائل يُقْتلونــا [2]
بقيةَ يومهم حتى أتاهـــــم	بأن القوم وَلّوا هاربينـــــا
أألْفا مؤمنٍ فيمـــا زعمتمُ	ويَهزمُهم بآسَكَ أربعونـــــا
كذبتم ليس ذاك كمـــا زعمتم	ولـــكنّ الخوارجَ مؤمنونـــــا
هم الفئةُ القليلة غيرَ شـــــكٍ	على الفئةِ الــكثيرةِ ينُصرونـــا

ثم ندب لهم عبيد الله بن زياد الناس ، فاختار عَبّاد بن أخضر فوجهه فى أربعة آلاف . فنَهَد [3] لهم . ويزعم أهل العلم أن القوم قد كانوا تنحَّوْا عن دَرابَجرْد من أرض فـــارس ، فصار إليهم عباد . وكان التقاؤهم فى يوم جمعة . فناداه أبو بلال : « اخـــرج إلىّ يـــا عبـــاد ، فإنى أريد أن أحاورك ». فخرج إليه فقال : « ما الذى تـــبغى ؟ » . قـــال : « أن آخذ بأقفائـــكم فأردكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد » . قـــال: « أو غـــير ذلك » . قال : « وما هو ؟ » . قال : « أن ترجع فإنا لا نخيف ســـبيلا ، ولا نَذْعَـــر مسلما ، ولا نحارب إلا من حاربنا ، ولا نجبى إلا ما حمينا » .

---

(1) الجرد : الخيل القصيرة الشعر . والعتاق : الكريمة . والمسوم : المعلم .

(2) الجعائل : جمع جعيلة ، وهى الأجر ، يصفهم بأنهم مأجورون .

(3) نهـــد : بـــرز .

فقال له عباد : «الأمر ما قلت لك» . فقال لهُ حريث بن حَجْل : «أتحاول أن ترد فــئة من المسلمين إلى جبار عنيد ؟» قال لهم : «أنتم أَوْلَى بالضلال منه . وما من ذاك بــد ! » . وقدم القعْقاع بن عطية الباهلى من خراسان يريد الحج . فلما رأى الجَمْعَــين ، قال : «ما هذا ؟» قالوا : «الشُّراة». فحمل عليهم ونَشِبت الحرب . فــأُخذ القعقــاع أسيرا فأُتِى به أبو بلال . فقال : «ما أنت ؟» قال : «لست من أعدائــك ، وإنما قدمت للحج فجهلت وغُررت» . فأطلقه فرجع إلى عباد فأصلح من شأنه . ثم حمل عليهم ثانية وهو يقول :

أقاتلهـــــــم وليس علىّ بَعْثٌ	نشاطا ليس هـــــــذا بالنشاط
أكُرُّ على الحروريين مُهْـــــرى	لأَحملَهم على وَضَح الصـــراط

فحمل عليه حريث بن حجل السَّدُوسى وكَهْمَس بن طَلْق الصريمى ، فأسراه فقتلاه ولم يأتيا به أبا بلال . فلم يزل القوم يجتلدون حتى جاء وقت صلاة الجمعة . فـــناداهم أبو بلال : «يا قوم هذا وقت الصلاة ، فوادِعونا حتى نصلى وتصلوا» . قالوا : «لك ذاك» .فرمى القوم أجمعون أسلحتهم وعمدوا للصلاة . فأسرع عباد ومن معه ، والحرورية مبطئون . فهم من بين راكع وقائم وساجد فى الصلاة وقاعد، حـــتى مال عليهم عباد ومن معه فقتلوهم جميعا . فلما فرغ من أولئك الجماعة أقبل بهـــم . فصُـــلبت رؤوســـهم وفيهم داود بن شَبَث وكان ناســـكا، وفيهم حبيبة النَّضْرى من قيس وكان مجتهدا .

فيُروى عن عمران بن حطّان أنه قال . قال لى حبيبة : لما عزمت على الخروج فــكـــرت فى بـــناتى فقلت ذات ليلة : «لأُمْسِكَنَّ عن تفقدهن حتى أنظر» .فلما كـــان فى جـــوف الـــليل استسقت بنية لى فقالت : «يا أبت اسقنى» . فلم أجبها

فأعـــادت . فقـــامت أخَيَّـــة لها أسَنّ منها فسقتها . فعلمت أن الله عز وجل غير مضَيِّعهن فأتممت عزمى . وكان فى القوم كهمس ، وكان من أبَرِّ الناس بأمه . فقال لهـــا : «يـــا أُمَّه لولا مـــكانك لخرجت» . فقالت : «يابنى قد وهبتك لله». ففى ذلك يقول عيسى بن فاتك الحَبَطىّ :

ألا فى الله لا فى النـــــاس شالتْ	بداود وإخوتـــــــه الجُذوع
مَضَوا قتلا وتمزيقا وصلبــــــــا	تحومُ عليهمُ طير وُقـــــوع
إذا ما الليل أ ظْلَمَ كابَــــــدوه	فيُسْفرُ عنهمُ وهمُ ركـــــوع
أطار الخوفُ نومهمُ فقامـــــوا	وأهلُ الأمن فى الدنيا هُجوع [1]

وقال عمران بن حطان :

يا عين بَكّى لمرداسٍ ومصرعــــــه	ياربَّ مرداسٍ اجعلنى كمرداس
تركتَنى هائما أبـــــكى لمَرْزئَتى	فى منزلٍ موحشٍ من بعد إيناس
أنكرتُ بعدك من قد كنتُ أعرفه	ما الناس بعدك يامرداس بالناس
إما شربتَ بـــكأسٍ دار أوَّلهـــــا	علىالقرونِ فذاقوا جُرْعة الكاس
فـــكل من لم يَذُقها شاربٌ عجِلا	منها بأنفاس وِرْدٍ بعد أنفــــاس

ثم إن عباد بن أخضر المازنى لبث دهرا فى المصر محمودا موصوفا بما كان منه فــلم يــزل عــلى ذلك حتى ائتمر به جماعة من الخوارج أن يفتكوا به . فذَمَر [2] بعضـــهم بعضا على ذلك . فجلسوا فى يوم جمعة ، وقد أقبل على بغلة لــه وابنه

---

(1) شالت به : ارتفعت . ويسفر : يظهر ضوء نهاره .

(2) ذمـــر : حض .

رَديفه. فقام إليه رجل منهم فقال : «أســألك عن مسألة» قال : «قُل» . قال : «أرأيت رجلا قتل رجلا بغير حق ، وللقاتل جاهٌ وقَدْر وناحية من السلطان : ألوَلِيّ ذلك المقتول أن يفتك به إن قَدَر عليه ؟». قال : «بل يرفعه إلى السلطان» . قال: «إن السلطان لا يُعْدِى [1] عليه لمــكانه منه وعظيم جاهه عنده» . قـــال : «أخــاف عليه إنْ فتك به فتك به السلطان». قال : «دَعْ ما تخــافه من ناحيــة الســلطان ، أتلحقه تبعة فيما بينه وبين الله» . قال : «لا» .فحَكّم هو وأصحابه وخــبطوه بأســيافهم . ورمى عباد ابنه فنجا . وتنادَى الناس : «قُتل عبــاد» . فاجتمع الناس فأخذوا أفواه الطرق . وكان مقتل عباد فى سكة بنى مازن . فصاحوا بالــناس : «دَعُونا وثأرنا» . فأحجم الناس وتقدم المازنيون فحاربوا الخوارج حتى قتــلوهم جميعــا لم يفلت منهم أحد إلا عبيدة بن هلال ، فإنه خرق خُصا [2] ونفذ منه. ففى ذلك يقول الفرزدق :

لقد أدرك الأوتارَ غــــيرَ ذميمةٍ ... إذا ذُمَّ طُلاب التراتِ الأخاضر
هُم جَرَّدُوا الأسْيافَ يوم ابنِ أخضر ... فنالوا التى ما فوقهــا نال ثائر
أقادوا به أُســدا لها فى اقتحامهــا ... إذا برزتْ نحو الحروب بصائر[3]

وقال معبد بن أخضر :

سأحمى دماء الأخضريين إنـــــه ... أبى الناسُ إلاأن يقولوا ابنُ أخضرا

---

[1] يعدى عليــه : يعاقبه .
[2] خص : بيت من شجر .
[3] الأوتــــار : الثارات . وكذلك التراث .

وكـان مقـتل عباد ، وعبيد الله بن زياد بالـكوفة ، وخليفته على البصرة عـبيد الله بـن أبي بَكْرة فكتب إليه يأمره أن لا يدع أحدا يُعرف بهذا الرأى إلا حبســه وجَـدَّ فى طلـبه ممـن تغيب منهم . فجعل عبيد الله بن أبي بكرة يتتبعهم فيـأخذهم . فـإذا شُفع إليه فى أحد كَفَّله إلى أنَ يقْدَم ابن زياد حتى أتى بعروة بن أُدَيَّـة فأطلقه وقال : « أنا كَفيلك » فلما قدم عبيد الله بن زياد أخذ من فى السجن مـنهم فقتـلهم جميعـا . وطلب الـكفلاء بمن كفلوا به منهم . فـكل من جاءه بصـاحبه أطلقه وقتل الخارجى . ومن لم يأت بمن كفل به منهم قتله . ثم قـال لعبيد الله بن أبي بكرة : « هات عروة بن أدية» . قال : « لا أقدر عليه » . قـال : « إذن والله أقتـلك فإنك كفيله ». فلم يزل يطلبه حتى دُلَّ عليه فى سَرَب العلاء بن شُـوَية المنْقَرى . فـكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد . فقرأ عليه الـكاتب : « إنـا أصبناه فى شَرْب » . فقال للـكاتب « صحفت والله ولَؤُمت ، إنما هو فى سرب العلاء بن سوية . ولَوَددْتُ أنه كان ممن يشرب النبيذ » . فلما أقيم عروة بن أدية بين يديه حاوره . وقد اختلف الناس فى خبره . وأصحُّه عندى أنه قـال له : « جهـزت أخـاك علىّ » . فقال : « والله لقد كنت به ضَنينا وكان لى عزا . ولقد أردت له مـا أريـده لنفسى فعزم عزما فمضى عليه ، وما أحب لنفسى إلا المقام وتـرك الخروج » . قال له : « أفأنت على رأيه ؟ » قال : « كلنا نعبد ربا واحدا » قـال : « أمَـا لأُمَثِّلَن بك » . قال : « اختر لنفسك من القصاص [1] ما شئت » . فأمـر بـه فقطعوا يديه ورجليه ثم قال : « كيف ترى ؟ » قال : « أفسدتَ على دنياى وأفسدتُ عليك آخرتك » . فقُتل ثم صُلب على باب داره .

[1] القصـاص : العقـاب .

وكان عبيد الله لا يُلَبث الخوارج : يحبسهم تارة ويقتلهم تارة ، وأكثر ذلك يقتلهم ولا يتغافل عن أحد منهم . وسبب ذلك أنه كان أطلقهم من حبس زياد لما ولى بعــده فخرجوا عليه . فأما زياد فــكان يقتل المعْلنِ ويستصلح المُسرِ ، ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة .

ووَجَّــه يومــا بُحَيْــنة بن كُبَيش الأعرجى إلى رجل من بنى سعد يرى رأى الخــوارج . فجــاءه بُحينة فأخذه . فقال : « إنى أريد أن أُحدث وضوءا للصلاة ، فدعنى أدخل إلى منزلى » . قال : « ومن لى بخروجك ؟ » . قال : « الله عز وجل ». فــتركه فدخل . فأحدث وضوءا ثم خرج . فأتى به بحينة زيادا . فلما مثل بين يديه ذكر الله زيادٌ ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قــــال : « قعــدتَ عنى فأنــكرت ذلك ». فذكر الرجل ربه فحمده ووحده ثم ذكر النبى عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقــال : « إنــك قد قلتَ قولا فصدِّقهْ بفعلك . وكان من قولك : ومن قعد عنا لم نَهِجْهُ ، فقعدت » . فأمر له بصلة وكسوة وحُمْلان . فخرج الرجل من عند زياد . وتلقاه الناس يسألونه فقال : « ما كلــكم أستطيع أن أخبره ، ولــكنى دخلت على رجل لا يمــلك ضــرا ولا نفعا لنفسه ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فرزق الله منه ما ترون » . وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول : « ما أحسب الذى يمنعــكم مــن إتيانى إلا الرُّجْلة [1] » . فيقولون : « أجل » . فيحملهم ويقول : « اغشَوْنى الآن واسْــمُروا عندى » . فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز فقال : « قاتل الله زيادا ، جمــع لهــم كما تجمع الذَّرة [2] ، وحاطهم كما تحوط الأم البَرة ، وأصلح العراق

(1) الرجلة : عــــدم امتلاك الرجل ما يركبه .

(2) الذرة : النملة الصغيرة .

بـــأهل العـــراق ، وترك أهل الشام فى شأمهم ، وجبى العراق مئة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف » .

وبـــلغ زيادا عن رجل يُكنَى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأى الخـــوارج . فدعاه فولاه جُنْدَى سابور وما يليها ، ورزقه أربعة آلاف درهم فى كل شـــهر ، وجعل عمالته [1] فى كل سنة مئة ألف . فكان أبو الخير يقول : « ما رأيت شـــيئا خـــيرا مـــن لزوم الطاعة والتقلب بين أَظْهُر الجماعة » . فلم يزل واليا حتى أنـــكر منه زياد شيئا . فتنمر لزياد فحبسه . فلم يخرج من حبسه حتى مات .

وقـــال الـــرُّهَين ، وكان رجلا من مراد ، وكان لا يرى القعود عن الحرب وكـــان فى الدهاء والمعرفة والشعر والفقه بقول الخوارج بمنزلة عمران بن حطان ، وكـــان عمـــران بـــن حطان فى وقته شاعر قَعَد الصُّفْرية ورئيسهم ومفتيهم . قال المرادى :

يا نفس قد طال فى الدنيا مراوغتى	لا تأْمَننَّ لصَرْف الدهر تنغيصـــا
إنى لَبائعُ ما يَفْنَى لباقيـــــة	إنْ لم يَعُقْنى رجاءُ العيش تَرْبيصـــا
وأسأل الله بيعَ النفس مُحتسبـــاً	حتى ألاقىَ فى الفردوس حُرْقوصـــا
وابنَ المَنيحِ ومرداســـا وإخوتـــه	إذ فارقوا زَهْرة الدنيا مَخاميصا [2]

وهـــذه كلمة له . وله أشعار كثيرة فى مذاهبهم . وكان زياد ولى شيبان بن عـــبد الله الأشْعَرى صاحب مقبرة بنى شيبان باب عثمان وما يليه . فجد فى طلب الخـــوارج وأخافهم وكانوا كَثُروا . فلم يزل كذلك حتى أتاه ليلة ، وهو متـــكىء

---

(1) العمالة : الأجـــر .

(2) التربيص : التوقف والتمهل . والمخاميص : الجوعى .

بباب داره ، رجلان من الخوارج . فضرباه بأسيافهما فقتلاه . وخرج بنون له للإغاثة فقُتلوا . ثم قتلهما الناس . فأُتى زياد بعد ذلك برجل من الخوارج فقال : «اقتلوه متكنا كما قُتل شيبان متكنا». فصاح الخارجى : «ياعَدْلاه !» يهزأ به .

وذُكر لعبيد الله بن زياد رجل من بنى سَدوس ، يقال له خالد بن عباد أو ابن عبادة ، وكان من نساكهم . فوجه إليه فأخذه . فأتاه رجل من آل ثور فكذب عنه ، وقال : «هو صهرى وهو فى ضِمْنى» . فخلى عنه . فلم يزل الرجل يتفقده حتى تغيب . فأتى ابن زَياد فأخبره . فبعث إلى خالد بن عباد فأُخذ . فقال عبيد الله ابن زياد : «أين كنت فى غيبتك هذه ؟» . قال : «كنت عند قوم يذكرون الله ، ويذكرون أئمة الجَوْر فيتبرؤون منهم» . قال : «دُلَّنى عليهم» . قال : «إذن يسعدوا وتشقى ، ولم أكن لأُرَوعهم» . قال : «فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟» . قال : «خيرا» . قال : «فما تقول فى أمير المؤمنين عثمان : أتتولاه ، وأمير المؤمنين معاوية ؟» .قال : «إن كانا وليَّين لله فلستُ أعاديهما» . فأراغه مرات فلم يرجع. فعزم على قتله فأمر بإخراجه إلى رحبة تعرف برحبة الزَّيْنَبى . فجعل الشُّرَط يتفادَوْن من قتله ، ويروغون عنه توقيا ، لأنه كان شاسفا [1] عليه أثر العبادة حتى أتى المُثَلَّم بن مسروح الباهلى ، وكان من الشرط ، فتقدم فقتله . فائتمر به الخوارج ليقتلوه ، وكان مغرما باللقاح [2] يتتبعها ، فيشتريها من مَظانها [3] وهم فى تَفَقُّده . فدسوا إليه رجلا فى هيئة الفتيان عليه رَدْع [4] زعفران . فلقيه بالمِرْبَد ،

---

[1] الشاسف : الضامر الهزيل .
[2] اللقاح : جمع لقحة ، وهى الناقة الحلوب .
[3] مظانها : الأماكن التى يظن أنها موجودة فيها .
[4] الردع : الأثر .

وهو يسأل عن لَقْحة صَفِى [1] . فقال له الفتى : « إن كنت تبلُغ فعندى ما يُغنيك عـــن غيره ، فامض معى » . فمضى المثلم على فرسه والفتى أمامه حتى أتى به بنى سعد . فدخل دارا وقال له : « ادخل على فرسك » . فلما دخل وتوغل فى الدار ، أغـــلق الباب . وثارت به الخوارج فاعْتَوَره [2] حُرَيث بن حَجْل وكَهْمَس بن طَلْق الصَّـــريمى فقـــتلاه . وجعـــلا دراهم كانت معه فى بطنه ، ودَفناه فى ناحية الدار ، وحـــكا آثار الدم ، وخليا فرسه فى الليل فأُصيب من الغد فى المربد . وتحسس عنه الباهـــليون فـــلم يروا له أثرا . فاتهموا به بنى سَدُوس فاستَعْدَوا عليهم السلطان . وجعل السدوسيون يحلفون . فتحامل ابن زياد مع الباهليين ، فأخذ من السدوسيين أربع ديات ، وقال : « ما أدرى ما أصنع بهؤلاء الخوارج ؟ كلما أمرت بقتل رجل مـــنهم اغـــتالوا قاتله » . فلم يُعلم بمـــكانه حتى خرج مرداس . فلما واقفهم ابن زُرْعـــة الـــكلابى صاح بهم حريث بن حجل : « أهاهنا من باهلة أحد ؟ » . قالوا : « نعـــم ». قـــال : « يا أعداء الله ، أخذتم بالمثلم أربع ديات وأنا قاتله ، وجعلت دراهـــم كانت معه فى بطنه ، وهو فى موضع كذا مدفون ! » . فلما انهزموا صاروا إلى الدار فأصابوا أشلاءه والدراهم ، ففى ذلك يقول أبو الأسود الدُّؤَلى :

آلَيْتُ لا أغدو إلى رَب لقْحَـــةٍ أساومه حتى يعود المثـــــلم [3]

ثم خـــرجت خـــوارج لا ذكر لهم كلهم قُتل حتى انتهى الأمر إلى الأزارقة . ومـــن هاهـــنا افـــترقت الخوارج ، فصارت على أربعة أَضْرُب : الإباضية ، وهم

[1] الصفى : الغزيرة اللبن .
[2] اعتـــوره : تبادله .
[3] آليت : أقسمت .

أصحاب عبد الله بن إباض : والصُّفْرية ، واختلفوا فى تسميتهم ، فقال قوم : سموا بـــابن صَـــفار ، وقـــال آخرون وأكثر المتـــكلمين عليه : هم قوم نَهِكَتْهم العبادة فاصفرت وجوهم ؛ ومنهم البَيْهَسية ، وهم أصحاب أبي بَيْهَس ؛ ومنهم الأزارقة، وهم أصحاب نافع بن الأزرق الحَنفى . وكانوا قبلُ على رأى واحد لا يختلفون إلا فى الشـــىء الشاذ من الفروع ، كما قال صخر بن عروة : «إنى كرهت قتال على ابن أبي طالب رضى الله عنه لسابقته وقرابته . فأما الآن فلا يسعنى إلا الخروج » . وكان اعتزل عبد الله بن وهب يوم النهر . فضللته الخوارج بامتناعه من قتال على.

فـــكان أول أمرهم الذى نستاقه أن جماعة من الخوارج منهم نَجْدة بن عامر الحَـــنَفى عـــزموا على أن يقصدوا مكة لما توجه مسلم بن عُقْبة يريد المدينة لوقعة الحَرة. فقالوا : «هذا ينصرف عن المدينة إلى مـــكة ، ويجب علينا أن نمنع حرم الله مـــنه ، ونمتحن ابن الزبير ، فإنْ كان على رأينا بايعناه » . فمضوا لذلك فـــكان أول أمرهم أن أبا الوازع الراسبى ، وكان من مجتهدى الخوارج ، كان يَذمُر نفسه ويـــلومهـــا على القعود ، وكان شاعرا ، وكان يفعل ذلك بأصحابه . فأتى نافعَ ابن الأزرق ، وهو فى جماعة من أصحابه يصف لهم جور السلطان ، وكان ذا لسان عَضْـــب واحـــتجاج وصبر على المنازعة . فأتاه أبو الوازع فقال : «يا نافع ، لقد أُعطيـــت لســـانا صارما وقلبا كَليلا ، فَلَوَددْتُ أن صرامة لسانك كانت لقلبك وكـــلال قلبك كان للسانك ، أتحض على الحق وتقعد عنه ، وتقبح الباطل وتقيم عـــليه ؟ » . فقال : «إلى أن تجمع من أصحابك من تنـــكى به عدوك» . فقـــال أبو الوازع :

لسانُك لا تنـــكى به القومَ إنمـــا ... تَنال بكفيك النجاةَ من الـــكرْب
فجاهدْ أناسا حاربوا واصطـــبر ... عسى الله أن يُخزىغَوِىَّ بنىحرب[1]

[1] الغوى : الضال ، يريد معاوية بن أبي سفيان .

ثم قال : « والله لا ألومـــك ونفسى ألـــوم ، ولأغْدُوَنَّ غدوة لا أنثنى بعدهـــا أبدا » . ثم مضى فاشترى سيفا وأتى صَيْقَلا كان يذم الخوارج ويدل على عوراتهم فشاوره فى السيف فحمده . فقال : « اشْحَذْه » . فشحَذَه حتى إذا رضيه حَـــكم وخبط به الصيقل . وحمل على الناس فتهاربوا منه حتى مقبرة بنى يشكر . فدفع عليه رجل حائطَ السُّتْرة . فـــكرهت ذلك بنو يشكر خوفا أن تجعل الخوارج قبره مهاجَرا .

فـــلما رأى ذلك نافع وأصحابه جَدُّوا ، وخرج فى ذلك جماعة . فـــكان ممن خـــرج عيسى بن فاتك الشاعر الخَطِّى من تَيْم اللات بن ثعلبة ، ومقتله بعد خروج الأزارقة .

فمضـــى نافع وأصحابه من الحرورية قبل الاختلاف إلى مـــكة ليمنعوا الحرم من جيش مسلم بن عقبة فلما صاروا إلى ابن الزبير عَرَّفوه أنفسهم . فأظهر لهم أنه عـــلى رأيهـــم حتى أتاهم مسلم بن عقبة وأهل الشام . فدافعوهم إلى أن يأتى رأى يـــزيد بن معاوية ولم يبايعوا ابن الزبير . ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا : « ندخل إلى هـــذا الـــرجل فننظر ما عنده ، فإن قدم أبا بكر وعمر ، وبرئ من عثمان وعلى ، وكَفَّـــر أبـــاه وطـــلحة بايعناه . وإن تـــكن الأخرى ظهر لنا ما عنده فتشاغلنا بما يُجْـــدى علينا » . فدخلوا على ابن الزبير وهو متبذل [1] وأصحابه متفرِّقون عنه . فقـــالوا : « إنا جئناك لتخبرنا رأيك ، فإن كنت على الصواب بايعناك ، وإن كنت عـــلى غيره دعوناك إلى الحق . ما تقول فى الشيخين ؟ » . قال : « خيرا » . قالوا : « فما تقول فى عثمان الذى أَحْمَى الحِمَى ، وآوَى الطَّريد ، وأظهر لأهل مصر شيئا

(1) متبذل : فى لباسه وهيئته المتولية دون تـــكلف .

وكـتب بخلافه ، وأوطأ آل أبي مُعَيط رقاب الناس ، وآثرهم بَفْيْء المسلمين ، وفى الذى بعده الذى حكم فى دين الله الرجال ، وأقام على ذلك غير تائب ، ولا نادم ، وفى أبيـك وصـاحبه، وقد بايعا عليا وهو إمام عادل مرضىّ لم يظهر منه كفر ثم نـكثا بعَرَض من أعراض الدنيا ، وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يَقـرْنَ فى بيوتهن وكان لك فى ذلك ما يدعوك إلى التوبة . فإن أنت قلت كما نقـول فـلك الزُّلْفَة [1] عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق . وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه ، والتحقيق بعثمان والتولى فى السنين الست التى أحلت دمه وأفسدت إمامته ، خذلك الله وانتصر منك بأيدينا »

فقـال ابن الزبير : « إن الله أمر وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما وسلم : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى » ، فنهى عن سب أبى جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبـو جهل عدو الله ، وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك ، والجاد فى المحاربة ، والمتـبغّض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والمحارب لـه بعدها ، وكفـى بالشرك ذنبا . وقد كان يُغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولـوا : أتبرأ من الظالمين . فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس ، وإن لم يكونا مـنهم لم تُحفظـون [2] بسب أبى وصاحبه . وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمن فى أبويـه : ﴿ وَإِنْ جَـاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ . وقال جل ثناؤه : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ وهـذا الذى دعوتم إليه أمر لـه ما بعده ، وليس يُقْنعكم إلا التوقيف والتصريح .

[1] الزلفة : القربى والحظوة .

[2] تحفظون : تغضبون .

ولعَمْــرى إن ذلك لأحْرى بقطع الحُجّج ، وأوضح لمنهـــــــاج الحق ، وأوْلَى بأن يعـــرف كلٌ صاحبه من عدوه . فرُوحوا إلىّ من عَشِيّتــكم هذه ، أكشف لــكم ما أنا عليه إن شاء الله » .

فلما كان العشى راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه . فلما رأى ذلك نجـــدة قال : «هذا خروج مُنابذ لـــــكم [1] » . فجلس على رَفْعٍ [2]من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم ذكر أبا بكر وعمر أحســـن ذكر ثم ذكر عثمان فى السنين الأوائل من خلافته ثم وَصَلهن بالسنين التى أنـــكــروا ســـيرته فيها فجعلها كالماضية ، وخَبَّر أنه آوى الحَـــكَم بن أبى العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الحِمَى وما كان فيه من الصلاح ، وأن القـــوم اسْتَعْتَبُوه من أمور وكان له أن يفعلها أوَّلا مصيبا ثم أعْتَبهم [3] بعدُ محسنا ، وأن أهـــل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه بعد أن ضَمِن لهم العُتْــــبَى ، ثم كُتب لهم ذلك الـــكتاب بقتلهم ، فدفعوا الـــكتاب إليه . فحلف أنه لم يكتبه ! ولم يأمر به . وقـــد أُمر بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته ، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومـــكانه من الإمامة ، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنمـــا كانت بسببه . وعثمان الرجل الذى لزمته يمين لو حلف عليهـــا لَحَلف على حق ، فافتداها بمئة ألف ولم يحلف . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : «مـــن حلف بالله فَلْيَصْدُق ، ومن حُلِف لـــه بالله فَلْيَرْضَ » . فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه ، وأنا ولىّ وليه وعدو عدوه ، وأبى وصاحبه صاحبا رسول الله صلى الله

---

[1] المنابذ : المخالف المفارق عن عـــداوة .
[2] الرفع : المرتفع .
[3] أعتبهم : أرضاهـــــم .

عليه وسلم . ورسول الله يقول عن الله تعالى يوم أحد ، لما قُطعت إصبع طلحة : «سبقته إلى الجنة». وقال : «أَوْجَبَ طلحة [1] » . وكان الصّديق إذا ذكر يوم أحد قال : «ذاك يومٍ كله أو جُلُّه لطلحة» . والزبير حَوارىّ رسول الله وصفوته . وقد ذكر أنهما فى الجنة . وقال عز وجل : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ . وما أخبرنا بعدُ أنه سخط عليهم . فإنْ يكن ما سَعَوا فيه حقا فأَهْلُ ذلك هم . وإنْ يكن زلة ففى عفو الله تمحيصها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم . ومهما ذكرتموهما به ، فقد بدأتم بأمكم عائشة رضى الله عنها . فإن أبى آب أن تكون له أُما نبذ اسم الإيمان عنه . قال جل ذكره وقوله الحق : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا عنه .

وكان سبب وضع الحرب بين ابن الزبير وبين أهل الشام بعد أن كان حصين ابن نمير قد حصر ابن الزبير أنه أتاهم موت يزيد بن معاوية فتوادع الناس وكان أهل الشام ضَجِروا من المقام على الزبير وحَنِقت الخوارج فى قتالهم.

فتفرقت الخوارج على ابن الزبير لما تولى عثمان . فصارت طائفة إلى البصرة ، وصارت طائفة إلى اليمامة . وكان رجاء النميرى هو الذى كان جمعهم للمدافعة عن الحرم . فكان فيمن صار إلى البصرة نافع بن الأزرق الحنفى ، وبنو الماحوز السَّليطيون ، ورئيسهم حسان بن بَحْزج . فلما صاروا إلى البصرة نظروا فى أمورهم فأمَّروا عليهم نافعا . ويروى أن أبا الجَلْد اليشكرى قال لنافع يوما : «يا نافع إن لجهنم سبعة أبواب ، وإن أشدها حرا الباب الذى أُعِد للخوارج .

[1] أوجب طلحة : وجبت له الجنة .

فـإنْ قدرت أن لا تـكون منهم فافعل» . فأجمع القوم على الخروج . فمضى بهم نافع إلى الأهواز فى سنة أربع وستين . فأقاموا بها لا يهيجون أحدا ويناظرهم الناس. وكـان سـبب خروجهم أنه لما مات يزيد ، بايع أهل البصرة عبيد الله بن زياد ، وكان فى السجن يومئذ أربعمئة رجل من الخوارج . وضعف أمر ابن زياد فـكُلِّم فيهم فأطلقهم ، فأفسدوا البيعة عليه وفشوا فى الناس يدعون إلى محاربة السلطان ، ويُظهـرون ما هم عليه حتى اضطرب على عبيد الله أمره . فتحول عن دار الإمارة إلى الأزد . ونشـأت الحـرب بسـببه بين الأزد وربيعة وبين بنى تميم . فاعتزلهم الخـوارج إلا نفـرا منهم من بنى تميم معهم عَبْس بن طَلق الصَّريمى أخو كهمس ، فإنهم أعانوا قومهم .

فـلما قـتل مسعود بن عمرو المَعْنِىّ وتـكافّ الناس ، أقام نافع بن الأزرق بموضـعه بـالأهواز ، ولم يعد إلى البصرة . وطردوا عُمَّال السلطان عنها ، وجبوا الفـىء . ولم يـزالوا على رأى واحد يتولّون أهل النهر ومرداسا ومن خرج معه ، حتى جاء مولى لبنى هاشم إلى نافع ، فقال له : «إن أطفال المشركين فى النار ، وإن مـن خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال» . قال لـه نافع : «كفرتَ وأذلَـلْتَ بنفسك» . قال لـه : «إن لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلنى . ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾. فهذا أمر الـكافرين وأمر أطفالهم» . فشهد نافع أنهم جميعـا فى النار ورأى قتلهم وقال : «الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه ، ولا يحل أكـل ذبائحهم ولا تناكُحهم ولا توارثهم . ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنه . وهـم ككفار العرب لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقَعَد بمنزلتهم . والتقية لا تحل ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ

خَشْـيَةً ﴾ » . وقال عز وجل فيمن كان على خلافهم : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ .

فـــتفر جماعة من الخوارج عنهم منهم نجدة بن عامر ، واحتج عليه بقوله عز وجل :﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ ، وبقوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ ، فالقَعَد منا والجهاد إذا أمـــكن أفضل ، لقوله عز وجـــل : ﴿ وَفَضَّـــلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . ثم مضى نجدة بأصحابه إلى اليمامة ، وتفرقوا فى البلدان . فلما تتايع[1] نافع فى رأيه وخالف أصحابه وكان أبو طالوت سالم بن مطر بالخَضارم فى جماعة قد بايعوه ، فلما انخزل نجدة خلعوا أبا طـــالوت ، وصـــاروا إلى نجـــدة فبايعوه . ولقى نجدة وأصحابه قوما من الخوارج بالعرمة. فقال لهم أصحاب نجدة «إن نافعا قد كفَّر القَعَد ، ورأى الاستعراض[2] وقتل الأطفال» . فانصرفوا مع نجدة .

وكـــتب نافع إلى من بالبصرة من المُحـــكمة : «بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . والله إنـــكم لَتعلمون أن الشريعة واحدة والدين واحد ، ففيمَ المُقام بين أظهر الـــكفار، ترون الظلم ليلا ونهارا ، وقد نَدَبـــكم الله إلى الجهاد، فقال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَـــا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ . ولم يجعل لـــكم فى التخلف عذرا فى حال من الأحوال، فقـــــال : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ . فلا تغتروا ولا تطمئنوا إلى الدنيا ، فإنها غَرَّارة مكّارة ، لذتها نافدة ، ونعمتها بائدة ، حُفت بالشهوات اغترارا ، وأظهرت حَبْرَة ،

---

[1] تتايع : أســــرع .

[2] الاستعراض : القتـــل دون سؤال .

وأضـــمرت عبْرة . فليس آكلٌ منها أكلة تسره ، ولا شارب شربة تؤنقه ، إلا دَنا بها درجة إلى أجله ، وتباعد بها مسافة من أمله . وإنما جعلها الله دارا لمن تزود منها إلى النعيم المقيم والعيش السليم . فلن يرضى بها حازم دارا ولا حليم بها قــرارا . ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

والسلام على من اتبع الهـــــدى» .

فــورد كتابه عليهم ، وفى القوم يومئذ أبو بَيْهَس هَيْصَم بن جابر الضبَعى ، وعـــبد الله بـــن إباض المُرّى من بنى مرة بن عبيد فأقبل أبو بيهس على ابن إباض فقـــال: «إن نافعـــا غلا فـــكفر ، وإنك قَصَّرت فـــكفرت . تزعم أن من خالفنا ليـــس بمشرك ، وإنما هم كفار النِّعَم لتمسكهم بالـــــكتاب وإقرارهم بالرسول . وتـــزعم أن مَناكحهم ومواريثهم والإقامة فيهم حِل طِلْق . وأنا أقول : إن أعداءنا كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل لنا الإقامة فيهم كما فعل المسلمون فى إقامتهم بمكة ، وأحكام المشركين تجرى فيها . وأزعم أن مناكحهم ومواريثهم تجوز لأنهم منافقون يُظهرون الإسلام ، وأن حكمهم عند الله حـــكم المشركين » .

فصاروا فى هذا الوقت على ثلاثة أقاويل : قول نافع فى البراءة والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال ، وقول أبى بيهس الذى ذكرناه . وقول عبد الله ابن إباض وهو أقرب الأقاويل إلى السُّنة من أقاويل . وقالت الصُّفرية أَلْيَنَ من هذا القـــول فى أمر القَعَد حتى صار عامتهم قعدا . وقال أبو بيهس : الدار دار كفر ، والاستعراض فيها جائز وإن أُصيب من الأطفال فلا حرج .

وتفـــرقت الخوارج على الأَضْرُب الأربعة التى ذكرنا . وأقام نافع بالأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال . فإذا أُجيب إلى المقالة جبى الخراج . وفشا عماله فى السواد [1] فارتاع لذلك أهل البصرة . فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس فشكوا ذلك إليــه ، قالوا : « ليس بيننا وبين العــدو إلا ليلتان ، وسيرهم ما ترى ! ». فقال الأحــنف : « إن فعلهم فى مِصْركم إن ظَفِروا به كفعْلهم فى سَوادكم . فَجِدُّوا فى جهاد عدوكم » . فاجتمع إليه عشرة آلاف . فأتى عبد الله بن الحارث وهو بَبَّةُ ، فسأله أن يُؤمِّر عليهم . فاختار لهم ابن عُبَيس بن كُرَيز ، وكان ديِّنا شجاعا . فأمّره عــليهم وشــيعه . فــلما نفذ من جسر البصرة ، أقبل على الناس فقال : « إنى ما خــرجت لا متيار ذهب ولا فضة ، وإنى لأحارب قوما إنْ ظفرتُ بهم فما وراءهم إلا ســيوفهم ورمــاحهم . فمن كان شأنه الجهاد فلينهض ، ومن أحب الحيـــاة فليرجع » . فرجع نفر يسير ومضى الباقون معه .فلما صاروا بدُولاب خرج إليهم نــافع فاقتتلوا قتالا شديدا حتى تــكسرتّ الرماح وعُقِرت الخيل وكثرت الجراح والقــتل . وتضــاربوا بالســيوف والعَمَد ، فقُتل فى المعركة ابن عبيس ونافع بن الأزرق. وكان ابن عبيس تقدم إلى أصحابه فقال : « إن أصبت فأميركم الربيع بن عمرو الأَجذم الغُدانى » . فلما أصيب ابن عبيس أخذ الربيع الراية . وكان نافع قد اســتخلف عــبيد الله بن بَشير بن الماحُوز السَّليطى . فـــكان الرئيسان من بنى يَرْبوع : رئيس المسلمين من بنى غُدانة بن يربوع ، ورئيس الخوارج من بنى سَليط ابن يربوع . فاقتتلوا قتالا شديدا .

فلم يزل الربيع يقاتلهم نَيِّفا وعشرين يوما ، حتى قال يوما : « أنا مقتول لا محالــة ». قالوا : « وكيف ؟ » قال : « لأنى رأيت البارحة كأنّ يدى التى أصيبت

[1] الســـواد : الريفّ .

بكـــابُل انحطـــت من السماء فاستَشْلَتْنى [1] » . فلما كان الغد قاتل إلى الليل . ثم غاداهم فقُتل . فتدافع أهلُ البصرة الرايةَ حتى خافوا العطب [2]، إذ لم يــكن لهم رئيـــس . ثم أجمعوا على الحَجّاج بن باب الحِمْيَرى فأباها . فقيل له : «ألا ترى أن رؤســاء العـــرب بالحضـــرة ، وقد اختاروك من بينهم ؟» . فقال : «مشئومةٌ ما يأخذها أحد إلا قُتل !» ثم أخذها فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب ، والخوارجُ أعدُّ بـــالآلات والدروع والجواشن [3] . فالتقى الحجاج بن باب وعمران بن الحارث الراسى ، وذلك بعد أن اقتتلوا زهاء شهر . فاختلفا ضربتين فسقطا ميتين .

والأزارقة لا تـــكفّر أحدا من أهل مقالتها فى دار الهجـــرة إلا القاتل رجلا مسلما فإنهم يقولون : «المسلم حُجة الله والقاتل قَصدَ لقطع الحجة» . ويروى أن نافعا مر بمالك بن مِسْمَع فى الحرب التى كانت بين الأزد وربيعة وبنى تميم ، ونافع متقـــلد سيفا . فقام إليه مالك فضرب بيده إلى حَمالة سيفه وقال : «ألا تنصرنا فى حربـــنا هـــــذه ؟» . فقـــال : «لا يحـــل لى» . قال : «فما بال مؤمنى بنى تميم ينصرون كفارهم فى هذه الحرب ؟ !» . فأمسك عنه . وخرج بعد ذلك بأيام إلى الأهواز .

فلما قُتل من قُتل ممن بخازر من الخوارج فى أيام ابن الماحوز ، كره بة القتال. وأقام حارثة بن بدر الغُدانى بإزاء الخوارج يُناوشهم على غير ولاية ، وكان يقول : «مـــا عذرنا عند إخواننا من أهل البصرة إن وصل إليهم الخوارج ونحن دونهم » .

---

[1] استشلتنى : استنقذته .

[2] العطَب : الهـــلاك والفســـاد .

[3] الجواشن : الدروع .

فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير يخبّرونه بقعود ببة ويسألونه أن يولى واليا . فكتب إلى أنس بن مالك أن يصلى بالناس ، فصلى بهم أربعين يوما . وكتب إلى عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر فولاه البصرة . فلقيه الكتاب ، وهو يريد الحج وهو فى بعض الطريق ، فرجع . فأقام بالبصرة . وولى أخاه عثمان محاربة الأزارقة فخرج إليهم فى اثنى عشر ألفا . ولقيه حارثة فيمن كان معه ، وعبيد الله بن الماحوز فى الخوارج بسوق الأهواز . فلما عَبرَوا إليهم دُجَيلا نهض إليهم الخوارج ، وذلك قبيل الظهر . فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : « أمَا الخوارج إلا ما أرى ؟ ! » . فقال له حارثة : « حَسْبُك بهؤلاء » . فقال : « لا جَرَم والله لا أتغدى حتى أناجزهم » . فقال له حارثة : « إن هؤلاء لا يُقاتَلون بالتعسف ، فأبقِ على نفسك وجندك » . فقال : « أبيتم أهل العراق إلا جبنا ! وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم » . يُعرّض له بالشّراب. فغضب حارثة فاعتزل . وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس . فأَجْلت الحرب عنه قتيلا وانهزم الناس وأخذ حارثة الراية وصاح بالناس : « أنا حارثة بن بدر » . فثاب[1] إليه قوم فعبر بهم دُجيلا . وبلغ فَلُّ[2] عثمان البصرة وخاف الناس الخوارج خوفا شديدا . وعزل ابن الزبير عمر بن عبيد وولى الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المعروف بالقُباع أحد بنى مخزوم . فقدم البصرة فكتب إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمدد . فأراد أن يوليه فقال له رجل من بكر بن وائل : « إن حارثة ليس بذلك إنما هو صاحب شراب » . فكتب إليه القباع : « تُكفَى حربهم إن شاء الله » فاقام حارثة يدافعهم .

---

(١) ثاب : رجع .

(٢) فل الجيش : ما بقى وتشرد منه بعد انهزامه .

ثم إن حارثة لما تفرق الناس عنه أقام بنهر تيرَى . فعبرت إليه الخوارج فهرب وأصحابه يركض حتى أتى دجيلا . فجلس فى سفينة واتبعه جماعة من أصحابه فكانوا معه . وأتاه رجل من بنى تميم وعليه سلاحه والخوارج وراءه ، وقد توسط حارثة . فصاح به : « يا حارث ليس مثلى ضُيع » . فقال للملاح : « قَرِّب » . فقرب إلى جُرُف ولا فرضة [1] هناك . فطفَر بسلاحه فى السفينة فساخت بالقوم جميعا .

وأقام ابن الماحوز يجبى كُوَر [2] الأهواز ثلاثة أشهر . ثم وجه الزبير بن على نحو البصرة فضج الناس إلى الأحنف . فأتى القباع فقال : « أصلح الله الأمير ، إن هذا العدو قد غلبنا على سَوادنا وفيئنا فلم يبق إلا أن يحصرنا فى بلدنا حتى نموت هَزْلا » . قال : « فسموا رجلا » . فقال الأحنف : « الرأى لا يخيل [3] ، ما أرى لها إلا المهلَّب بن أبى صُفْرَة » . فقال : « أوَ هذا رأى جميع أهل البصرة ؟ اجتمعوا إلى فى غد » . وجاء الزبير حتى نزل الفرات وعقد الجسر ليعبر إلى ناحية البصرة . فخرج أكثر أهل البصرة إليه ، وقد اجتمع للخوارج أهل الأهواز وكُورها رغبة ورهبة . فأتاه البصريون فى السفن وعلى الدواب ورِجَّالة [4]. فاسودت بهم الأرض. فقال الزبير لما رآهم: « أبى قومُنا إلا كفرا » .فقطعوا الجسر. وأقام الخوارج بالفرات بإزائهم . واجتمع الناس عند القباع وخافوا الخوارج خوفا شديدا . وكانوا ثلاثة فرق : فسمى قوم المهلب ، وسمى قوم مالك بن مِسْمع،

---

(1) الفرضة : المرسى .
(2) الكورة : المدينة .
(3) يخيل : يشكل ويغمض .
(4) الرجالة : المشاة .

وسمى قوم زياد بن عمرو بن الأشرف العَتَكى ، فصرفهم . ثم اختبر ما عند مالك وزياد فوجدهما متثاقلين عن ذاك . وعاد إليه من أشار بهما ، وقالوا : «قد رجعنا عن رأينا . ما نرى لها إلا المهلب» . فوجه الحارث إليه . فأتاه فقال له : «يا أبا سعيد ، قد ترى ما رَهقنا من هذا العدو وقد اجتمع أهل مِصْرك عليك» . وقال الأحنف : «يا أبا سعيد ، إنا والله ما آثرناك بها ولكنا لم نر من يقوم مقامك» . فقال له الحارث ، وأومأ إلى الأحنف : «إن هذا الشيخ لم يسمِّك إلا إيثارا للدين . وكل من فى مصرك مادٌّ عينه إليك راجٍ أن يكشف الله عز وجل هذه الغمة بك» . فقال المهلب : «لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنى عند نفسى لدون ما وصفتم ، ولست آبيا ما دعوتم إليه ، على شروط أشترطها» . قال الأحنف : «قُل» . قال : «على أن أنتخب من أحببت» . قال : «ذاك لك» . قال : «ولى إمرة كل بلد أغلب عليه» . قال : «وذاك لك» . قال : «ولى فَىْء كل بلد أظفر به» . قال الأحنف : «ليس ذاك لك ولا لنا ، إنما هو فىء المسلمين ، فإنْ سلبتَهم إياه كنت عليهم كعدوهم . ولكن لك أن تعطى أصحابك من فىء كل بلد تغلب عليه ما شئت، وتنفق على محاربة عدوك . فما فضل عنك كان للمسلمين» . قال المهلب : «فمن لى بذلك ؟» . قال الأحنف : «نحن وأميرك وجماعة أهل مِصْرك» . قال : «قد قبلت». فكتبوا بذلك كتابا ، ووُضِع على يدى الصَّلْت بن حُرَيث بن جابر الحنفى .

وانتخب المهلب من جميع الأخماس ، فبلغت نُخبَته اثنى عشر ألفا . ونظروا ما فى بيت المال فلم يكن إلا مئتى ألف درهم فعجزتْ . فبعث المهلب إلى التجار : إن تجارتكم مذ حول قد كسَدت عليكم بانقطاع مواد الأهواز وفارس عنكم ، فهَلُمَّ فبايعونى واخرجوا معى أُوفِّكم إن شاء الله حقوقكم . فتاجروه

فـأخذ من المال ما يصلح به عسكره ، واتخذ لأصحابه الخَفاتين والرانات المحشوة بالصـوف . ثم نهض وأكثر أصحابه رجالة حتى إذا صار بحذاء القوم ، أمر بسفن فأُحضـرت وأصلحت . فما ارتفع النهار حتى فرغ منها . ثم أمر الناس بالعبور إلى الفـرات ، وأمَّر عليهم ابنه المغيرة . فخرج الناس . فلما قاربوا الشاطىء خاضت إليهم الخوارج . فحاربهم المغيرة ونضَحهم بالسهام حتى تنحوا . فصار هو وأصحابه على الشاطىء . فحاربوهم فـكشفوهم وشغلوهم حتى عقد المهلب الجسر وعبر، والخوارج منهزمون ، فنهى الناس عن اتباعهم .

فأقـام المهلب أربعين يوما يجبى الخراج بكُور دجلة ، والخوارج بنهر تيرى، والـزبير بـن على منفرد بعسكره عن عسكر ابن الماحوز . فقضى المهلب التجار وأعطـى أصـحابه . فأسرع إليه الناس رغبة فى مجاهدة الخوارج ولمـا فى الغنائم وللـتجارات . فـكـان فيمن أتاه محمد بن واسع الأزدى ، وعبد الله بن رياح ، ومعاوية بن قرة المُزَنى ، وكان يقول – يعنى معاوية – : «لو جاء الدَّيلم من هاهنا ، والحـرورية من هاهنا ، لحاربتُ الحرورية» . وأبو عمران الجَوْنى ، وكان يقول : كان كعب يقول : «قتيل الحرورية يفضُل قتيل غيرهم بعشرة أنوار» .

ثم نهض المهلب إليهم على نهر تيرَى ، فتنحَّوا عنه إلى الأهواز . وأقام المهلب يجـبى مـا حواليه من الـكور ، وقد دس الجواسيس إلى عسكر الخوارج ، فأتوه بأخـبارهم ومـن فى عسكرهم ، فإذا حُشْوةٌ مـــا بين قَصَّار وَصَبَّاغ وداعر وحـداد (1) . فخطب المهلب الناس فذكر من هناك ، وقال للناس : «أمثلُ هؤلاء يغلـبونكم على فيئكم ؟» . فلم يزل مقيما حتى فهمهم ، وأحكم أمره ، وقَوَّى

---

(1) الحشوة : أُرذل القوم . والقصار : الصباغ .

أصـــحابه ، وكثرت الفرسان فى عسكره ، وتتامَّ إليه زُهاء عشرين ألفا . ثم مضى يَــؤم [1] سوق الأهواز . فاستخلف أخاه المُعارك بن أبى صفرة على نهر تيرَى ، وفى مقدمـــته المغـــيرة بـــن المهـــلب ، حتى قارَبَهم المغيرة فناوشوه فانكشف عنه بعض أصـــحابه، وثبت المغيرة بقية يومه وليلته يوقد النيران ، ثم غاداهم القتال فإذا القوم أوقـــدوا النيران فى ثِقْلَة متاعهم ، وارتحلوا عن سوق الأهواز . فدخلها المغيرة وقد جاءت أوائل خيل المهلب ، فأقام بسوق الأهواز .

وكـــان المهلب يبث الأَحْراس[2] فى الأمن كما يبثهم فى الخوف ، ويُذْكى العُيـــون [3] فى الأمصـــار كمـــا يُذكيها فى الصحارى ، ويأمر أصحابه بالتحرز ، ويخوفهـــم الـــبيات وإنْ بَعُـــد منهم العدو ، ويقول : «احذروا أن تُـــكادُوا كما تـــكيدون ، ولا تقولوا هَزمْنا وغلبنا فإن القوم خائفون وجِلون، والضرورة تفتح باب الحيلة» .

ثم ســـار يريدهم وهم بمَناذر الصغرى . فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحوز رئيس الخوارج رجلا يقال له واقد مولى لآل أبى صفرة من سَبْى الجاهلية فى خمسين رجـــلا فيهـــم صـــالح بن مِخْراق إلى نهر تيرى ، وبها المعارك بن أبى صفرة فقتلوه وصلبوه . فنمى [4] الخبر إلى المهلب . فوجه ابنه المغيرة فدخل نهر تيرى وقد خرج واقـــد منها . فاستنزله ودفنه ، وســـكن الناس ، واستخلف بها . ورجع إلى أبيه وقـــد حـــل بســـولاف والخوارج بها ، فواقعهم . وجعل على بنى تميم الحريش بن هلال. فخرج رجل من أصحاب المهلب يقـــال لـــه عبد الرحمن الإسكاف فجعل

---

[1] يؤم : يقصــــــد .

[2] الأحراس : الحرس .

[3] يذكى : يرسل . والعيون : الجواسيس .

[4] نمى الخبر : وصـــــل .

النـــاس ويهُوّن أمر الخوارج ، ويختال بين الصفين . فقــــــال رجل من الخوارج لأصحابه : «يا معشر المهاجرين ، هل لــكم فى فتـــكة فيها أرْيحّية» فحمل جماعة مـــنهم عـــلى الإسكاف فقاتلهم وحده فارسا ثم كبا به فرسه فقاتلهم راجلا قائما وباركـــا ثم كثرت به الجراحات فذّبب [1] بسيفه وجعل يحثو التراب فى وجوهم ، والمهـــلب غـــير حاضـــر ، ثم قتل رحمه الله . وحضر المهلب فأُخبر فقال للحريش وعطية العَنْبرى : «أأسلتما سيد أهل العسكر ؟ لم تعيناه ولم تستنقذاه حســـدا له لأنـــه رجل من الموالى». ووبخهما . وحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحابه فقتله ، فحمل عليه المهلب فطعنه وقتله .

ومـــال الخـــوارج بأجمعهم على العسكر فانهزم الناس وقتلوا سبعين رجلا . وثـــبت المهـــلب ، وأبلى المغيرة يومئذ ، وعُرف مـــكانه . ويقال : حاص المهلب يومـــئذ حَيْصـــة ، وتقـــول الأزد : بل كان يرد المنهزمة ويحمى أدبارهم . فبات المهـــلب فى ألفـــين . فلما أصبح رجع بعض المنهزمة فصار فى أربعة آلاف فخطب أصحابه ، فقال : «والله ما بـــكم من قلة وما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف والطمـــع والطَّبَع [2] ﴿ إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ فسيروا إلى عدوكـــم على بركة الله » . فقام إليه الحريش بن هلال فقال : «أنشُدك الله أيها الأمـــير أن تقاتلهم إلا أن يقاتلوك ، فإن بالقوم جِراحا وقد أثْخَنْتهم هذه الجولة» . فقبل منه . ومضى المهلب فى عشرة ، فأشرف على عســـكر الخوارج فلم ير منهم أحـــدا يتحرك فقال لـــه الحريش : «ارتحل عن هذا الموضع». فارتحل فعبر دجيلا وصار إلى عاقول لا يؤْتى إلا من وجهٍ واحد . فأقام به واستراح الناس ثلاثا .

---

[1] ذبب : دافـــــع .

[2] الطبع : الحرص الشديد .

فأقام المهلب فى ذلك العاقول ثلاثة أيام . ثم ارتحل والخوارج بِسلّى وسِلّيْرى فنزل قريبا منهم . فقال ابن الماحوز لأصحابه : «ماتنتظرون بعدوكم وقد هزمتموهم بالأمس وكسرتم حدهم ؟» . فقال له واقد مولى أبى صفرة : «يا أمير المؤمنين ، إنما تفرق عنهم أهل الضعف والجبن وبقى أهل النجدة والقوة ، فإن أصبتهم لم يكن ظَفَرا هينا لأنى أراهم لا يُصابون حتى يصيبوا . فإنْ غَلَبوا ذهب الدين» . فقال أصحابه . «نافق واقد» . فقال ابن الماحوز : «لا تعجلوا على أخيكم ، فإنه إنما قال هذا نظرا لكم». ثم توجه الزبير بن على إلى عسكر المهلب لينظر ما حالهم . فأتاهم فى مئتين فحزرهم ورجع وأمر المهلب أصحابه بالتحارس حتى إذا أصبح ركب إليهم على تعبئة صحيحة . فالتقوا بسلى وسليرى فتصافُّوا . فخرج من الخوارج مئة فارس فرَكَزوا رماحهم بين الصفين واتكئوا عليها . وأخرج إليهم المهلب عِداذَهم ففعلوا مثل ما فعلوا لا يريمون [1] إلا لصلاة ، حتى أمسوا . فرجع كل قوم إلى معسكرهم . ففعلوا هذا ثلاثة أيام . ثم إن الخوارج تطاردوا لهم فى اليوم الثالث فحمل عليهم هؤلاءِ الفرسان يجولون ساعة ، ثم إن رجلا من الخوارج حمل على رجل فطعنه . فحمل عليه المهلب فطعنه . فحمل الخوارج بأجمعهم كما صنعوا يوم سُولاف . فضعضعوا الناس ، وفُقِدَ المهلب وثبت المغيرة فى جمعٍ أكثرُهم أهل عمان . ثم نَجَم [2] المهلب فى مئة فارس ، وقد انغمست كفاه فى الدم ، وعلى رأسه قلنسوة مربعة فوق المِغْفَرة محشوة قَزا [3] ، وقد تمزقت وإنَّ حشوها لَيَتطاير ، وهو يلهث ، وذلك فى وقت الظهيرة . فلم يزل يحاربهم إلى الليل حتى كثر القتلى فى الفريقين .

---

[1] يريمون : يتحركون .

[2] نجم : ظهر .

[3] المغفر : زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة . والقز : الحرير .

فلما كان الغد غاداهم وقد تفرق أكثر الناس فغاداهم المهلب فى ثلاثة آلاف، وقال لأصحابه : «ما بكم من قلة ، أيعجز أحدكم أن يرمى برمحه ثم يتقدم فيأخذه ؟» . ففعل ذلك رجل من كندة يقال له عياش . وقال المهلب لأصحابه : «أعِدُّوا مَخالى فيها حجارة ، وارموا بها فى وقت الغفلة فإنها تصد الفارس وتصرع الراجل» . ففعلوا ثم أمر مناديا ينادى فى أصحابه يأمرهم بالجد والصبر ويطمعهم فى العدو . ثم حمل المهلب وحملوا فاقتتلوا قتالا شديدا . فجُهد الخوارج فنادى مناديهم: «ألا إن المهلب قد قُتل» . فركب المهلب بِرْذَوْنا [1] قصيرا أشهب ، وأقبل يركضُ بين الصفين ، وإن إحدى يديه لَفِى القَباء وما يشعر بها وهو يصيح : «أنا المهلب» . فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنوا أن أميرهم قد قُتل وكَلَّ الناس مع العصر . فصاح المهلب بابنه المغيرة : «تقدم» ففعل وصاح بذَكْوان مولاه: «قدم رايتك». ففعل فقال له رجل من ولده: «إنك تُغرِّر بنفسك» فذَمَره [2] ثم صاح : «يابنى تميم ، آمركم فتعصونى !» فتقدم وتقدم الناس ، واجتلدوا أشد جلاد حتى إذا كان مع المساء قُتل ابن الماجوز ، وانصرف الخوارج ولم يشعر المهلب بقتله ، فقال لأصحابه : «ابغونى رجلا جَلْدًا يطوف فى القتلى» فأشاروا عليه برجل من جَرْم ، وقالوا : «إنا لم نر رجلا قط أشد منه» فطَوَّف ومعه النيران ، فجعل إذا مر بجريح من الخوارج ، قال : «كافر ورب الكعبة» فأجهز عليه ، وإذا مر بجريح من المسلمين أمر بسقيه وحمله . وأقام المهلب فى عسكره يأمرهم بالاحتراس حتى إذا كان نصف الليل وجَّه رجلا من اليَحْمَد فى عشرة فصاروا إلى عسكر الخوارج ، فإذا القوم قد تحملوا إلى أرَّجان فرجع إلى

---

[1] البرذون : الفرس غير العربية .

[2] ذمره : حضه.

المهلب فأعلمه فقال لـه : «أنا لهـم الساعة أشد خوفا فاحذروا البيات» . فلما أصبح المهلب غدا على القتلى فأصاب ابن الماحوز فيهم .

وقـال رجـل من موالى المهلب : «لقد صرعتُ يومئذ بحجر واحد ثلاثة : رميت به رجلا فأصبت أصل أذنه فصرعته ، ثم أخذت الحجر فضربت به آخر على هامته فصرعته ، ثم صرعت به ثالثا».

واجـتمعت الخـوارج بأرَّجان فبايعوا الزبير بن على وهو من بنى سَليط بن يربوع من رهط ابن الماحوز ، فرأى فيهم انـكسارا شديدا وضعفا ثم تحمل لمحاربة المهـلب فَنفَحهم المهلب نفحة فرجعوا . فأَكْمَن للمهلب فى غَمْضٍ [1] من غموض الأرض يقرب من عسكره مئة فارس ليغتالوه . فسار المهلب يوما يطوف بعسكره ويـتفقد سـواده . فوقـف عـلى جبل فقال : «إن من التدبير لهـذه المارقة أن تـكون قـد أكمنت فى سفح هذا الجبل كمينا». فبعث عشرة فوارس فاطلعوا عـلى المئة فلما علموا أنهم قد علموا بهم قطعوا القنطرة ونجوا. وكَسفت الشمس فصاحوا بهم : «يا أعداء الله لو قامت القيامة لجَدَدْنا فى جهادكم» ثم يئس الزبير مـن ناحية المهلب فضرب إلى ناحية أصبهان . ثم كر راجعا إلى أرجان ، وقد جمع جموعـا . وكان المهلب يقول : «كأنى بالزبير وقد جمع جموعا فلا ترهبوهم فتخبُث قـلوبكم ، ولا تغفـلوا الاحتراس فيطمعوا فيـكم» فجاؤوه من أرجان فألفوه مستعدا آخذا بأفواه الطرق فحاربوه فظهر عليهم ظهورا بينا . وحمل يومئذ الحريش ابـن هـلال على قيس الإكاف وكان قيس من أنْجَد فرسان الخوارج فطعنه فدق صُلبه .

---

[1] الغمض : المطمئن المنخفض من الأرض .

وقـــد كـــان فَلُّ المهلب يوم سِلَّى وسِلِبْرَى صاروا إلى البصرة ، فذكروا أن المهلب أصيب فَهمَّ أهل البصرة بالنُّقْلة إلى البادية حتى ورد كتابه بظفره فأقام الناس وتراجع من كان ذهب منهم . فعند ذلك يقول الأحنف بن قيس : « البصرة بصرة المهلب » .

وقـــدم رجل من كـــندة يقال له فلان ابن أرقم ، فنعى ابن عـــم له وقال : « رأيـــت رجلا من الخوارج وقد مكن رمحه من صلبه » فقدم المَنْعِيُّ فقيل له ذلك فقال : « صدق ابن أرقم لما أحسست برمحه بين كتفى صحت : البقية » فرفعه عنى وتلا : « بقية الله خير لـــكم إن كنتم مؤمنين » .

ووجَّه المهلب بعَقِب هذه الوقعة رجلا من الأزد برأس عبيد الله بن بشير بن المـــاحوز إلى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القُبَاع . فلما صار بكُرْبُج دينار لقيه حـــبيب وعـــبد الملك وعلى بنو بشير بن الماحوز فقالوا لـــه : « ما الخبر ؟ » ولا يعرفهم فقال : « قتل الله المارق ابن الماحوز ، وهذا رأسه معى » فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه ودفنوا الرأس . فلما ولى الحجاج دخل عليه على بن بشير ، وكان وسيما جسيما ، فقال : « من هذا ؟ » فخُبِّر فقتله ووهب ابنه الأزهر وابنته لأهل الأزدى المقتول. وكانت زينب بنت بشير لهم مواصلة فوهبوهما لهـــــــا .

فلم يزل المهلب يقاتل الخوارج فى ولاية الحارث القباع حتى عُزِل الحارث . وولى مصـــعب بن الزبير ، فـــكتب إليه : أن اقدم علىّ واستخلف ابنك المغيرة . ففعـــل . فجمع الناس فقال لهم : « إنى قد استخلفت عليـــكم المغيرة ، وهو أبو صـــغيركم رقـــةً ورحمـــةً ، وابن كبيركم طاعة و برا وتبجيلا ، وأخو مثله مواساةً ومناصـــحة . فلتحسُن له طاعتـــكم ، وَلْيلنْ له جانبـــكم . فوالله ما أردت صوابا

قــط إلا ســبقنى إليه» . ثم مضى إلى مصعب وكتب مصعب إلى المغيرة بولايته . وكــتب إليه : «إنك لم تــكن كأبيك ، فإنك كافٍ لما وليتُك فشمر واتَّزِر وجد واجتهد» .

ثم شــخص المصعب إلى المَذار . فقتل أحمر بن شُميط ثم أتى الــكوفة فقتل المخــتار بن أبي عُبَيد . وقال للمهلب : «أشِــرْ عليّ برجــل أجعله بينى وبين عــبد المــلك» . فقال : «أذكر لك واحدا من ثلاثة : محمد بن عمير بن عُطارد الدارمى أو زياد بن عمرو بن الأشرف العَتَــكى أو داود بن قَحْذم» . فقــال : «أو تــكفينى» . قال : «أكفيك إن شاء الله» . فولاه الموصل فشخص المهلب إليها وصار مصعب إلى البصرة . فسأل من يستكفى أمر الخوارج وَيفِد إلى أخيه . فشــاور الناس ، فقال قوم : «ولِّ عبيد الله بن أبى بكرة» وقال قوم : «ولِّ عمر ابــن عــبيد الله بن مَعمَرَ» . وقال قوم : «ليس لهم إلا المهلب فاردده إليهم» . فولى عليهم عمر بن عبيد الله ، وولاه فارس ، والخوارج بأَرَّجان وعليهم الزبير بن عــلى السليطى . فشخص إليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها فألحقهم بأصبهان . فلما بلغ المهلب أن مصعبا ولى عمر بن عبيد الله قال : «رماهم بفارس العــرب وفتاها» . فجمعوا له وأعدوا واستعدوا . ثم أتوا سابور فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن حسان الأزدى : «إن المهلب كان يُذكــى العيون ، ويخاف البيات ، ويرتقب الغفلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم» . فقال له عمر : «اسكت ، خلع الله قلبك ! أرَاك تموت قبل أجلك ؟» فأقــام هناك . فلما كان ذات ليلة بَيَّته الخوارج فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح فلم يُظفر منه بشىء. فأقبل على مالك بن حسان فقال : «كيف رأيت ؟» .قال : «قــد ســلم الله عز وجل ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها» . فقال : «أمَا

إنــكم لو ناصحتموني مناصحَتكم المهلب لَرَجَوْتُ أن أنفى هذا العدو ، ولــكنكم تقولون : قُرشى حجازى بعيد الدار خَيْرُه لغيرنا ، فتقاتلون معى تعذيرا » .

ثم زحــف إلى الخوارج من غد ذلك اليوم فقاتلهم قتالا شديدا حتى ألجأهم إلى قــنطرة فــتــكاثف الناس عليها حتى سقطت . فأقام حتى أصلحها ثم عبروا . وتقــدم ابــنه عبيد الله بن عمر فقاتلهم حتى قُتل . فقال قَطَرى : « لا تقاتلوا عمر اليــوم فإنه موتور ». ولم يعلم عمر بقتل ابنه حتى أفضى إلى القوم ، وكان مع ابنه الــنعمان بن عباد . فصاح به : « يا نعمان ، أين ابنى ؟ » . فقال : « احتَسِبهْ [1]، فقد استشهد رحمه الله صابرا مُقبلا غير مدبر ». فقال :« إنا لله وإنا إليه راجعون ». ثم حمــل على الناس حملة لم يُر مثلها . وحمل أصحابه بحملته فقتلوا فى وجههم ذلك تســعين رجلا من الخوارج ، وحمل على قَطرىّ فضربه على جبينه فَفَلَقه . وانهزت الخــوارج وانتهــبها.فلما استقروا قال لهم قطرى : « أمَــا أشــرت عليــــكم بالانصراف » . وعادوا إلى ناحية أرَّجان .

فســار إليهــم عمر ومعه عطية بن عمرو ، ومُجَّاعة بن سعيد . فالتقوا فألح عــليهم حــتى أخرجهم . وانفرد من أصحابه فعمد له أربعة عشر رجلا منهم من مذكُوريهــم وشجعانهم ، وفى يده عمود . فجعل لا يضرب رجلا منهم ضربة إلا صــرعه . فــركض إليــه قطرى على فرسٍ طِمِرٍ[2] ، وعمر على مُهْر . فاستعلاه قطــرى بقــوة فرســه حتى كاد يصرعه . فَبَصُر به مجاعة فأسرع إليه . فصاحت

(1) احتسبه : اصبر على مصيبتك فيه ليــكون لك الأجر من الله .

(2) الطمر : الفرس الجواد الطويل القوائم .

الخوارج بقطرى : «يا أبا نعامة ، إن عدو الله قدرَ هقك [1] » . فانحط قطرى عن قَرَبوسه [2] فطعنه مجاعة ، وعلى قطرى درعان ، فهتكهما ، وأسرع السِّنان فى رأس قطرى فكشط عنه جلده ونجا . وارتحل القوم إلى أصفهان فأقاموا برهة ثم رجعوا إلى الأهواز ، وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى إَصْطَخْر .

وعُزل مصعب بن الزبير ووُلّى حمزة بن عبد الله بن الزبير . فوجه المهلب إليهم . فحاربهم فأخرجهم عن الأهواز . ثم رُدَّ مصعب ، والمهلب بالبصرة ، والخوارج بأطراف أصبهان ، والوالى عليها عَتّاب بن وَرْقاء الرّياحى . فأقام الخوارج هناك شيئا يجبون القرى . ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس فكتب مصعب إلى عمر بن عبيد الله : «ما أنصفتنا أقمت بفارس تجبى الخراج، ومثل هذا العدو يحاربك . والله لو قاتلت ثم هربت لكان أعذر لك» . وخرج مصعب من البصرة يريدهم ، وأقبل عمر بن عبيد الله يريدهم . فتنحى الخوارج إلى السُّوس ثم أتوا المدائن فقتلوا أحمر طيىء وكان شجاعا ، وكان من فرسان عبيد الله بن الحر .

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة . فلما خالطوا سوادها ، وواليها الحارث بن عبد الله القباع ، فتثاقل عن الخروج ، وكان جبانا ، ذَمره [3] إبراهيم بن الأشتر، ولامه الناس . فخرج متحاملا حتى أتى النخيلة . وجعل يَعد الناس بالخروج ولا يخرج ، والخوارج يَعيثون حتى أخذوا امرأة فقتلوا أباها بين يديها ، وكانت جميلة . ثم أرادوا قتلها ، فقالت : «أتقتلون من يُنَشَّأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟»

(1) رهقك : أدركك .

(2) قربوس السرج : الجزء المقوس المرتفع من مقدم المقعد ومؤخره .

(3) ذمره : حضه .

فقـــال قائل منهم : «دعُوها» . فقالوا : «قد فتنتْك» ثم قدموهـــا فقتلوها . ثم قـــربوا أخرى ، وهم بحِذاء القُباع ، والجسر معقود بينهما. فقطعه القباع ، وهو فى ســـتة آلاف ، والمرأة تستغيث به ، وتقول : «عَلامَ تقتلوننى ، فوالله ما فسقت ولا كفـــرت ولا ارتـــددت» ، والناس يتفلتون إلى الخوارج ، والقباع يمنعهم . فلما خـــاف أن يعصوه أمر عند ذلك بقطع الجسر . فأقام بين دَباها ودَبيرَى خمسة أيام والخـــوارج بقـــربه ، وهو يقول للناس فى كل يوم : «إذا لقيتم العدو غدا فأثبتوا أقدامـــكم واصـــبروا ، فـــإن أول الحرب الترامى ثم إشراع الرماح ثم السلة ، فثـــكلت رجلا أمه فر من الزحف» . فقال بعضهم لما أكثر عليهم : «أما الصفة فقـــد سمعناها فمتى يقع الفعل ؟» . فأخذ الخوارج حاجتهم . وكان شأن القباع التحصن منهم . ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ، وصاروا من فورهم إلى أصبهان .

وأقـــام الخوارج يُغادوُن عَتَّاب بن ورقاء القتال ويراوحونه حتى طال عليهم المقـــام ولم يظفـــروا منه بكبير . فلما كثر ذلك عليهم انصرفوا لا يمرون بقرية بين أصـــفهان والأهواز إلا استباحوها وقتلوا من فيها . وشاور المصعب الناس فأجمع رأيهـــم على المهلب . وعزم المصعب على توجيه المهلب ، وأن يشخص هو لحرب عـــبد الملك . فلما أحس به الزبير بن على ، خرج إلى الرى ، وبها يزيد بن الحارث ابـــن رُوَيْـــم فحاربه ثم حصره . فلما طال عليه الحصار خرج إليه فـــكان الظفر لـــلخـــوارج . فقُتل يزيد بن رؤيم ، ونادى يومئذ ابنه حَوْشَبا ، ففر عنه وعن أمه لطيفة .

ثم انحـــط الـــزبير بن على على أصفهان فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحى سبعة أشهر ، وعتاب يحاربه فى بعضهن . فلما طال به الحصار قال لأصحابـــــه : «ما تنظرون والله ما تُؤتَوْن من قلة وإنـــكم لفرسان عشائركم ، ولقد حاربتموهم

مــرارا فانتصــفتم منهم . وما بقى مع هذا الحصار إلا أن تفنى ذخائركم فيموت أحدكــم فيدفنه أخوه ثم يموت أخوه فلا يجد من يدفنه . فقاتلوا وبكم قوة من قبل أن يضعف أحدكم عن أن يمشى إلى قرنه » . فلما أصبح الغد صلى بهم الصبح ثم خــرج إلى الخــوارج وهم غارّون [1] ، وقد نصب لواء لجارية له يقال لها ياسمين ، فقال : « من أراد البقاء فليلحق بلواء ياسمين ، ومن أراد الجهاد فليخرج معى » . فخــرج فى ألفين وسبعمئة فارس فلم يشعر بهم الخوارج حتى غشوهم . فقاتلوهم بجد لم ير الخوارج منهم مثله فعقروا منهم خَلْقا ، وقتلوا الزبير بن على ، وانهزمت الخوارج فلم يتبعهم عتاب .

ثم إن الخوارج أداروا أمرهم بينهم فأرادوا تولية عُبَيدة بن هــلال . فقال : « أدلــكم على من هو خير لــكم منى . من يطاعن فى قُبُل[2]، ويحمى فى دُبُر[3] ، عــليــكم قَطَــرى بن الفُجاءة المازنى». فبايعوه . فوقف بهم . فقالوا : « يا أمير المؤمــنين امــض بنا إلى فارس » فقال : « إن بفارس عمر بن عبيد الله بن معمر، ولــكن نصير إلى الأهواز ، فإن خرج مصعب بن الزبير من البصرة دخلناها » . فــأتوا الأهواز ثم تَرفَّعوا عنها إلى إيذَج ، وكان مصعب قد عزم على الخروج إلى باجَمَيْــرا . فقــال لأصحابه : « إن قطريا قد أطل علينا ، وإنْ خرجنا عن البصرة دخلها » . فبعث إلى المهلب فقال : « اكفنا هذا العدو » . فخرج إليهم المهلب . فــلما أحس به قطرى تَيمَّم نحو كِرْمان . فأقام المهلب بالأهواز ثم كرَّ قطرى عليه

---

[1] غارون : غافلون .

[2] فى قبل : من أمام ، أى عند الهجوم .

[3] فى دبر : من خلف ، أى عند التقهقر .

بكثرة السلاح وكثرة الدواب وحَصانة الجُنَن [1] . فحاربهم المهلب فنفاهم إلى رام هرُمُز . وخرج مصعب بن الزبير إلى باجميراء ثم أتى الخوارج خبر مقتله بمَسْكَن .

وولى خـــالد بن عبد الله بن أسيد . فدخل البصرة فأراد عزل المهلب فأُشير عليه بأن لا يفعل ، وقيل له : « إنما أمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالأهواز وعمر ابن عبيد الله بفارس ، فقد تنحى عمر ، وإن نحيت المهلب لم تأمن على البصرة » . فأبى إلا عزله . فقدم المهلب البصرة وخرج خالد إلى الأهواز فأَشْخَصه . فلما صار بكُـــرِبَّج دينار لقيه قطرى فمنعه حط أثقاله وحاربه ثلاثين يوما ثم أقام قطرى بإزائه وخـــندق على نفسه . فقال المهلب : « إن قطريا ليس بأحق بالخندق منك » فعبر دجيـــلا إلى شِـــق نهـــر تيرى . واتبعه قطرى فصار إلى مدينة نهر تيرى فبنى سورها وخـــندق عـــليها . فقال المهلب لخالد : « خندقْ على نفسك ، فإنى لا آمن عليك الـــبيات » فقال: « يا أبا سعيد ، الأمر أعجل من ذلك » . فقال المهلب لبعض ولده : « إنى أرى أمرا ضائعا » . ثم قال لزيـــــاد بن عمرو : « خندق علينا » . فخـــندق المهـــلب وأمر بسفنه ففرّغت ، وأبى خالد أن يفرغ سفنه. فقال المهلب لفـــيروز حُصَين : « صِرْ معنا » فقال : « يا أبا سعيد الحزم ما تقـــول ، غير أنى أكره أن أفارق أصحابى » . قال : « فـــكن بقربنا » . قـــال : « أما هذا فنعم » . وقـــد كـــان عبد الملك كتب إلى بشر بن مروان يأمره أن يُمدّ خالدا بجيش كثيف أميره عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ففعل . فقدم عليـــه عبد الرحمن . فأقام قطرى يُغاديهم القتال ويراوحهم أربعين يومـــــا . فقال المهلب لمولى لأبى عُيينة : « انْتَـــبِذ إلى الناووس [2] فبِتْ عليه فى كل ليلة . فمتى أحسست خبرا من الخوارج

---

[1] الجنن : جمع جنة ، وهى الدروع .

[2] الناووس : مقبرة النصـــــــارى .

أو حـــركة أو صهيل خيل فاعجل إلينا» . فجاءه ليلة فقال : «قد تحرك القوم» . فجـــلس المهـــلب بـــباب الخندق . وأعد قطرى سفنا فيها حطب فأشعلها نارا ، وأرســـلها على سفن خالد . وخرج فى أدبارها حتى خالطهم ، فجعل لا يمر برجل إلا قـــتله ، ولا بدابـــة إلا عقرها ، ولا بفسطاط إلا هتـــكه . فأمر المهلب يزيد ، فخرج فى مئة فارس فقاتل وأبلى يومئذ . وخرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأبلى بلاء حسنا وخرج فيروز حصين فى مواليه ، فلم يزل يرميهم بالنُّشَّاب [1] هو ومـــن معـــه فأثر أثرا جميلا . فصُرع يزيد بن المهلب يومئذ ، وصرع عبد الرحمن ، فحـــامى عنهما أصحابهما حتى ركبا . وسقط فيروز حصين فى الخندق ، فأخذ بيده رجل من الأزد فاستنقذه . فوهب لـــه فيروز حصين عشرة آلاف درهم . وأصبح عســـكر خـــالد كأنـــه حَرَّة [2] سوداء . فجعل لا يرى إلا قتيلا أو صريعا ، فقال للمهـــلب : «يا أبا سعيد ، كدنا نفتضح» . فقال : «خندق على نفسك ، فإن لا تفعل عادوا إليك» . فقال : «اكفنى أمر الخندق». فصـــــاح بهم الخوارج : «والله لولا هذا الساحر المَزُونى لـــكان الله قد دمَّر عليـــكم» . وكانت الخوارج تســـمى المهـــلب الســـاحر لأنهم كانوا يدبرون الأمر فيجدونه قد سبق إلى نقض تدبيرهم .

ومضـــى قطرى إلى كرمان فانصرف خالد إلى البصرة . فأقام قطرى بكرمان أشـــهُرا ثم عمـــد لفارس وخرج خالد إلى الأهواز . وندب للناس رجلا ، فجعلوا يطلـــبون المهلب . فقال خالد : «ذهب المهلب بحظ هذا المِصْر إنى قد وليت أخى قـــتال الأزارقة» . فولى أخاه عبد العزيز . واختلف المهلب على الأهواز فى ثلاث

---

(1) النشـــاب : الســـهام .

(2) الحرة : الأرض ذات الحجارة السوداء النخرة .

مـــئة . ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفا والخوارج بدَرابَ جَرْد . فجعل عبد العزيز يقـــول فى طـــريقــــه : « يـــزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب ، فسيعلمون » .

قـــال صَـــعْب بن يزيد : فلما خرج عبد العزيز عن الأهواز جاءنى كُرْدوس حـــاجب المهـــلب ، فقال . «أجب الأمير» . فجئت إلى المهلب وهو فى سطح ، وعـــليه ثياب هَرَوية . فقـــــال : « يا صعب ، أنا ضائع ، كأنى أنظـــر إلى هزيمة عـــبد العزيـــز ، وأخشى أن توافينى الأزارقة ولا جند معى فابعث رجلا من قبلك يأتينى بخبرهم سابقا به إلى » . فوجهت رجلا يقال له عمران ابن فـــلان ، فقلت : « اصـــحب عســـكر عبد العزيز واكتب إلىّ بخبر يومٍ يوم » . فجعلت أورده على المهـــلب. فـــلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة ، فقال له الناس : «هذا يوم صالح فينـــبغى أن نُـــترك أيها الأمير حتى نطمئن ثم نأخذ أُهبتنا » فقال : « كلا إلا الأمر قـــريب » فـــنزل الناس على غير أمره . فلم يُستَتَمّ النزول حتى ورد عليهم سعد الطلائـــع فى خمسمئة فارس كأنهم خيط ممدود . فناهضهم عبد العزيز فواقفوه ساعة ثم انهزموا عنه مكيدة . فاتبعهم ، فقال له الناس : « لا تتبعهم فإنا على غير تعبئة » فـــأبى فـــلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عقبة فاقتحمها وراءهم ، والناس ينهونه ويـــأبى. وكان قد جعل على بنى تميم عَبْس بن طَلْق الصّريمى الملقب عبس الطعّان ، وعـــلى بكر بن وائل مقاتل بن مِسْمع القيسى ، وعلى شرطته رجلا من بنى ضُبيعة بن ربيعة بن نزار . فنزلوا عن العقبة ونزل خلفهم ، وكان لهم فى بطن العقبة كمين فلما صاروا وراءها خرج عليهم الـــكمين ، وعطف سعد الطلائع . فترجل عبس ابـــن طلق فقُتل ، وقُتل مقاتل بن مسمع ، وقتل الضبيعى صاحب الشرطة ، وانحاز عـــبد العزيز . واتبعهم الخوارج على فرسخين يقتلونهم كيف شاءوا . وكــــــان

عـــبد العزيز قد خرج معه بأم حفص ابنة المنذر بن الجارود امرأته ، فسَبَوا النساء يومـــئذ . وأخـــذوا أسرى لا تُحصَى ، فقذفوهم فى غارٍ بعد أن شدوهم وَثاقا ، ثم سدوا عليهم بابه حتى ماتوا فيه . وقال رجل حضر ذلك اليوم : «رأيت عبد العزيز وإن ثلاثين رجلا ليضربونه بأسيافهم وما تَحيك [1] فى جسده» .

ونـــودى عـــلى السبى يومئذ فغُولِىَ بأم حفص . فبلغ بها رجل سبعين ألفا ، وذلـــك الـــرجل من مجوس كانوا أسلموا ولحقوا بالخوارج ، فَفَرض لـــكل واحد منهم خمسمئة . فـــكاد يأخذها ، فشق ذلك على قطرى ، وقال : «ما ينبغى لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفا ، إن هذه فتنة» . فوثب إليها أبو الحديد العبدى فقتلها . فأُتى به قطرى فقال : «يا أبا الحديد مَهْيَمَ ؟» فقال : «يا أمير المؤمنين ، قـــد تَـــزايَدُوا فى هذه المشركة فخشيت عليهم الفتنة» . فقـــال قطـــرى : «قد أصبت وأحسنت» . قوله : مهيم : حرف استفهام معناه ما الخبر ، وما الأمر فهو دالّ على ذلك .

قـــال الصَّعْب بن يزيد : بعثنى المهلب لآتيه بالخبر . فصرت إلى قنطرة أَربُكَ على فرس اشتريته بثلاثة آلاف درهم ، فلم أُحسس خبرا . فسرت مُهجِّرا [2] إلى أن أمسيت . فلمـــا أظلمنا [3] سمعت كلام رجل عرفته من الجَهاضِم ، فقلت : «ما وراءك ؟» . فقال : «الشر». قلت : «فأين عبد العزيز ؟» قال : «أمامك» فـــلما كان من آخر الليـــل إذا أنا بزهـــاء خمسين فارســـا معهم لواء ، فقلت :

---

[1] تحيك : تؤثـــر .

[2] المهجر : السائر فى الهاجرة ، وهى منتصف النهـــار .

[3] أظلمنا : حل علينا الظـــلام .

«من هذا ؟» . فقالوا : «لواء عبد العزيز». فتقدمت إليه فسلمت ، وقلت : «أصلح الله الأمير لا يَكْبُرَنَّ عليك ما كان فإنك كنت فى شر جند وأخبثه» . قال لى : «أو كنت معنا ؟» قلت : «لا ولكن كأنى شاهد أمرك» . قال : «كأنك كنت معنا». قلت : «أرسلنى المهلب لآتيه بخبرك» . ثم تركته وأقبلت إلى المهلب . فقال لى : «ما وراءك ؟» . قلت : «ما يسرك قد هُزِم وَفُلَّ جيشه». فقال : «ويحك ! وما يسرنى من هزيمة رجل من قريش وفل جيش من المسلمين» قلت : «قد كان ذاك ، ساءك أو سرك» . فوجه رجلا إلى خالد يخبره . قال الرجل : فلما أخبرت خالدا قال : «كذبت ولؤمت» . ودخل رجل من قريش فكذبنى .وقال لى خالد : «والله هممت أن أضرب عنقك» . قلت : «أصلح الله الأمير ، إن كنت كاذبا فاقتلنى ، وإن كنت صادقا فأعطنى مُطْرَف [1] هذا المتكلّف» .فقال خالد : «لبئسما أخطرت به دمك» . فما برحت حتى دخل بعض الفلّ .

وقدم عبد العزيز سوق الأهواز فأكرمه المهلب وكساه . وقدم معه على خالد ، واستخلف ابنه حبيبا ، وقال له : «تحسّس عن الأخبار ، فإن أحسست بخبر الأزارقة قريبا منك فانصرف إلى البصرَة» . فلم يزل حبيب مقيما والأزارقة تدنو منه حتى بلغوا قنطرة أربك . فانصرف إلى البصرة على نهر تيرى . فلما دخلها ، أعلم خالد ، فغضب عليه . واستتر حبيب فى بنى هلال بن عامر بن صعصعة، فتزوج هناك فى استتاره الهلالية أم عباد بن حبيب .

وكتب خالد إلى عبد الملك بعذر عبد العزيز ، وقال للمهلب : «ما ترى عبد الملك صانعا بى ؟» قال : «يعزلك» . قال : «أتراه قاطعا رحمى» قال :

---

[1] المطرف : الرداء من حرير ذو أعلام .

« نعــم ، أتـــته هزيمة أمية أخيك من البحرين ، وتأتيه هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس » فـــكتب عبد الملك إلى خالد : « أما بعد ، فإنى كنتُ حددتُ لك حدا فى أمر المهلب . فلما ملـــكتَ أمرك نبذت طاعتى واستبددت برأيك ، فوليت المهلب الجـــباية ، ووليت أخاك حرب الأزارقة ، فقبح الله هذا رأيا ، أتبعث غلاما غِرا لم يجـــرب الحـــروب ، وتـــترك سيدا شجاعا مدبرا حازما قد مارس الحروب تشغله بالجـــباية ؟ أما لو كافأتك على قدر ذنبك لأتاك من نـــكيرى ما لا بقية لك معه ، ولـــكن تذكرت رحمك فلفتتنى عنك ، وقد جعلت عقوبتك عزلك » .

وولى بشر بن مروان وهو بالـــكوفة وكتب إليه : « أما بعد فإنك أخو أمير المؤمـــنين ، يجمعـــك وإيـــاه مروان بن الحـــكم ، وإن خالدا لا مجتمع له مع أمير المؤمنين دون أمية فانظر المهلب فولّه حرب الأزارقة ، فإنه سيد بطل مجرَّب فامدده من أهل الـــكوفة بثمانية آلاف رجل » . فشق عليه ما أمـــره فى المهلب ، وقال : « والله لأَقْتُلَنَّهُ ». فقال له موسى بن نُصَير : « إن للمهلب حفاظا وبلاء ووفاء » . وخـــرج بشر بن مروان يريد البصرة فـــكتب موسى وعِكْرِمة إلى المهلب أن يتلقاه لقـــاء لا يعرفه به ، فتلقاه المهلب على بغل فسلم عليه فى خمار الناس . فلما جلس بشـــر مجلـــسه قال: « ما فعل أميركم المهلب ؟ » قالوا : « قد تلقاك أيها الأمير وهو شـــاكٍ » . فهمّ بشر أن يولى حرب الأزارقة عمر بن عبيد الله ، فقال له أسماء بن خارجـــة : « إنما ولاك أمير المؤمنين لترى رأيك » .فقال له عـــــكرمة بن ربعى : « اكتب إلى أمير المؤمنين وأعلمه علة المهلب » . فـــكتب إليه يعلمه علة المهلب، وأن بالبصـــرة مـــن يغنى غَناءه . ووجه بالـــكتاب مع وفد أوْفَدهم إليه ، رئيسهم عبد الله بن حكيم المجاشعى . فلما قرأ الـــكتاب خلا بعبد الله بن حكيم ، فقـــال: « إن لك دينا ورأيا وحزما . فمن لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ » . قال: « المهلب » قال :

« إنه عليل ». قال : « ليست علته بمانعتـــه » قال عبد الملك : « أراد بشر أن يفعل ما فعـــل خالد » . فــكتب يعزم عليه أن يولى المهلب . فوجه إليه . قال المهلب : « أنـــا عليل ولا يمكننى الاختلاف » فأمر بشر بحمل الدواوين إليه. فجعل ينتخب فاعـــترض بشر عليه فاقتطع أكثر نُخبته . ثم عزم عليه أن لا يقيم بعد ثالثة ، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلفوها وراء ظهورهم ، وصاروا بالفرات . فخرج إليهم المهلب حتى صار إلى شَهارْ طاقَ . فأتاه شيخ من بنى تميم فقـــال : « أصلح الله الأمـــير ، إن سنى ما ترى فهبنى لعيالى » . قال : « على أن تقول للأمير إذا خطب فحـــثكم على الجهاد : كيف تحثنا على الجهاد وأنت تحبس أشرافنا وأهـــل النجدة منـــا ». ففعل الشيخ ذلك فقال له بشـــر : « ما أنت وذاك ؟ » . قـــال : « لاشيء » .

وأعطى المهلب رجلا ألف درهم على أن يأتى بشـــرا ، فيقول له : « أيها الأمير، أعِن المهلب بالشرطة والمقاتلة » . ففعل الرجل ذلك . فقال له بشـــر : « مـــا أنت وذاك ؟ » . قال : « نصيحة للأمير والمسلمين ، ولا أعود إلى مثلها » . فأمده بالشرطة والمقاتلة .

وكـــتب بشر إلى خليفته بالـــكوفة أن يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف من كل ربع ألفين ، ويوجه به مددا إلى المهلب . فلما أتاه الـــكتاب بعث إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدى فعقد له ، واختار له من كل ربع ألفين . فـــكان على ربـــع أهل المدينة بشر بن جرير البَجَلى ، وعلى ربع تميم وهَمْدان عبد الرحمن بن ســـعيد بـــن قيس الهمدانى ، وعلى ربع كندة وربيعة محمد بن إسحاق بن الأشعث الـــكـــندى ، وعـــلى مَذْحِج وأسد زَحْر بن قيس المَذْحِجى . فقدموا على بشر . فخلا بعبد الرحمن بن مخنف فقال له : « قد عرفتَ رأيى وثقتى بك فـــكن عند ظنى.

انظر هذا المزونى فخالفه فى أمره ، وأفسد عليه رأيه » . فخرج عبد الرحمن بن مخنف ، وهو يقول : « ما أعجب ما طمع منى فيه هذا الغلام : يأمرنى أن أصغر شيخا من مشايخ أهلى وسيدا من ساداتهم ! » . فلحق بالمهلب .

فلما أحس الأزارقة بدنوه منهم انكشفوا عن الفرات فاتبعهم المهلب إلى سوق الأهواز فنفاهم عنها . ثم تبعهم إلى رامَ هُرْمُز فهزمهم منها ، فدخلوا فارس وأبلى يزيد ابنه فى وقائعه هذه بلاء حسنا تقدم فيه ، وهو ابن إحدى وعشرين سنة . فلما صار القوم بفارس وجه إليهم ابنه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صبح : « أيها الأمير ليس برأيٍ قتلُ هذه الأَكْلب . ولَئِن والله قتلتَهم لتقعدُنّ فى بيتك ولكن طاوِلْهم وكُلْ بهم » . فقال : « ليس هذا من الوفاء » .

فلم يلبث برام هرمز إلا شهرا حتى أتاه موت بشر . فاضطرب الجند على ابن مخنف . فوجه إلى محمد بن إسحاق بن الأشعث وابن زحر ، واستحلفهما ألا يبرحا ، فحلفا له ولم يفيا . فجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز . وأراد أهل البصرة الانسلال من المهلب فخطبهم فقال : « إنكم لستم كأهل الكوفة ، إنما تَذُبون [1] عن مِصْرِكم وأموالكم وحُرَمكم » . فأقام منهم قوم وتسلل منهم ناس كثير . وكان خالد بن عبد الله خليفة بشر بن مروان ، فوجه مولى له بكتاب منه إلى من بالأهواز يحلف فيه بالله مجتهدا لئن لم يرجعوا إلى مراكزهم ، وانصرفوا عصاة ، لا يظفر بأحد منهم إلا قتله . فجاء مولاه فجعل يقرأ الكتاب عليهم ولا يرى فى وجوهم قبوله ، فقال : « إنى لأرى وجوها ما القبول من شأنها » . فقال له ابن زحر : « أيها العبد ، اقرأ ما

[1] تذبون : تدافعون .

فى الـكـتاب وانصـرف إلى صاحبك ، فإنك لا تدرى ما فى أنفسنا » . وجعلوا يسـتعجلونه فى قراءته ثم قصدوا قصد الـكوفة ، فنزلوا النُّخَيلة وكتبوا إلى خليفة بشـر يسألونه أن يأذن لهـم فى الدخول فأبى فدخلوها بغير إذن . فلم يزل المهلب ومن معه من قواده وابن مخنف فى عدد قليل .

فلم ينشَبوا أن ولى الحَجّاج العراق . فدخل الـكوفة قبل البصرة وذلك فى سـنة خمس وسبعين . فخطبهم وتهدّدهم . ثم نزل فقال لوجوه أهلها : « ما كانت الولاة تفعل بالعصاة ؟ » . فقال : « كانت تضرب وتحبس » فقال الحجاج: « ولكن ليس لهم عندى إلا السيف إن المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ولو سـاغت المعصية لأهلها ما قوتل عدو ، ولا جُبى فَئ ، ولا عز دين » . ثم جلس لـتوجيه الـناس ، فقال : « قد أجَّلتـكم ثلاثا ، وأقسم بالله لا يتخلف أحد من أصـحاب ابن مخنف بعدها ولا من أهل الثغور إلا قتلته » . ثم قال لصاحب حرسه وصـاحب شـرطة : « إذا مضت ثلاثة أيام فاتخذوا سيوفـكما عصيا » ، فجاءه عُمَير بن ضابئ البُرْجُمى بابنه ، فقال : « أصلح الله الأمير ، إن هذا أنفع لـكم مـنى ، هـو أشدّ بنى تميم أيْدا [1] ، وأجمعهم سلاحا ، وأربطهم جأشا ، وأنا شيخ كـبير عـليل » .واستشـهد جلساءه فقال الحجاج : « إن عذرك لَواضح ، وإن ضـعفك لَبَيِّن ، ولـكنى أكره أن يجترئ بك الناس علىّ . وبعد فأنت ابن ضابئ صـاحب عـثمان » . ثم أمـر به فقُتل . فاحتمل الناس وإن أحدهم لُيتَّبع بزاده وسلاحه . وخرج الناس عن الـكوفة .

[1] الأيـد : القـوة .

وأتـى الحجـاج البصرة فـكان عليهم أشد إلحاحا . وقد كان أتاهم خبره بالـكوفة ، فتحمل الناس قبل قدومه . فأتاه رجل من بنى يشـكر ، وكان شيخا كبيرا أعور ، وكان يجعل على عينه العوراء صُوفة ، فـكان يلقّب ذا الـكُرْسُفة . فقال : « أصلح الله الأمير ، إن بى فَتْقا ، وقد عذَرنى بشر ، وقد رددت العطاء » . فقال : « إنك عندى لصادق » . ثم أمر به فضُربت عنقه .

ويـروى عـن ابن مَيْرة قال : إنا لنتغدى معه يوما إذ جاء رجل من سليم برجل يقوده ، فقال : « أصلح الله الأمير ، إن هذا عاصٍ » . فقال له الرجـل: « أنشُدك الله أيها الأمير فى دمى . فوالله ما قبضت ديوانا قط ولا شهدت عسكرا وإنى لحائك أُخذت من تحت الحف [1] » فقال : « اضربوا عنقه » .فلما أحس بالسـيف سـجد، فلحقه السيف وهو ساجد . فأمسكنا عن الطعام . فأقبل علينا الحجاج ، فقال : « مالى أراكم صَفِرت أيدكم واصفرت وجوهكم وحَدّ نظركم [2] من قتل رجل واحد . إن العاصى يجمع خلال : يخل بمركزه ، ويعصى أميره ، ويَغُرّ المسلمين ، وهو أجير لهـم ، وإنمـا يأخذ الأجرة لما يعمل . والوالى مُخَيَّر فيه ، إن شاء قتل وإن شاء عفـا » .

ثم كـتب الحجاج إلى المهلب : « أما بعد ، فإن بشرا رحمه الله استكره نفسه عليك ، وأراك غَناءه عنك ، وأنا أريك حاجتى إليك ، فأرنى الجد فى قتال عدوك . ومَنْ خفتَه على المعصية ممن قِبَلك فاقتله ، فإنى قاتل من قِبَلى . ومن كان عندى من وَلِيِّ مَنْ هرب عنك ، فأعلمنى مـكانه ، فإنى أرى أن آخذ الولى بالولى والسَّمِى

---

[1] الحف : المنسج .

[2] صفرت : فرغت . وحد : قوى .

بالسّـــمى» . فــكتب إليه المهلب : « ليس قِبَلى إلا مطيع وإن الناس إذا خافوا العقوبـــة كبّروا الذنب ، وإذا أمنوا العقوبة صغّروا الذنب ، وإذا يئسوا من العفو أكْفَرهم ذلك . فهَبْ لى هؤلاء الذين سميتهم عصاة ، فإنما هم فرسان أبطال أرجو أن يقتل الله بهم العدو » .

فلما رأى المهلب كثرة الناس عليه ، قال : « اليوم قُوتل هذا العدو » . ولما رأى ذلك قطرى قال : « امضوا بنا نريد السَّرَدان فنتحصن فيها » . فقال عبيدة ابن هلال : « أو نأتى سابور » وخرج المهلب فى آثارهم فأتى أرَّجان . وخاف أن يكونـــوا قـــد تحصنّوا بالسّردان ، وليست بمدينة ولــكن جبال محدقة منيعة ، فلم يصب بها أحدا . فخرج نحوهم فعسكر بكازَرُون . واستعدوا لقتاله وخندق على نفسه . ثم وجه إلى عبد الرحمن بن مخف : « خندق على نفسك » . فوجـــه إليه: « خنادقـــنا سيوفنا» . فوجه إليه المهلب : « إنى لا آمن عليك البيات » . فقال ابنه جعفر : « ذاك أهون علينا من ضرطة جمل » . فأقبل المهلب على ابنه المغيرة، فقال: « لم يصيبوا الرأى ولم يأخذوا بالوثيقة » . فلما أصبح القوم غادَوْه الحرب. فـــبعث إلى ابــن مخنف يستمده فأمده بجماعة ، وجعل عليهم ابنه جعفرا . فجاءوا عـــليهم أقـــبية بيض جدد . فقاتلوا يومئذ حتى عرُف مـــكانهم . وحاربهم المهلب وأبلى بنوه يومئذ كبلاء الـــكوفيين أو أشد . ثم نظر إلى رئيس منهم يقال له صالح ابن مِخْراق ، وهو ينتخب قوما من جلّة العســـكر حتى بلغوا أربعمئة . فقال لابنه المغيرة : « ما يُعدّ هؤلاء للبيات » . وانـــكشف الخوارج والأمر للمهلب عليهم وقـــد كـــثر فيهـــم القتل والجراح . وقد كان الحجاج فى كل يوم يتفقد العصاة ، ويوجه الرجال ، فــكان يحبسهم نهارا ويفتح الحبس ليلا ، فينسل الناس إلى ناحية المهـــلب وكأنّ الحجاج لا يعلم . ثم كانت الوقعة . فلما انصرف الخوارج . قال

المهـــلب لابنه المغيرة : « إني أخاف البيات على بنى تميم » . فانهض إليهم فـــكن فيهـــم . فأتاهم المغيرة فقال له الحَريش بن هلال : « يا أبا حاتم ، أيخاف الأمير أن يؤتـــى من ناحيتنا ، قل له : فَلْيَبِتْ آمنـــا فإنا كافُوه ما قِبَلنا إنْ شاء الله » . فلما انتصـــف الـــليل وقد رجع المغيرة إلى أبيه ، سرى صالح بن مخراق فى القوم الذين أعدّهم إلى ناحية بنى تميم . فوجد بنى تميم أيقاظا متحارسين . فخرج إليهم الحريش ابن هلال . ثم حمل على القوم فرجعوا عنه . فاتبعهم وصاح بهم : « إلى أيـــــــن يـــا كـــلاب النار ؟ » فقالوا : « إنمـــا أُعِدّت النار لك ولأصحابك » . فقال الحـــريش: « كـــــل ممـــلوك لى حر إنْ لم تدخلوا النار إن دخلها مجوسى فيما بين سفَوَان وخراسان » .

ثم قـــال بعضهم لبعض : « نأتى عسكر ابن مخنف فإنه لا خندق عليهم وقد تعـــب فرسانهم اليوم مع المهلب ، وقد زعموا أنا أهون عليهم من ضرطة جمل » . فـــأتوهم فلم يشعر ابن مخنف وأصحابه بهم إلا وقد خالطوهم فى عسكرهم ، وكان ابن مخنف شريفا . فترجل عبد الرحمن بن مخنف فجالدهم فقُتل . وقُتل معه سبعون من القراء ، فيهم نفر من أصحاب على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، ونفر من أصـــحاب ابـــن مسعود . وبلغ الخبر المهلب وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف عند المهـــلب . فجاءهم مُغيثا فقاتلهم حتى ارْتُثّ [1] وصُرِع . ووجه المهلب إليهم ابنه حبيبا فـــكشفهم . ثم جاء المهلب حتى صلى على ابن مخنف وأصحابه رحمهم الله . وصـــار جـــنده فى جند المهلب ، فضمهم إلى ابنه حبيب ، فعيرهم البصريون فقال رجل لجعفر بن عبد الرحمن :

تركتَ أصحابنا تَدْمَى نحورهمُ　　　وجئتَ تسعى إلينا خَصْفة الجمَل

---

[1] ارتث : صرع وقد جرح .

قوله : خضفة الجمل : يريد ضرطة الجمل .

فلامهـــم المهلب وقال : « بئسما قلتم ، والله ما فروا ولا جبنوا ولـــكنهم خـــالفوا أميرهم . أفلا تذكرون فراركم يوم دُولاب ، وفراركم بدارسَ عن عثمان وفراركم عنى ؟ » .

ووجه الحجاج البَراء بن قَبيصة إلى المهلب يستحثه فى مناجزة القوم . وكتب إليه : « إنك لتحب بقاءهم لتأكل بهم » فقال المهلب لأصحابه : « حَرِّكوهم » . فخرج فرسان من أصحابه إليهم . فخرج إليهم من الخوارج جمع فاقتتلوا إلى الليل فقـــال لهـــم الخوارج : « ويلـــكم أمَا تَمَلّون ؟ » فقالوا : « لا حتى تملوا » . قـــالوا : « فمن أنتم ؟ » قالوا : « تميم » . قالت الخوارج : « ونحن بنو تميم » . فـــلما أمســـوا افترقوا . فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلب ، وخرج إليهـــم عشـــرة مـــن الخوارج فاحتفر كل واحد منهم حَفيرة وأثبت قدمه فيها . فـــكلما قُتل رجل جاء رجل من أصحابه فاجتره ووقف مـــكانه حتى أَعْتَمُوا[1] . فقـــال لهم الخوارج : « ارجعوا » فقالوا : « بل ارجعوا أنتم » . فقالـــوا : « ويـــــلكم مـــن أنتم ؟ » فقالوا : « تميم » .قالوا : « ونحن تميم » . فـــرجع البراء بن قبيصة إلى الحجاج ، فقال له: « مَهْ ؟ » قال: « رأيت قوما لا يعـــين عـــليهم إلا الله » وكتب إليه المهلب : « إنى منتظر بهم إحدى ثـــلاث : موت ذَريـــع أو جوع مضر أو اختلاف من أهوائهم » .

---

[1] أعتموا : دخلوا فى العتمة ، أى الظـــــلام .

وكان المهلب لا يتكل فى الحراسة على أحد ، كان يتولى ذلك بنفسه ، ويستعين بولده وبمن يحل محلهم فى الثقة عنده . ومطرت السماء ليلة مطرا شديدا وهم بسابور ، وبين المهلب وبين الشُّراة عقبة . فقال المهلب : « من يكفينا هذه العقبة الليلة ؟ » فلم يقم أحد . فلبس المهلب سلاحه ، وقام إلى العقبة واتبعه ابنه المغيرة . فقال رجل من أصحابه يقال له عبد الله : « دعانا الأمير إلى ضبط العقبة والحظ فى ذلك لنا فلم نطعه » . فلبس سلاحه واتبعه جماعة من أهل العسكر ، فصاروا إليه ، فإذا المهلب والمغيرة لا ثالث لهما . فقالوا : « انصرف أيها الأمير فنحن نكفيك إن شاء الله » . فلما أصبحوا إذا بالشراة على العقبة . فخرج إليهم غلام من أهل عمان على فرس . فجعل يحمل وفرسه يَزْلَق . وتلقاه مدرك بن المهلب فى جماعة معه حتى ردهم .

فلما كان يوم النَّحْر ، والمهلب على المنبر يخطب الناس ، إذا الشراة قد تألبوا. فقال المهلب : «سبحان الله ! أفى مثل هذا اليوم ؟ يا مغيرة أكفنيهم » فخرج إليهم المغيرة بن المهلب وأمامه سعد بن نَجَد القُردوسى ، وكان سعد شجاعا متقدما فى شجاعته . وكان المهلب إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجبته قال له : « لو كنت سعد بن نجد القردوسى ما عدا » . فخرج أمام المغيرة جماعة من فرسان المهلب فالتقوا وأمام الخوارج غلام جامع السلاح ، مديد القامة ، كريه الوجه ، شديد الحملة ، صحيح الفروسية . فأقبل يحمل على الناس . فخرج إليه سعد بن نجد القردوسى من الأزد . ثم تجاولا ساعة فطعنه سعد فقتله . والتقى الناس فصُرع يومئذ المغيرة . فحامى عليه سعد بن نجد ، وذبيان السِّخْتِيانى ، وجماعة من الفرسان حتى ركب . وانكشف الناس عند سقطة المغيرة حتى صاروا إلى أبيه المهلب ، فقالوا : « قُتل المغيرة » . ثم أتاه ذبيان السختيانى فأخبره

بسلامته . فأعتق كل مملوك كان بحضرته . ثم ناهضهم ثلاثة أيام يُغاديهم القتال ولا يزالون كذلك إلى العصر . وينصرف أصحابه وبهم قَرْح وبالخوارج قرح وقَتْل .

وكانت رُكُب [1] الناس قديما من الخشب . فكان الرجلُ يضرب ركابه فينقطع . فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمد . فأمر المهلب فضُربت الرُّكب من الحديد . وهو أول من أمر بطَبْعها .

وكتب الحجاج إلى عَتَّاب بن وَرْقاء الرِّياحى وهو والى أصبهان يأمره بالمسير إلى المهلب ، وأن يضم إليه جند عبد الرحمن بن مخنف ، فكل بلد تدخلانه من فتوح أهل البصرة فالمهلب أمير الجماعة فيه ، وأنت على أهل الكوفة . فإذا دخلتما بلدا فَتَحه لأهل الكوفة فأنت أمير الجماعة ، والمهلب على أهل البصرة . فقدم عتاب فى إحدى جُمادَيَيْن من سنة ست وسبعين على المهلب ، وهو بسابور ، وهى من فتوح أهل البصرة . فكان المهلب أمير الناس ، وعتاب على أصحاب ابن مخنف ، والخوارج فى أيديهم كِرْمان وهم بإزاء المهلب بفارس يحاربونه من جميع النواحى . فوجه الحجاج إلى المهلب رجلين يستحثانه مناجزة القوم ، أحدهما يقال له زياد بن عبد الرحمن من بنى عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبى عقيل جد الحجاج . فضم زيادا إلى ابنه حبيب ، وضم الثقفى إلى يزيد ابنه ، وقال لهما : «خذا يزيد وحبيبا بالمناجزة» . فغادوا الخوارج فاقتتلوا أشد قتال . فقُتل زياد بن عبد الرحمن ، وفقُد الثقفى . ثم باكروهم فى اليوم الثانى ، وقد وُجد الثقفى فدعا به المهلب ، ودعا بالغذاء ، فجعل النَّبْل يقع قريبا منهم ، والثقفى يعجب من أمر المهلب .

---

[1] الركب : جمع ركاب ، وهو ما يعلق فى السرج فيجعل فيه الراكب قدمه .

فـلم يزل عتاب بن ورقاء مع المهلب ثمانية أشهر حتى ظهر شبيب . فكتب الحجـاج إلى عـتاب يأمره بالمصير إليه ليوجهه إلى شبيب . وكتب إلى المهلب بأن يـرزق الجند . فرزق المهلب أهل البصرة ، وأبى أن يرزق أهل الـكوفة . فقال له عـتاب : «ما أنا ببارح حتى ترزق أهل الـكوفة» . فأبى فجرت بينهما غلظة فقال عتاب : «قد كان يبلغنى أنك شجاع فرايتك جبانا، وكان يبلغنى أنك جواد فرأيتك بخيـلا» . فقال له المهلب : «يا ابن اللّخناء [1] » . فقال له عتاب : «لـكنك مُعَمٌّ مُخْـوَل [2] » . فغضبت بكر بن وائل للمهلب للحلف . ووثب ابن نعيُم بن هُبيرة ابـن أخى مصقلة على عتاب فشتمه . وقد كان المهلب كارها للحلف. فلما رأى نُصـرة بكـر بـن وائل له سَرَّه الحلف واغتبط به ولم يزل يؤكده ، فغضبت تميم البصـرة لعَـتاب . وغضـبت أزد الـكوفة للمهلب . فلما رأى ذلك المغيرة بن المهـلب مشى بين أبيه وبين عتاب ، فقال لعتاب : «يا أبا ورقاء ، إن الأمير يصير لك إلى كل ما تحب» . وسأل أباه أن يرزق أهل الـكوفة فأجابه . فصلح الأمر . فـكـانت تميم قاطبة وعتاب بن ورقاء يحمدَون المغيرة بن المهلب ، وقال عتاب : «إنى لأعـرف فضله على أبيه» . فشخص عتاب بن ورقاء إلى الحجاج فى سنة سبع وسبعين فوجهه إلى شبيب فقتله شبيب.

وأقـام المهلب على حربهم . فلما انقضى من مقامه ثمانية عشر شهرا اختلفوا وكان سبب اختلافهم أن رجلا حـدادا من الأزارقه كان يعمل نصالا مسمومة ، فيرمـى بهـا أصحاب المهلب . فُرِفع ذلك على المهلب ، فقال : «أناَ أكْفِكموه إن شـاء الله» . فوجـه رجـلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسـكر قطرى

---

[1] اللخنـاء : النتنـة .

[2] معم مخول : شريف الأعمام والأخوال . يهزأ به .

«ألق هذا الكتاب فى عسكر قطرى ، واحذر على نفسك». وكان الحداد يقال له أبزَى . فمضى الرسول . وكان فى الكتاب : «أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلىّ ، وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها ، وزِدْنا من هذه النصال» فوقع الكتاب والدراهم إلى قطرى . فدعا بأبزى فقال : «ما هذا الكتاب؟» قال : «لا أدرى» قال : «فهذه الدراهم» . قال : «ما أعلم علمها» . فأمر به فقُتل. فجاءه عبد ربه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة ، فقال له: «أقتلت رجلا على غير ثقة ولا تبين ؟» فقال له : «ما حال هذه الدراهم ؟ » فقال : «يجوز أن يكون أمرها كذبا ويجوز أن يكون حقا» . فقال له قطرى : «قتل رجل فى سلاح الناس غير منكر . وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحا ، وليس للرعية أن تعترض عليه». فتنكر له عبد ربه فى جماعة ولم يفارقوه .

فبلغ ذلك المهلب فدس إليه رجلا نصرانيا ، فقال له : «إذا رأيت قطريا فاسجد له . فإذا نهاك فقُل : إنما سجدت لك» . ففعل النصرانى فقال له قطرى: «إنما السجود لله» فقال : «ما سجدت إلا لك» . فقال له رجل من الخوارج : «قد عبدك من دون الله» . وتلا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ فقال قطرى : «إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم ، فما ضر ذلك عيسى شيئا» . فقام رجل من الخوارج إلى النصرانى فقتله . فأنكر ذلك عليه وقال : «أقتلتَ ذمِّيا ؟» فاختلفت الكلمة .

فبلغ ذلك المهلب فوجه إليهم رجلا يسألهم عن شيء تقدم به إليه . فأتاهم الرجل فقال : «أرايتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم . فمات أحدهما فى الطريق، وبلغكم الآخر فامتحنتموه فلم يَجُز المحنة ، ما تقولون فيهما ؟» فقال بعضهم:

«أمـا الميـت فمؤمـن من أهل الجنة ، وأما الآخر الذى لم يجز المحنة فـكافر حتى يجيزها» . وقال قوم آخرون : «بل هما كافران حتى يجيزا المحنة» .

فـكثر الاختلاف فخرج قطرى إلى حدود إصْطَخْر . فأقام شهرا والقوم فى اخـتلافهم . ثم أقـبل فقـال لهم صالح بن مخراق: «ياقوم إنـكم قد أقررتم أعْيُن عدوكـم ، وأطمعتموهم فيكم ، لـما ظهر من اختلافـكم . فعُودوا إلى سلامة القـلوب واجتماع الـكلمة» . وخرج عمرو القَنا فنادى : «يا أيها المُحِلُّون هل لـكم فى الطراد فقد طال العهد به ؟» ثم قـال :

ألم تر أنا مـذ ثلاثـون ليلةً قريبٌ وأعداءُ الـكتاب على خَفْضِ

فتهايج القوم وأسرع بعضهم إلى بعض . فأبلى يومئذ المغيرة بن المهلب وصار فى وسط الأزارقة. فجعلت الرماح تحُطّه وترفعه ، واعتورت رأسه السيوف ، وعليه سـاعد حديـد . فوضـع يـده على رأسه فجعلت السيوف لا تعمل فيه شيئا . واسـتنقذه فرسان من الأزد بعد أن صُرع فقال رجل للمغيرة : «كنا نعجب كيف تُصْـرع والآن نعجب كيف تنجو» وقال المهلب لبنيه : «إن سَرْحـكم لَغارّ [1]، ولسـتُ آمنُهم عليه ، أفَوَكّلتم به أحد ؟» قالوا : «لا» . فلم يستتم الـكلام حتى أتـاه آت فقـال : «إن صالح بن مخراق قد أغار على السرح» . فشق ذلك على المهـلب، وقال : «كل أمر لا أليه بنفسى ضائع» وتذمر عليهم . فقال له بشر ابن المغيرة : «أرِحْ نفسك فإن كنت إنمـا تريد مثلك فو الله لا يَعْدِل أحدنـا شِسْع[2] نعلك» فقال : «خذوا عليهم الطريق» . فثار بشر بن المغيرة ومدرك والمفضل ابنا

(١) السرح : الماشية . والغار : الغافل .

(٢) شسع النعل : زمامها التى بين الإصبع الوسطى والتى تليها .

المهـــلب. فسبق بشر إلى الطريق فإذا رجل أسود من الأزارقة يُشل السرح ، أى يطـــرده . ولحقـــه المفضل ومدرك فصاحا برجل من طيء : «أكفنا الأســـود» . فاعـــتوره الطـــائى وبشـــر بن المغيرة فقتلاه ، وأسرا رجلا من الأزارقة . فقال له المهـــلب: «ممـــن الرجل ؟» قال : «من همْدان» قال : «إنك لَشَيْن همدان» وخلى سبيله .

وكـــان عَيّاش الـــكندى شجاعا بئيسا فأبلى يومئذ ثم مات على فراشه بعد ذلـــك . فقـــال المهـــلب : «لا وألت [1] نفس الجبان بعد عياش» وقال المهلب : «مارأيت كهؤلاء كلما ينقص منهم يزيد فيهم» .

ووجـــه الحجـــاج إلى المهـــلب رجلين أحدهما من كلب والآخر من سليم يستحثانه بالقتال . فقال ليزيد : « حركهم » . فحركهم فتهايجوا . وذلك فى قرية إصـــطخر فحمـــل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب فطعنه فشك فخذه بالسّرج . وحمل يزيد عليهم وقد جاء الرُّقاد ، وهو من فرسان المهلب، وهو أحد بنى مالك بن ربيعة على فرس له أدهم [2] ، وبه نَيِّف [3] وعشرون جراحة ، وقـــد وضع عليها القطن . فلما حمل يزيد ولّى الجمع وحماهم فارسان . فقال يزيد لقيس الخُشَنى مولى العَتيك : « مَنْ هذين ؟ » قال : « أنا » . فحمل عليهما فعطف عليه أحدهما فطعنه قيس الخُشَنى فصرعه ، وحمل عليه الآخر فعانقه فسقطا جميعا إلى الأرض فصـــاح قيـــس الخُشَنى : « اقتلونا جميعا » . فحملت خيل هؤلاء وخيـــل

[1] وأل : نجـــــــا .
[2] أدهـــــم : أســـــود .
[3] نيف : زيـــــادة .

هؤلاء ، فحجزوا بينهما فإذا معانقه امرأة . فقام قيس مستحييا . فقال له يزيد : « أما أنت فبارزتها على أنها رجل » . فقال : « أرأيت لو قُتلت أما كان يُقال قتلته امرأة ؟ » وأبلى يومئذ ابن المُنجب السَّدوسي، فقال له غلام له يقال له خِلاج : « والله لوددنا أنا فضضنا عسكرهم حتى أصير إلى مستقرهم فأستلب مما هناك جاريتين » : فقال له مولاه : « وكيف تمنيت اثنتين » . قال : « لأعطيك إحداهما وآخذ الأخرى » .

فكتب المهلب إلى الحجاج يسأله أن يتجافى [1] له عن إصطَخر ودَرابَجَرْد لأرزاق الجند . ففعل . وكان قطرى هدم مدينة إصطخر لأن أهلها كانوا يكاتبون المهلب بأخباره. وأراد مثل ذلك بمدينة نَسَا فاشتراها منه آزاذَ مرْد بن الهرْبذ بمائة ألف درهم فلم يهدمها . فواقعه المهلب فهزمه ونفاه إلى كرمان . وأتبعه ابنه المغيرة ، وقد كان دفع إليه سيفا وجه به الحجاج إلى المهلب ، وأقسم عليه أن يتقلده . فدفعه إلى المغيرة بعد ما تقلد به فرجع به المغيرة إليه وقد دمّاه . فسُرَّ المهلب بذلك ، وقال : « ما يسرني أن أكون كنت دفعته إلى غيرك من ولدى اكفني جباية خراج هاتين الكورتين » . وضم إليه الرُّقاد فجعلا يجبيان وحاربهم المهلب بالسِّيرَجان حتى نفاهم عنها إلى جيرُفْت واتبعهم فنزل قريبا منهم .

واختلفت كلمتهم . وكان سبب ذلك أن قطريا كان قد استعمل رجلا من الدهاقين [2] ، فظهرت له أموال كثيرة . فأتوا قطريا ، فقالوا : « إن عمر بن الخطاب لم يكن يُقارُّ عماله على مثل هذا » . فقال قطرى : « إني استعملته وله

---

[1] يتجافى : يتجاوز .

[2] الدهاقين : جمع دهقان وهو رئيس الإقليم .

ضـياع وتجـارات » . فأوغـر ذلك صدورهم . وبلغ ذلك المهلب فقال : « إن اختلافهم أشد عليهم مني » .

وقـالوا لقطـري : « ألا تخرج إلى عدونا » . فقال : « لا » . ثم خرج . فقالوا: « قد كذب وارتد » . فاتبعوه يوما ، فأحس بالشر فدخل دارا . فمر جماعة من أصحابه فصـاحوا به : « يادابّة اخرج إلينـا » فخرج إليهم فقال : « رجعـتم بعدى كفارا » فقالوا : « ألست دابة ، قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّـةٍ فِـي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ لـكنك قد كفرت بقولك : إنا قد رجعنا كفـارا ، فـتب إلى الله عز وجل » . فشاور عبيد الله فقال : « إن تبت لم يقبلوا منك، ولـكن قل : إنمـا استفهمت فقلت : أرجعتم بعدى كفارا » . فقال ذلك لهـم فقبلوه منه . فرجع إلى منزله .

وعـزم أن يبايع المُقَعْطَر العَبْدى فـكرهه القوم وأبوه . فقال لـه صالح بن مخراق عنه وعن القوم : « ابغ لنا غير المقعطر » . فقال قطرى : « أرى طول العهد قـد غيركـم ، وأنتم بصدد عدوكم فاتقوا الله ، وأقبلوا على شأنـكم واستعدوا لـلقاء القوم » . فقال له صالح بن مخراق : «إن الناس قبلنا ساموا عثمان بن عفان أن يعـزل عـنهم سـعيد بن العاص ففعل . ويجب على الإمام أن يعفى الرعية مما كـرهت » فـأبى قطـرى أن يعزله . فقال القوم : « إنا خلعناك وولينا عبد ربه الصـغير » . فانفصل إلى عبد ربه أكثر من الشطر ، وجُلُّهم الموالى والعجم. وكان هناك منهم ثمانية آلاف وهم القراء . ثم ندم صالح بن مخراق فقال لقطرى : « هذه نفحة من نفحات الشيطان فاعفنا من المقعطر ، وسر بنا إلى عدوك » . فأبى قطرى إلا المقعطر . فحمل فتى من العرب على صالح بن مخراق فطعنه فأنفذه وأجرَّه الرمح فقتله .

فنشبت الحرب بينهم فتهايجوا ثم انحاز كل قوم إلى صاحبهم . فلما كان الغد اجـتمعوا فاقتتـلوا قتـالا شديدا فجَلت الحرب عن ألفى قتيل. فلما كان الغد باكـروهم القـتال . فلم ينتصف النهار حتى أخرجت العجم العرب من المدينة ، وأقـام عـبد ربـه بها ، وصار قطرى خارجا من مدينة جيرُفت بإزائهم . فقال له عـبيدة: « يا أمير المؤمنين ، إنْ أقمتَ لم آمن هذه العبيد عليك إلا أن تخندق » . فخندق على باب المدينة وجعل يناوشهم .

وارتحل المهلب فـكان منهم على ليلة ورسول الحجاج معه يستحثه . فقال لـه : « أصـلح الله الأمير ، عاجلهم قبل أن يصطلحوا » . فقال المهلب : إنهم لن يصـطلحوا ، ولـكن دعهم فإنهم سيصيرون إلى حال لا يفلحون معها » ثم دس رجـلا مـن أصحابه ، فقال : « ائت عسكر قطرى فقل : إنى لم أزل أرى قطريا يصيب الرأى حتى نزله منزله هذا فبان خطؤه . أتقيم بين المهلب وعبد ربه ، يغاديه هذا القتال ويراوحه هذا » فنمى الـكلام إلى قطرى . فقال : « صدق ، تنحَّوا بـنا عـن هذا الموضع . فإن اتبعنا المهلب قاتلناه ، وإن أقام عبد ربه رأيتم فيه ما تحـبون » . فقال له الصلت بن مرة : « يا أمير المؤمنين ، إن كنت تريد الله فأَقْدِم عـلى القوم ، وإن كنت تريد الدنيا فأَعْلِم أصحـابك حتى يستأمنوا » . ثم قال : « أصبح المهلب يرجونا ما كنا نطمع فيه منه » . فارتحل قطرى .

وبلغ ذلك المهلب فقال لهُـرَيم بن عدى بن أبى طَحْمة المُجَاشعى : « إنى لا آمـن أن يكون قطرى كادنا بترك موضعه ، فاذهب فتعرَّف الخبر » . فمضى هريم فى اثـنى عشـر فارسا فلم ير فى العسكر إلا عبدا وعِلْجا[1] . فسألهما عن قطرى

[1] العلج : الضخم القوى من الكفار .

وأصحابه فقالا : « مضوا يرتادون غير هذا المنزل » . فرجع هريم إلى المهلب فأخبره . فارتحل المهلب حتى نزل خندق قطرى فجعل يقاتلهم أحيانا بالغداة وأحيانا بالعشى. ووجه المهلب يزيد إلى الحجاج يخبره أنه قد نزل منزل قطرى ، وأنه مقيم على عبد ربه ، ويسأله أن يوجه فى أثر قطرى رجلا جلدا فى جيش. فسرَّ ذلك الحجاج سرورا أظهره ثم كتب إلى المهلب يستحثه مع عُبَيد بن مَوْهَب . فكانوا يتغادَوْن ويتراوحون فتصيبهم الجراح . ثم يتحاجزون كأنما انصرفوا من مجلس كانوا يتحدثون فيه فيضحك بعضهم إلى بعض . فقال عبيد بن موهب للمهلب : « قد بان عذرك وأنا مخبر الأمير » .

ولما اشتد الحصار على عبد ربه قال لأصحابه : « لا تفتقروا إلى من ذهب عنكم من الرجال ، فإن المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صح توحيده عز بربه وقد أراحكم الله من غلظة قطرى وعَجَلة صالح بن مخراق ونَخْوته، واختلاط عبيدة بن هلال ، ووكَلَكم إلى بصائركم فالقوا عدوكم بصبر ونية .. وانتقلوا عن منزلكم هذا ، من قتل منكم قتل شهيدا ، ومن سلم من القتل فهو المحروم » .

وقدم فى هذا الوقت على المهلب عُبَيد بن أبى ربيعة بن أبى الصَّلْت الثَّقَفى يستحثه بالقتال ، ومعه أمينان فقال له : « خالفتَ وصية الأمير ، وآثرت المدافعة والمطاولة » . فقال لهم المهلب : « ما تركتُ جهدا » . فلما كان العشى خرج الأزارقة وقد حملوا حرَمهم وأموالهم وخِفَّ متاعهم لينتقلوا . فقال المهلب لأصحابه : « الزموا مَصافَّكم وأشرعوا رماحكم ودعوهم والذهاب » . فقال له عبيد : «هذا لَعَمْرى أيسر عليك » . فقال للناس : « ردُّوهم عن وجهتهم » . وقال لبنيه : « تفرقوا فى الناس » . وقال لعبيد بن أبى ربيعة : « كن مع يزيد

فخذْه بالمحاربة أشد الأخذ » . وقال لأحد الأمينين : «كن مع المغيرة ولا ترخص له فى الفتور » . فاقتتلوا قتالا شديدا حتى عُقرت الدواب وصُرع الفرسان ، وقتلت الرجال . فجعلت الخوارج تقاتل على القدح يؤخذ منها والسوط والعِلْق [1] الخسيس أشد قتال . وسقط رمح لرجل من مراد من الخوارج فقاتلوا عليه حتى كثر الجِراح والقتل وذلك مع المغرب . فلما عظم الخطب فيه بعث المهلب إلى المغيرة : « خَلِّ عن الرمح عليهم لعنهم الله » فخلوا لهم عنه . ثم مضت الخوارج حتى نزلوا على أربعة فراسخ من جيرفت . ودخلها المهلب وأمر بجمع ما كان لهم فيها من المتاع ، وما خلفوه من رقيق وختم عليه هو والثقفى والأمينان .

ثم اتبعهم فإذا هم قد نزلوا على عين لا يشرب منها إلا قوى ، يأتى الرجل بالدلو قد شدها فى طرف رمحه فيستقى بها ، وهناك قرية فيها أهلها . فغاداهم القتال وضم الثقفى إلى يزيد ، وأحد الأمينين إلى المغيرة . واقتتل القوم إلى نصف النهار فقال المهلب لأبى علقمة العبدى ، وكان شجاعا عاتيا : « أمدد بخيل اليَحْمَد، وقل لهم : فليعيرونا جماجمهم ساعة » فقال له : « إن جماجمهم ليست بفَخَّار فتُعار ، وليست أعناقهم كَرادِى [2] فتنبت » . وقال لمعن بن المغيرة بن أبى صفرة : « احمل » فقال : « لا إلا أن تزوجنى أم مالك بنت المهلب » . ففعل فحمل على القوم فكشفهم .

ثم جال الناس جولة عند حملة حملها عليهم الخوارج . فالتفت عند ذلك المهلب إلى المغيرة فقال : « ما فعل الأمين الذى كان معك » قال : « قتل » .

(1) العلق : الجراب .
(2) الكرادى : أعذاق النخل .

وكـــان الثقفى قد هرب وقال ليزيد : « ما فعل عبيد بن أبى ربيعة ؟ » قـــال : « لم أره منذ كانت الجولة » . فقال الأمين الآخر للمغيرة: « أنت قتلت صاحبى » فلما كان العشى رجع الثقفى . وقال المهلب للأمين الآخر : « ينبغى أن تتوجه مع ابنى حبيب فى ألف رجل حتى تُبَيِّتوا عسكرهم » . فقال : « ما تريد أيها الأمير إلا أن تقتـــلنى كمـــا قتلت صاحبى » . قال : « ذاك إليك » . وضحك المهلب ولم تـــكن لـــلقوم خنادق . فـــكان كلٌّ حذرا من صاحبه غير أن الطعام والعدة مع المهلب ، وهم فى زهاء ثلاثين ألفا .

فمـــكثوا أياما على غير خنـــادق يتحارسون ودوابهم مُسْرَجة . فلم يزالوا على ذلك حتى ضعف الفريقان فلما كانت الليلة التى قُتل فى صبيحتها عبد ربه جمع أصـــحابه وقـــال : « يا معشر المهاجرين إن قطريا وعبيدة هربا طلب البقاء ولا ســـبيل إليه فالقوا عدوكم . فإنْ غلبوكم على الحياة فلا يَغْلُبنَّكم على الموت فتلقوا الـــرماح بنحوركم والسيوف بوجوهكم . وهبوا أنفسكم لله فى الدنيا يَهَبها لـــكم فى الآخـــرة » . فـــلما أصبحوا غادوا المهلب فقاتلوه قتالا شديدا نسى به ما كان قبله. فقال رجل من الأزد وغيرهم ، فصُرع بعضهم ، وقُتل بعض ، وجُرح بعض . وقال عبد الله بن رِزام الحارثى لأصحاب المهلب : « احملوا » . فقـــــال المهلب : « أعـــرابى مجنون » وكان من أهل نجران . فحمل وحده فاخترق القوم حتى نَجَم[1] مـــن ناحيـــة أخرى ثم رجع ثم كر ثانية ففعل فعلته الأولى وتمايج الناس فترجلت الخوارج وعقروا دوابهم . فناداهم عمرو القنا ، ولم يترحل هو وأصحابه من العرب وكـــانوا زهاء أربعمئة : « موتوا على ظهور دوابكم ولا تعقروها » . فقالوا إذا كنـــــا على الدواب ذكرنا الفرار . فاقتتلوا . ونادى المهلب بأصحابـــــه :

---

[1] نجـــــم : طلع .

« الأرض ! الأرض ! » وقال لبنيه : « تفرقوا فى الناس ليرو وجوهكم » . ونادى الخوارج : « ألا إن العيال لمن غلب » فصبر بنو المهلب . وصبر يزيد بين يدى أبيه وقاتل قتالا شديدا أبلى فيه . فقال له أبوه : « يابنى ، إنى أرى موطنا لا ينجو فيه إلا من صبر وما مر بى يوم مثل هذا منذ مارست الحرب » . وكسرت الخوارج أجفان سيوفها . وتجاولوا فأَجلت جولتهم عن عبد ربه مقتولا . فهرب عمرو القنا وأصحابه ، واستأمن قوم وأجلت الحروب عن أربعة آلاف قتيل وجرحى كثير من الخوارج . فأمر المهلب بأن يدُفع كل جريح إلى عشيرته . وظفر بعسكرهم فَحَوى ما فيه ثم انصرف إلى جيرفت فقال : « الحمد لله الذى ردنا على الخَفْض والدَّعة ، فما كان عيشنا بعيش » .

وقدم المهلب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر إكرامه وبره ، وقال : « يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب » .

المختار من التعازى والمراثى

قيـــل إنـــه لم يقـــل فى شىء قط كما قيل فى التعازى والمراثى لأن الناس لا ينفأكون من المصائب ، ومن لم يشـــكل [1] أخاه ثـــكله أخوه ، ومن لم يعدم نفيسا كان عو المعدوم دون النفيس. وحق الإنسان الصبر على النوائب ، إذ كانت الدنيا دار فراق ودار بوار لا دار استواء. وعلى فراق المألوف حرقة لا تُدفَع ولوهـــــة لا تـــرد . وإنمـــا يتفاضـــل الناس بصحة الفـــكر ، وحسن العزاء ، والرغبة فى الآخـــرة ، وجميل الذكر . فقد قال أبو خِراش الهذُلَى ، وهو أحد حُـــكماء العرب يذكر أخاه عروة بن مـــُرة :

تقول أراه بعد عروة لا هيـــــا ... وذلك رزْءٌ لـــــو علمتِ جليل

فى تحسَبى أنى تناسيتُ عهـــــــده ... ولـــكن صبرى يا أُمَيْمَ جميـــــل

وكـــان يقال : من حدث نفسه بالبقاء ولم يوطنها[2] على المصائب ، فعاجز الرأى .

وعـــزى رجل رجلا من ابنه فقال : « أكان يغيب عنك ؟ » قال : «كانت غيبـــته أكثر من حضوره » . قال : «فأنزِلْه غائبا عنك فإنه إن لم يَقْدَم عليك قدمتَ عليه » .

---

(١) يشـــــكل : يفقــــــد .

(٢) يوطنهـــــا : يذللهـــــا .

وقال إبراهيم بن المهدى يذكر ابنـــــه :

وإنى وإنْ قُدِّمتَ قبلى لعَـالـمٌ	بأنى وإنْ أبطأتُ منــك قريب
وإن صباحا نلتقى فى مســائه	صباح إلى قلبى الغــداةَ حَبيب

وحُدِّثــت أن عمــر بن عبد العزيز لمــا مات ابنه عبد الملك ، خطب الناس فقال :

« الحمــد لله الــذى جعــل الموت حتما واجبا على عباده . فَسوَّى فيه بين ضعيفهم وقويهم ،ورفيعهم ودنيهم ، فقال تبارك وتعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ فليعــلم ذوو النهى منهم أنهم صائرون إلى قبورهم مُفَردون بأعمالهم ، واعلموا أن لله مسألة فاحصة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وحُدِّثت أن عمر بن الخطاب لمَا ولَّى كعب بن سُور الأزدى قضاء البصرة ، أقام عاملا له عليها إلى أن استُشهد، على أنه كان قد عزله ثم رده . فلما قام عثمان ابــن عفان أقره . فلما كان يوم الجمل خرج مع إخوة لـــه قالوا : ثلاثة ، وقالوا : أربعة، وفى عنقه مصحف فقُتلوا جميعا . فجاءت أمهم حتى وقفت عليهم فقالت :

يا عينُ جُودى بدمــــع سَــرِبْ	على فتية من خيـــار العَربْ
وماهـــمُ غيرَ حَينِ النفــــو	سِ أىُّ أميرَىْ قريـــشٍ غَلب

وذكر بعض الرواة أن عبيد الله بن العباس ، وكان عاملا لعلى بن أبى طالب عــلى اليمن فشخص إلى على واستخلف على اليمن عمر بن أراكة الثَّقفى . فوجه معاويـــة إلى اليمن ونواحيها بُسْر بن أرْطاة أحد بنى عامر بن لؤى فقتـــل عمرو بن

أراكــة . وأُرشد بُسْر عن ابنين لعبيد الله بن العباس وهما طفلان ، وأمهما من بنى الحارث بن كعب فوارتهما ، فيقال : إنه أخذهما من تحت ذيلها فقتلهما . ففى ذلك تقول الحارثية :

يا مَنْ أحَسَّ بُنيَّيَّ اللذين همــــا	كالدُّرَّتيْنِ تشَظَّى عنهما الصدف
يا من أحس بنيى اللذين همــــا	سَمْعِى وطَرْفى فطرفى اليوم مُخْتَطَف
يا من أحس بنيى اللذين همــــا	مخ العظام فمخى اليوم مُزْدَهف
نُبِّئْتُ بُسْرا وما صَدَّقتُ ما زعموا	من قولهم ومن الإفك الذى اقترفوا
أنْحَى على وَدَجَىْ طفلىّ مُرْهفَــة	مشحوذة وعظيمُ الإفك يقتَرَف
من دَلَّ والهــةً حرَّى مفجَّعــــة	على صبيين غابا إذ مضى السلف[1]

وقال رجل من المحْدَثين فى ابنين لعبد الله بن طاهر أصيبا فى يوم واحد ، وهما طفــلان ، شــبيها بهذا . ولــكنه اعتذر فحسن قوله وصح معناه باعتذاره، وهو الطائى :

لَهْفِى على تلك الشــــواهد فيهما	لو أُمهلتْ حتى تــــكون شمائلا
إن الهــلال إذا رأيتَ نمــــوَّه	أيقنت أن سيكون بدرا كــاملا

وقال جَرير :

لولا الحيــــاءُ لهــاجنى استعبارُ	ولَزرت قبرك والحبيب يــــزارُ
نِعْمَ الخليل وكنتِ علِقَ مضنَّـــةٍ	ولدىَّ منك سكينةٌ ووقــار[2]

(1) تشظى : انشق . ومزدهف : قد ذُهِب به . والإفك : الــكذب . والودج : عرق فى العنق.

لنْ يَلبثَ القرناء أن يتفرقـــوا ليل يَـكر عليهم ونهـــار
صلى الملائـــكة الذين تُخيروا والصالحون عليك والأبـــرار

وقال عقيل بن علفة المرى من غطفان :

لعمرى لقد جاءت قوافـلُ خَبّرت بأمر من الدنيا علىّ ثقيـــل
وقالوا ألا تبـكى لمصرع هـالك أصاب سبيلَ الله خيرَ سـبيل
كأن المنـايا تبتغى فى خيارنـــا لهـا تِرةً أو تهتدى بدليـــل [1]
لتأت المنايـا حيث شاءت فإنهـا مُحلّلة بعـد الفتَى ابن عقيـــل
فتى كـــان مولاه يَحُلُّ بنَجْوَةٍ فحل الموالى بعـــده بمسيل

والمصـائب مـا عظم منها وماصغر تقع على ضربين ، فالحزم التسلى عمالا يُغـنى الغم فيه ، والاحتيال لدفع ما يُدفَع بالحيلة . ومن أحسن القول فى هذا المعنى فى الإسلام قول على بن الحسين بن أبى طالب عليهم السلام ، حيت مات ابنه فلم يُـر منه جزع فسُئل عن ذلك ، فقال : « أمر كنا نتوقعه ، فلمـا وقع لم ننكره » وفى هذا زيادة تنتظر وفضل تسليم لقضاء الله عز وجل .

ومن أقدم ما قيل فى هذا المعنى قول أوس بن حَجَر الأسيدى يرثى فَضالة بن كلدة أحد بنى أسد بن خُزيمة :
أيتها النفس أجملى جزعـــا إن الذى تحذرين قد وقعـــا
إن الذى جمّع السماحة والـــنجدة والحزم والقُوَى جُمعَـــا

---

[2] علق مضنة : الشيء النفيس الذى يحرص عليه .
[1] الترة : الثـــأر .

الألمعيُّ الذى يظن لك الظن كأنْ قد رأى وقد سمعا

المُخلفُ المتلف المُرَزّأ لم يُمتَع بضعف ولم يمت طبعا

والحافظ الناسَ فى تَحوط إذا لم يُرسلوا خلفَ عائذ رُبَعا

وعَزّت الشمألَ الرياحَ وقد أمسى كَميعُ الفتاة مُلتفعا

وشُبّه الهَيْدَبُ العَبامُ من الأقوام سَقْبا مُلبّسا فَرَعا

وكانت الكاعبُ المنعّمة الحسناء فى زاد أهلها سَبُعا

ليبكِكَ الشرب والمُدامة والفتيانُ طُرّا وطامعٌ طَمِعا

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نَواشرُها تُصْمِتُ بالماء تَوْلَبا جَدِعا

الألمعى : الحديد اللسان والقلب ، وقد أبانه بقوله الذى يظن لك الظن كأن قد رأى وقد سمعا . والمخلف المتلف : أراد أنه يتلف ماله كَرَما ويخلفه نجدة . والطبع : أسوأ الطمع ، وأصله أن القلب يعتاد الخَلّة الدنيئة فتركبه كالحائل بينه وبين الفهم لقبح ما يظهر منه . وتحوط وقحوط : اسمان للسّنة الجدبة . والعائذ: الحديثة النتاج. والربع : الذى ينتج فى الربيع ، ومن شأنهم فى سنة الجدب أن ينحروا الفصال لئلا ترضع فتضر بالأمهات . وعزت الشمأل الرياح : يقول غلبتها وتلك علامة الجدب وذهاب الأمطار . والكميع : الضجيع . والكاعب : التى كعب ثديها ، يقول تصير كالسّبع فى زاد أهلها بعد أن كانت تعاف طيب الطعام . وذات دم : يعنى امرأة ضعيفة . والهدم : الكساء الخَلَق الرّث . والنواشر : عروق الساعد . والتولب : الصغير . والجدع : السيىء الغذاء .

وقالت ليلى الأخيلية :

نظرتُ ورُكْنٌ من بُوانةَ دونَنا وأركانُ حِسْمَى أىَّ نظرةِ ناظر

إلى الخيل أجْلى شأْوُها عـن عقيرةٍ — لعاقرِها فيهـا عَقيرةُ عاقـر
كأن فتى الفتيان توبةَ لم يُنـِخْ — قلائصَ يَفْحَصْنَ الحَصَى بالكَراكر
ولم يَبْنِ أبرادا رِقاقا لفتيـةٍ — كرام ويَرْحَلْ قبـل فَيْءِ الهوَاجر
فتى لا تخَطَّاهُ الرِّفاق ولا يـرى — لقِدْرٍ عيالا دون جارٍ مجـاور
وكنتَ إذا مولاك خاف ظُلامـةً — دعاك ولم يقنع سـواك بناصـر

شـأوها : طَـلْقها . وقولهـا : لعاقرها فيها عقيرة عاقر : أى أصابوا عقيرة نفيسة. وقولها : ويرحل قبل فىء الهواجر : تريد أنه متيقظ ظعّان . والمولى فى قولها: إذا مـولاك خاف ظلامة ، يحتمل ضُروبا ، والمولى هنا : ابن العم . وقولها : ولم يبن أبرادا : تريد الخيـام .

وكـانت الخنساء وليلى باثنتين فى أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول . فممن نـدر مـن النساء فى باب من الأبواب أم أيوب الأنصارية ، وأم الدَّرداء ، ورابعة القَيْسـية ، ومُعاذة العَدوَية ، فإن هؤلاء النسوة تقدمن فى الفضل والصلاح ، على تقدم بعضهن بعضا . فأما النساء الأشراف فإن القول فيهن كثير متسع . فمما ندر من شعر الخنساء قولها ترثى صَخْرا :

يا صخر وَرّادَ ماءٍ قـد تنَاذَره — أهلُ المياة وما فى وِرْدِه عـارُ
مشى السبَنْتَى إلى هيجاءَ مُعضلة — له سلاحان أنيابٌ وأظفـار
ومـا عَجولٌ على بَوٍّ تحنُّ لـه — لهـا حنينان إعلانٌ وإسـرار [1]
ترتع ما غفلتْ حتى إذا ادَّكَرَتْ — فإنمـا هى إقبـال وإدبـار

[1] البو : جلد ولد الناقة يحشى تبنا ويقدم لها لتحن عليـه .

يوما بأوْجَعَ منى يوم فـــــارقنى ... صخرٌ وللعيش إحْلاء وإمــــرار
وإن صخرا لوالينـــــا وسيدُنــــا ... ولإن صخرا إذا نَشْتُو لَنَحّـــار
وإن صخرا لتأتمُّ الهُـــــــداة به ... كأنه عَلَمٌ فى رأســـه نــــار
لم تره جارة يمشى بساحتهـــــا ... لريبةٍ حين يخلى بيتَه الجـــــار

قولهـــــا :

يا صـــخر وراد ماء قد تنـــاذره ... أهـــل الميــــاه وما فى ورده عار

تعـــنى الموت ، أى لإقدامه على الحرب . والسبنتى والسبندى : واحد ، وهو الجـــرىء الصدر ، وأصله فى النمر . والعجول : التى فارقها ولدها . وقولها : إلى هيجاء معضلة تعنى الحرب . وقولها : كأنه علم فى رأسه نار ، فالعلم : الجبل .

ومن حسن شعرها قولهـــــا :

أعينىَّ جُـــودا ولا تَجْمُـــــدا ... ألا تبكيـــان لصخر النَّـــــدَى
ألا تبكيان الجرىءَ الجمَيـــــل ... ألا تبـــكيان الفتى الســـيدا
طويلَ النّجــاد رفيـــع العمِــا ... د ســـاد عشــيرتَه أمْـــردا
إذا القـــوم مَـــدُّوا بأيديهـــــم ... من المجـــــد ثم مضى مُصْعِدا
يُــــكلّفـــه القـــومُ ما عالَهم ... إنْ كـــان صغرهـــم مَوْلــــدا
ترى الحمدَ يَهوْى إلى بيتـــــه ... يرى أفضـــلَ الكَسب أن يُحْمَدا

الـــنجاد : حامل السيف ، تريد بطول نجاده طول قامته ، وهذا مما يمدح به الشريف . ورفيع العماد : إنما تريد ذاك ، يقال : رجل مُعَمَّد أى طويل . وما عالهم أى نالهم ونزل بهم .

ومن جيد قولهـــــا :

أبَعْدَ ابنِ عمرو من آل الشريـــــ	ـــدِ حَلّتْ به الأرضُ أثقالهـــا
لَعَمْرُو أبيـــه لَنِعْمَ الفـــتى	إذا النفسُ اعجبها مالهـــا
فإن تَـك مُـرةُ أوْدَتْ بـــه	فقـد كان يُـكثر تَقْتـالهـا
فخرّ الشوامخُ مـــن فَقْـده	وزُلزلت الأرضُ زلزالهـا
همتْ بنفسيَ كلّ الهمــوم	فـأوْلَىَ لنفسى أولى لهـا
لأحْمِـلَ نفسى عـلى آلــةٍ	فإمّـا عليهـا وإمـا لهـا

حـلت : من الحَلْى : تقول : زينت به الأرض الموتى . وقولهـا : لنعم الفتى إذا الـنفس أعجبها مالها : تقول : يجود بما هو له فى الوقت الذى يؤْثره أهله على الحمـد والشوامخ : الجبال . والشامخ : العالى . وعلى آلة : أى على حالة وعلى خطـة هـى الفيصل ، فإما ظفرت وإما هـلكت . وقولهـا : فأولى لنفسى أولى لهـا : يقول الرجل إذا حاول شيئا فأفلته من بعدها ما كاد يصيبه : أولى له ، وإذا أفلت من عظيمة قال : أولى لى .

وقـالت الخنسـاء ترثى أخاها معاوية بن عمرو ، وكان معاوية أخاها لأبيها وأمها ، وكان صخر أخاها لأبيها ، وكان أحبهما إليها . وكان صخر يستحق ذلك مـنها بأمور منها أنه كان موصوفا بالحلم ، ومشهورا بالجود ، ومعروفا بالتقدم فى الشجاعة ، ومحظوظا فى العشيرة :

أربقى من دموعـــك وأستَفيقى	وصبرا إن أطقْتِ ولن تُطيـــقى
وقــولى إن خير بنى سُلَيم	وفارسَهـا بصحــراء العَقيق
ألا هـل تَرْجِعَنّ لنـا الليــالى	وأيامٌ لنـا بِلَوى الشقيـــق
وإذ نحن الفوارسُ كلّ يــوم	إذا حضروا وفتيـان الحقوق
وإذا فينا معاويـــة بن عمرو	إلى أدْمــاءَ كالجملِ الفَنيــق

فبـكّيه فقد أوْدَى حَميـــــدا | أمينَ الرأى محمودَ الصديـــق
فــلا والله لا تَسْلاك نفســـى | لفاحشـــة أتيتَ ولا عُقـــوق
ولــكنى رأيت الصبر خــــيرا | من النَّعلين والرأس الحَليـــق

تــأويل النعلين أن المرأة كانت إذا أصيبت بحميم جعلت فى يدها نعلين تصفق بهمــا وجههــا . وإنمــا قالت الخنساء هذا الشعر فى معاوية أخيها قبل أن يُصاب صـــخر أخوها . فلمــا أصيب صخر نسيت به من كان قبله . وكان معاوية فارسا شــجاعــا ، فأغار فى جمع من بنى سليم على غطفان ، وكان صميم خيلهم . فَنَذر بـــه[1] القـــوم فاحتربوا فلم يزل يطعن فيهم ويضرب . فلما رأوا ذلك هَيأ له ابنا حرمـــلة دريـــد وهاشـــم . فاستطرد [2] له أحدهما ، فحمل عليه معاوية فطعنه . وخـــرج عليه الآخر ، وهو لا يشعر ، فقتله فنادَى القوم : « قُتل معاوية » . فقال خُفـــاف بـــن نَدْبة : « قتلنى الله إن رِمْت [3] حتى أثأر به » . فحمل على مالك بن حمار، وهو سيد من بنى شَمْخ بن فزارة ، فقتله .

فلما دخلت الأشهر الحرم ورد عليهم صخر،فقال : « أيــكم قاتل أخى ؟ » فقـــال أحـــد بنى حرملة للآخر : « خَبِّره » . فقال : « استطردتُ له فطعننى هذه الطعنة ، وحمل عليه أخى فقتله ، فأينا قتلت فهو ثأرك . أمَا إنّا لم نَسْلُب أخاك » . قال : « فما فعلتْ فرسه الشُّمَّى » . قال : « ها هى تلك فخذها » فانصرف بها . فقيـــل لصخر : « ألا تهجوهم ؟ » فقال : «ما بينى وبينهم أقذع من الهجـــاء ولو لم أمســـك عن سبهم إلا صيانة للسانى عن الخنا لفعلت » . ثم خَاف أن يُظن به عىٌّ فقال :

---

[1] نذر به : علمه فحذره واستعد له .
[2] استطرد له : أظهر له الانهزام مكيـــــدة .
[3] رمت : انتقلت .

وعاذلة هَبَّت بليـــــــــل تلومنى	ألاَ لا تلومينى كفى اللومَ مابيـــا
تقول ألا تهجو فوارس هاشــــــم	ومالىَ إذ أهجـــوهمُ ثم ماليـــــا
أبى الشتمَ أنى قد اصابـــوا كريمتى	وأنْ ليس إهداء الخنامن شماليا
إذا ما امرُؤٌ أهدى لَميْت تحيـــــــة	فحَيَّاك ربُّ العرشِ عنى معاويـــا
وَهوَّنَ وَجْدى أننى لم أقُـــــلْ لـــه	كذبتَ ولم أبخل عليه بماليـــــا

فــلما انقضت الأشهر الحرم جمع لهم ليُغير عليهم . فنظرت غطفان إلى خيله بموضـــعها فقال بعضهم لبعض : « هذا صخر بن الشريد على فرسه السمى » . فقيل : «كلا السمى غَرَّاء [1] » وكان قد حَمَّم [2] غُرتها فأصاب فيهم وقتل دريد ابـــن حَرْمَـــلة . وأما هاشم فإن قيس بن الأسور الجُشَمى لقيه وقد انفرد لحاجته ، فقال : « لا أطلب بمعاوية بعد اليوم » فأرسل عليه سهما ففلق قُحْقُحه [3] .

وكـــان سبب قتل صخر بن عمرو بن الشريد ، أنه جمع جمعا وأغار على بنى أسد بن خزيمة فنذروا به فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديدا . فارفَّض أصحاب صخر عنه. وطعـــنه أبـــو ثور طعنة فى جنبه استقلّ بها . فلما صار إلى أهله تعالجَ فنتأمن الجرح كمـــثل اليد . فأضنـــــــاه ذلك حولا . فسمع سائلا يسأل امرأته ، وهو يقول : « كيـــف صخر اليوم ؟» .فقالت : « لا ميت فينعَى ولا صحيح فيرجَى ». فعلم أنها قد برمت به . ثم عزم على قطع ذلك الموضع ، فلما قطعه مات .

(١) الفرس الغراء : التى لها بياض فى جبهتها .

(٢) حمم : ســـــود .

(٣) القحقح : ملتقى الوركين من الباطن .

وكـــانت العـــرب تقـــدم مراثى وتفضلها وترى قائلها بها فوق كل مُؤَبن ، وكـــأنهم يرون ما بعدها من المرثى منها أُخذت ، وفى كَنَفها تصلح . فمنها قصيدة أعشـــى باهلة . ويكنى أباُ قحافة ، التى يرثى بها المُنتشر بن وهب الباهلى . وكان أحـــد رِجْلى العرب ، وهم السعاة السابقون فى شَغْبهم . وكان من خبره أنه أسر صـــلاءة ابن العنبر الحارثى ، فقال : « افدِ نفسك » . فأبى . فقال : « لأقطعنّك أُنمـــلة أنملة وعضوا عضوا مالم تفد نفسك » فجعل يفعل ذلك به حتى قتله ثم حج من بعد ذلك المنتشر ذا الخُلصة ، وهو بيت كانت خثعم تحجه ، زعم أبو عبيدة أنه بالعَبَلات ، وأنه مسجدُ جامعها فدلت عليه بنو نُفَيل بن عمرو بن كلاب الحارثيين. فقبضـــوا عليه فقالوا : « لنفعلنّ بك كما فعلت بصلاءة » ففعلوا ذلك به . فلقى راكـــبٌ أعشـــى باهلة ، فقال له الأعشى : « هل من جائبة خَبر ؟ » قال : « نعم أســـرت بـــنو الحارث المنتشر » وكانت بنو الحارث تسمى المنتشر مُجدِّعا . فلما صار فى أيديهم قالوا : « لَنُقطِّعنك كما فعلت بصلاءة » فقال أعشى باهلة يرثى المنتشر :

إنى أتتْنى لسانٌ لا أُسَرُّ بهـــــــا	من علُ عَجَبٌ لا منها ولا سَخَرُ
فَبتُّ مُرتفقا للنجم أرْقُبـــــــــه	حيرانَ ذا حذرٍ لو ينفع الحـــذر
فجاشت النفس لـــــا جاء جمعُهمُ	وراكب جاء من تَثْليثَ مُعتمر
يأتى على الناس لا يَلْوى على أحد	حتى التقْينا وكانت دوننا مُضر
يَنْعىَ امـــــرأ لا تُغِبّ الحىَّ جفنتهُ	إذاالكواكب أخْطأ نوْءَها المطَر[1]
من ليس فى خيره شرٌّ يـــكدّره	على الصديق ولا فى صَفْوه كَدَر
طاوى المصَيرِ على العَزاءِ منصَلت	بالقوم ليلةَ لا ماءٌ ولا شـــجر[2]

[1] تغب الحى : تأتيهم يوما وتغيب آخر .

[2] المصير : الأمعـــــاء .

لا تنــكر البازلُ الــكَوْماء ضَرْبتهَ بالمشْرفى إذا ما اْجَلوْد السهر[1]

وَتَفْزَعُ الْشوْلُ منـــه حين تبصره حتى تَقطَّــع فى أعناقها الجِرَر[2]

لا يُصعبُ الأمرَ إلا رَيْث يركبـه وكلّ أمر سوى الفحشاء يأْتمر

تــكفيه فلْذَةُ كبْد إنْ ألمّ بهــــا من الشواء ويكفى شرْبَه الغُمَر[3]

لا َيتأرّى لمــا فى القدْر يرقبـــه ولا تراه أمام القـــوم يَقْتفر

لا يغمِز الساق من أيْنٍ ولاَ صبٍ ولا يَعضُ على شرْسوفه الصَّفَر[4]

مُهفهَفٌ أهضمُ الكَشحَين مُنخرِق عنه القميصُ لسير الليل ُمحتقر

عشنا بذلك دهرا ثم فارقنــــا كذلك الرمح ذوالنّصلين ينكسر

لا يأمن الناسُ ُممســاه ومصْبَحَه من كل أوْبٍ وإن لم يأت يُنظَر

إما يُصِبْك عدو فى مُبـــــاوَأة يوماً فقد كنتَ تَستعلِى وتنتصر[5]

لو لم تَخُنْه ُنفيل وهى خائنـــةٌ ألَمّ بالقوم وِرْدٌ منه أو صَـــــدرُ

زَراد حربٍ شهابٌ يُستضاء بـــه كما يضىء سوادَ الطّخية القمر

إما سلكتَ سبيلا كنت سالكهـــا فأذهب فلا يُبعد نُك الله منتشر

من ليس فيه إذا قاولتـــــهَ رَهقٌ وليس فيه إذا عــاسرتَه عَسَــر

أراد باللســان هاهـنا الرسالة . وقوله : فبت مرتفقا ، وهو المتــكىء على مــرفقه، وإنمــا أراد السهر . وقوله : إذا الــكواكب أخطا نوءها المطر . فالنوء عــندهم طــلوع نجــم وسقوط آخر ، وليس كل الــكواكب لها نوء وإنما كانوا

(١) البازل : الناقة التى ظهر نابها . والــكوماء : الضخمة السنام .

(٢) الشول : النوق التى مر على حملها أو وضعها سبعة أشهر .

(٣) الغمـــر : القدح الصغير .

(٤) الأيــــن والوصب : التعب .

(٥) المياوأة : المبــــارزة .

يتقولون هذا فى أشياء بعينها . وقوله منصلت : يقال : سيف منصلت وصلت : إذا جــرد مــن غمده . وقوله : ليلة لا ماء ولا شجر : يريد الفقر ووقت الصعوبة . وقوله : لا تنكر البازل الــكوماء ضربته . يقول : قد عوّد الإبل أن ينحرها ، ومن شأنهم أنْ يــعَرْقبوها قبل النَحر . والمشرفى : السيف ، وهو منسوب إلى المشارف. وقولـــه : اجلوذ : امتد . وقوله : حتى تقطع فى أعناقها الجرر ، يقول : اعتادت أن ينحرها فهى تفزع منه حتى تقطع جرَتها . وقوله : لا يتأرى لما فى القدر يرقبه . يقــول : لا يتحبس له . وقوله : ولا تراه أمام القوم يقتفر ، يقول : لا يسبقهم إلى شــىء مــن الــزاد . وقوله : يعض على شرسوفه الصفر ، الشراسيف : أطراف الضــلوع . والصــفر : هناحية البطن . وقوله : مهفهف : يعنى ضامرا ، وأهضم الــكشــحين توكيــد له . وقوــله : إما يصبك عدو فى مباوأة ، يقول : فى وِتْر. والطخــبة شــدة الظلمة . وقوله : ليس فيه إذا عاسرته عسر : مدح شريف مثل قولهــم : إذا عز أخوك فهن . ،غنما هذا فيمن لا يخاف استذلاله بأن يخرج صاحبه عند مساهلته إلى باب الذل . فأما من كان كذلك فمعاسرته أحمد ومدافعته أمدح .

ومن أشعار العرب المشهورة المتخيرة فى المراثى قصيدة متمم بن نُويرة فى أخيه مالك . وسنذكر منها أُبياتا نختارها . ومن ذلك قوله :

أقول وقد طار السَّنا فى رَبابــــــه	وغَيث يَسُــحُ المــاء حتى تَرَيّعا
سقى اللهُ أرضا حَلها قبرُ مـــــالك	ذِهابَ الغَوادىالمدجنات فأمْرَعا[1]
وآثرَ سيلَ الوادِ يَيْن بديمــــــــة	تُرشِّحُ وَسْمِيّا من النبت خِرْوَعا
تَحيَّتهُ منى وإن كان نائيــــــــا	وأضحى ترابا فوقه الأرض بَلْقَعا[2]

[1] أمرع : أخصب .

[2] البلقع : المقفرة .

فما وَجْدُ أظآرِ ثلاثٍ روائــــمٍ رأينَ مَجَرّا من حُوار ومَصْرعـــا
يُذكّرن ذا البَثّ الحزيـــــن ببَثّه إذا حنّت الأولى سَجَعْن لها معا [1]
بأوجعَ منى يوم فارقتُ مالكـــــا ونادى به الناعى الرفيعُ فأسْمَعا

وفيهــــا :

وكنا كنَدْمائَىْ جَذيمةَ حقْبـــــــةً من الدهر حتى قيلَ لن يتصدعـــا
فلمـــــا تفرقْنا كأنى ومالـــــكا لطول اجتماع لم نَبِتْ ليلة معـــــا
وعشْنا بخير فى الحياة وَقَبْلنـــــا أصاب المنايا رهطَ كسْرى وتُبَّعـــا
فإن تــكن الأيام فَرّقْنَ بيننـــــا فقد بان محمودا أخى يوم وَدَّعـــا
تقول ابنة العَمْرىِّ مالك بعد مـــا أراك حديثا ناعم البال أفرعَـــــا
فقلتُ لها طول الأسى إذ سألتِنى ولوعةُ حُزنٍ تترك الوجه أسْفعـــا [2]
وفَقْدُ بنى أُمّ تفانَوْا فلم أكـــن خلافهمُ أن أســتكين وأضْرَعـــا
ولستُ إذا مالدهرُ أحدث نكبــة ورُزْأً بزَوارِ القَرائب أخْضعـــــا
ولا فَرِحٍ إن كنت يوما بغِبْطـــةٍ ولا جَزِعٍ إن نابَ دهرٌ فأوْجَعـــا
ولــكنى أمضى على ذاك مُقْدِمــا إذا بعضُ من لاقى الخطوب تَكَعْكعا [3]
فعَمْرَك ألاّ تُسْمعينى ملامــــــــةً ولا تَنْــكَئى قَرح الفؤاد فيِيجعَـــا
وقَصْرَكِ إنى قد شهدتُ فلم أجد بكفىَّ عنه للمنيـــة مَدْفعــــــــا
فلو أن ما ألقى أصـــــاب مُتالعــا أو الركنَ من سَلْمى إذا لتَضعضعا

---

(1) البث : الحزن الشديد . وسجعن : رددن الصوت .

(2) الأسفع : الأســـــود إلى حمرة .

(3) تكعكع : جبن .

وفى هذه القصيـــــــدة :

لقد كَفَّنَ المنهالُ تحتَ ردائـــــــه	فتى غيرَ مبْطانِ العَشيَّاتِ أرْوعـــا
ولا بَرَم تُهدى النساءُ لِعُرســــــــه	إذا القَشْعُ من برد الشتاء تَقَعْقعا[1]
لبيبا أعام اللُّبُّ منه سماحـــــــةٌ	خَصيبا إذا ماراثدُ الَجدْب أوْضعا[2]
تراه كنَصْلِ السيف يهتزُّ للنـــدَّى	إذا لم تجدعن امرىءالسوء مَطْمعما
إذا ابتدر القومُ القداحَ وأُوقدت	لهم نار أَيْسار كفى من تَضَجَّعا[3]
بمَثْنى الأيادى ثم لمُ تُلْف مالـــكا	على الفَرْثِ يحمىاللحم أن يُتمزَّعا[4]

الرباب : سحاب دون السحاب كالمتعلق بما فوقه . وتريع : أى كثر حتى جاء وذهـــب . والذهـــاب : الأمطار اللينة . والمدجنات من السحاب : السود . وآثر ســـيل الواديـــين بديمة : زعم الأصمعى وغيره من أهل العلم أن الديمة المطر الدائم أيامـــا برفق . والوسمى : أول مطر يسم الأرض . والوالى : كل مطرة بعد مطرة ، فالـــثانية ولى للأخرى لأنها تليها . والخروع : كل عود ضعيف . أظآر : جمع ظئر، وهـــى الـــنوق تعطـــف على الحوار فتألفه . وروائم : واحدها رؤوم ومعنى ترأمه تشمه. والحوار : ولد الناقة . وندمانى جذيمة : يعنى جذيمة الأبرش الأزدى ، وكان مـــلـــكا . والأفرع : التام شعر الرأس وغير مبطان العشيات : يقول كان لا يأكل فى آخـــر نماره انتظارا للضيف . والأروع : ذو الروعة والهيئة . والبرم : الذى لا ينزل مع الناس ولا يأخذ فى الميسر ولا ينزع إلا نـــكدا. القشع : الجلد اليابس .

---

[1] تقعقع : أحدث صوتـــــا .

[2] أوضــــــع : أسرع فى سيره .

[3] القداح : سهام الميسر . والأيسار : القوم المجتمون على الميسر .

[4] الفرث : فضلات الحيوان فى كرشــــــة .

ولمـــا احتضر إبراهيم النَّخَعى رحمه الله جزع جزعا شديدا فقيل له فى ذلك ، فقـــال : « وأى خطر أعظم من هذا ؟ إنما أتوقع رسولاً يرِد على من ربى إما بالجنة وإما بالنار » .

ولما احتضر ابن سيرين جعل يقول : « نفسى والله أعَزُّ الأنْفُس علىّ » .

ولما احتضر حجر بن عدى ليُقتل ، سأل أن يمهل حتى يصلى ركعتين . وظهر مـــنه جزع شديد، فقال له قائل : « أتجزع ؟ » فقال : « وكيف لا أجزع : سيف مشهور، وكفن منشور ، وقبر محفور. ولست أدرى أيؤَدِّينى إلى جنة أم إلى نار » .

وممن ظهرت منه عند الموت قسوة هُدْبة بن خَشْرم العُذْرى ، وكان قتل زيادة ابـــن زيد العُذْرِىّ . فلما حُمل إلى معاوية تقدم معه عبد الرحمن أخو زيادة بن زيد فـــأدعى عليه . فقال له معاوية : « ما تقول ؟» قال : « أتحب أن يـــكون الجواب شعرا أم نثرا ؟ » قال : « بل شعرا فإنه أمتع ». فقال هدبة :

فلمـــا رأيتُ أنمـــا هى ضـــربـــةٌ ... من السيف أو إغضاءُ عين على وِتْرِ[1]
عَمَدْتُ لأمر لا يُعَـــيِّر والـــدى ... خَزايتُه ولا يُسَبُّ به قـــــــــبرى
رُمينا فرامَيْنا فصادَفَ سهمُنـــــا ... منيةَ نفس فى كتـــــــاب وفى قَدْر
وأنت أمـــــيرُ المؤمنين فمالنـــا ... وراءك من مَعْدًى ولا عنك مـــن قَصْر
فإن تك فى أموالنا لا نَضِقْ بهـــا ... ذَرْعـــا وإنْ صَبْرٌ فنصـــــبرُ للصبر

---

(1) الوتر : الثـــأر .

فقـــال له معاويـــة : « أراك قد أقررت يا هدبة » .قال : « هو ذاك » فقال له عبد الرحمن : « أقدْنى [1] ». فـــكرة ذاك معاوية وضن بهدبة عن القتل ، وكان ابن زيادة صغيرا . فقال له معاوية : « أو ما عليك أن تشفى صدرك وتحرم غيرك » ثم وجّـــه به إلى المدينة فقال : « يُحْبَس على أن يبلغ ابن زيادة » فبلغ . وكان والى المديـــنة ســـعيد بن العاص . ويقال : إنه عرض على ابن زيادة عشر ديات فأبى إلا القَـــوَد . وكان ممن عرض الديات عليه ممن ذُكرِ لنا الحسين بن على ، وعبد الله بن جعفر عليهما السلام ، وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحـــكم ، وسائر القوم من قـــريش والأنصار . فلما خُرج به ليُقاد بالحرَة جعل ينشد الأشعار . فقالت له حُبَّى المديـــنية : « مـــا رأيت أقسى قلبا منك ! أتنشد الأشعار وأنت يُمضَى بك لتقتل ، وهذه خلفك كأنها ظبى عطشان تولول ؟ » تعنى امرأته . فوقف ووقف الناس معه ، فأقبل على حبى ، فقال :

مـــــا وجدتْ وَجْدى بها أُمُّ واحدٍ ... ولا وجدَ حُبَّى يابن أمَّ كـــلابِ

رأته طويــــــل السَّاعدين شَمَرْدَلا ... كما انعتت من قوةٍ وشـــباب [2]

فأغلقت حبى الباب فى وجهه وسبته وعرض له عبد الرحمن بن حسان ، فقال: « أنشدنى » . فقال له : « أعلى هذه الحال ؟ » قال : « نعم » فأنشده :

ولستُ بمفراحٍ إذا الدهـــر سَرَّنى ... ولا جازعٍ مـــن صَرْفه المتقلّـــب

ولا أتَبغَّى الشـــر والشرُّ تاركى ... ولكنْ متى أُحمل على الشر أركب

وحَرَّبنى مولاى حتى غَشـــــيتهُ ... متى ما يُحَر بْك ابن عمك تَحرَب [3]

---

[1] أقدنى : اقتص لى ، أى عاقبـــــه .

[2] الشمردل : الفتى القوى الصبور .

[3] حربه : أغضبه . وغشيته : أتيته .

فلما قُدِّم نظر إلى امرأته فدخلته غيرة ، وقد كان جُدِع فى حربهم فقال :

فإنْ يكُ أنفى بـــان منـــــه جمالُه — فما حَسَبى فى الصالحين بأجْدَعا
فلا تَنْكحِى إن فَرَّق الدهــر بيننا — أغَمَّ القفا والوجه ليس بأنْزَعا [1]

فقـــالت : « قفوا عنه ساعة » . ثم مضت ورجعت وقد اصْطَلمت [2] أنفها فقالت : « أهذا فعل من له فى الرجال حاجة ؟ » فقال : « الآن طاب الموت » ثم أقبل على أبويه فقال :

أ ْبلياني اليومَ صـــبرا منـــــــكما — إنّ حُزنا منـــــكما اليـــوم لَشَرْ
ما أظن الموت إلا هيّنـــــــــــا — إنّ بعد المـــــــوت دارَ المستقر

ثم قال :

أذا العرشِ إنى عائذٌ بـــــك مؤمنٌ — مُقرٌّ بزَلاتى إليـــــــــك فقيرُ
وإنى وإن قالـــــــوا أميرٌ مسلَّط — وحُجّابُ أبواب لهـــــن صَرير
لَأَعْلَم أنّ الأمر أمــــــرك إنْ تَدنْ — فرَبٌّ وإنْ تغفر فأنت غفور [3]

ثم قـــال لابـــن زيـــادة : « أثبت قدميك وأجِد الضربة، فإنى أيتمتك صغيرا وأرملت أمك شابة » .

---

[1] أغم القفا : سال شعره عليه . والأنزع : المنحسر الشعر عن جانبى الجبهة. وكان العرب يستحبون النزع ويكرهون الغمم .

[2] اصطلمت : قطعت .

[3] دانه : حكم عليـــــــه .

وذكـــر الحـــرمازى أن الأحنف بن قيس لمـــا مات ، وكان موته بالـــكوفة ، مشى المصعب بن الزبير فى جنازته بغير رداء ، وقال : « اليوم مات سيد العرب » . فـــلما دُفن قامت امرأته على قبره ، أحسبها من بنى مِنْقَر ، فقالت : « لله دَرُّك من مُجَنّ فى جنَنَ ، ومُدْرَج فى كَفَن [1] ! فنسأل الذى فجعَنا بموتك، وابتلانا بفقدك، أن يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الخير دليلك ، وأن يوسع لك فى قبرك ، ويغفر لـــك يوم حشرك . فوالله لقد كنت فى المحافل شريفا، وعلى الأرامل عطوفا ، ولقد كـــنت فى الحى مسوَّدا ، وإلى الخليفة مُوفَدا . ولقد كانوا لقولك مستمعين ولرأيك مُتَّبِعين » . فقال الناس : « ما سمعنا كلام امرأة أبلغ ولا أصدق معنى منها » .

ومـــا استطرفنا من شعر المحدثين قول يعقوب بن الربيع فى جارية طالبها سبع ســـنين يـــبذل فيها جاهه وماله وإخوانه حتى ملـــكها . فأقامت عنده ستة أشهر ثم ماتت . فقال فيها أشعارا كثيرة اخترنا منها بعضها . من ذلك قوله :

لله آنسةٌ فُجعْتُ بهـــــــا	ما كان أَبْعَدَها مـــن الدنَس
أتت البِشارةُ والنَّعِيُّ معـــــا	يا قُرْبَ مأتمِهـــا مـــن العُرُس
يا مُلْكُ نال الدهرُ فرصتَـــه	فرمى فؤَادا غـــير محترِس
كـــم من دموع لا تجف ومن	نفس عليك طويـــلة النفس
أبكيك مانـــــاحتْ مُطوَّقَةٌ	تحت الظلام تنوح فى الغَلَس [2]
يا مُلْكُ فىّ وفيـــك معْتَبر	ومواعـــظٌ يوحِشْنَ ذا الأُنس
ما بعد فُرْقةِ بَيْنِنـــا أبـــدا	فى لـــذة دَرَكٌ لُملتَمِس

(1) المجن : المغيب . والجنن : القبر .

(2) المطوقة : الحمامة ذات اللون المخالف عند رقبتها . والغلس : الظلام .

وقريب من هذا قول امرأة شريفة ترثى زوجها ، ولم يــكن دخل عليها :

أبــكيك لا للنعيــــــم والأُنس بل للمعـــــالى والرمحِ والفرسِ
أبـــكى على فارسٍ فجعتُ بــــه أرْمَلنى قبـــل ليـــلةِ العرس
يا فارســا بالعَراء مُطَّرَحـــــا خانتْه قوّاده مــــــع الحرس
مَنْ لليتامى إذا هــــــمُ سَغِبوا وكلِّ عانٍ وكـــــل محتَبس [1]
أم مَنْ لبرّ أم من لفــــائدةٍ أم من لذكــر الإله فى الغلس

ومما أستطرفه من شعر يعقوب قوله :

ليت شعْرى بـــــأىّ ذنب لمُلْك كان هجرى لقبرهـــا واجتنابى
الذنب حَقَدْته كان منهـــــــا أم لعلمى بشُغْلها عن عتـــابى
أم لأَمْنى لسُخْطها ورضاهــــا حين واريتُ وجهَها فى التـــراب
ما وفَى فى العبــــاد حَىٌّ لميْت بعد يأس منه له فى الإيـــاب

وفى هذا الشعر :

إنما حسرتى إذا ما تذكّـــــر تُ عَنائى بها وطولَ طِـــلابى
لم أزل فى الطّـــلاب سبع سنين أَتأتّى لذاك من كـــل باب
فاجتمعنا على اتفاق وقَـــدْر وغَنينا عن فُرْقة باصطحـــاب
أشهُرا ستة صحبتُك فيهـــا كنّ كالحلم أو كَلمْع الســراب
وأتانى النَّعِىُّ منك مع البشـــ ـــرى فياقُرْبَ أوْبة من ذهـــاب

---

[1] سغبوا : جاعوا . والعانى : الأسير .

ومن مليح شعره أيضـــا قوله :

فُجِعتُ بمِلْك وقـــــد أينعت ... وتمت فأعْظِمْ بها من مصيبَـــةْ
فأصبحتُ مغترِبـــا بعدهـــــا ... وأمست بحُلوانَ مُلْكٌ غَريبـــه
أراني غريبـــــا وإنْ أصبحتْ ... منازلُ أهليَ منى قريبــــــه
خَلَفْتُ على أختها بعدهــــــا ... فصادفتُها ذاتَ عقل أديبـــــه
فأقبلتُ أبـــكى وتبـــكى معى ... بـــكاء كئيبٍ بحُزْنِ كئيبـــــه
وقلتُ لهـــا مرحبـــا مرحبـــا ... بوجهِ الحبيبة أخت الحبيبـــــه
سأُصفيك ودى حِفاظا لهـــــا ... فذاك الوفاءُ بظهر المَغيبـــه [1]
أراك كَمُلْكٍ وإنْ لم تـــــكن ... لُمْلك من الناس عندى ضَريبه [2]

خطب ومواعظ

قال الأصمعى فيما بلغنى : خطبنا أعرابى بالبادية فحمد الله واستغفره ووحّده وصلى على نبيه، فبلغ فى إيجاز ثم قال : « أيها الناس إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قـــرار، فخُذوا من مفرّكم لَمقَرْكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، فى الدنيا كنتم ، ولغيرها خُلقتم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم والُمصلّى عليه رسول الله ، والمدعو له الخليفة ، والأمير جعفر بن سليمان » .

---

(1) أصفيك الود : أخلصـــه لك .
(2) ضريبـــة : مثيلة .

وحدثت فى بعض الأسانيد أن عمر بن عبد العزيز قال فى خطبة له : « أيها الناس إنما الدنيا أمل مُخْتَرَم [1] ، وأجل مُنتقَص ، وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير على الموت ليس فيه تَعريج [2] . فرحم الله امرأ فكر فى أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبه [3] ، ونَوّر قلبه . أيها الناس قد علمتم أن أباكم قد أُخرج من الجنة بذنب واحد ، وأن ربكم وعد على التوبة . فليكن أحدكم من ذنبه على وَجَل [4] ، ومن ربه على أمل » .

وذكر العتبى قال : خطب الناس بالموسم عُتبة فى سنة إحدى وأربعين ، وعهد الناس حديث بالفتنة . فاستفتح ثم قال : « أيها الناس ، إنا قد وَلِينا هذا الموضع الذى يضاعف الله فيه للمحسن الأجر وعلى المسىء الوِزْر . فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فإنها تنقطع دوننا . ورُبَّ مُتَمَنٍّ حَتْفُهُ فى أمنيته . اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم . وإياكم « وَلَوْ » ، فقد أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم . فاسألوا الله أن يعين كُلاًّ عن كلّ » . فَنَعق به أعرابى من مؤخر المسجد ، فقال : « أيها الخليفة » . فقال : « لستُ به ولم تُبعد » قال : « فيا أخاه » قال : « قد أسمعتَ فقل » فقال : « والله لأنْ تُحسنوا وقد أسأنا خَيْرٌ لكم من أن تسيئوا وقد أحسنا . فإن كان الإحسان لكم فما أحقّكم باستتمامه ، وإن كان لنا فما أحقّكم بمكافأتنا . رجلٌ من بنى عامر يَمُتّ إليكم [5] بالعمومة ،

---

(1) مخترم : مستأصل .
(2) تعريج : وقوف وإقامة .
(3) استقال ذنبه : استغفر منه .
(4) الوجل : الخوف .
(5) يمت إليكم : يتوسل .

ويختص إليكم بالخئولة ، وقد وطئه زمانٌ وكثرة عيال ، وفيه أجر، وعنده شكر » .
فقـــال عتـــبة : « أستعيذ بالله منك وأستعينه عليك . قد أمرت لك بغِناك ، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنـــك » .

هذا آخر الــكتاب ، وقد وفّيناه جميع حقوقه ، ووفّينا بجميع شروطه ، إلا ما أذهل عنه النسيان ، فإنه قلما يُخْلَى من ذلك .

فهرس

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحه

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضــــــــوع	الصفحة